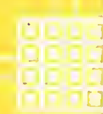
أعلام المسلمين
٧٢



عالم المغرب، وإمام أهل الحديث في وقته

(٤٧٦ - ٥٤٤ هـ)

تأليف الدكتور
الحسين بن محمد شوّاط



دار القلم
دمشق



عالم المغرب، وإمام أهل الحديث في وقته

(٤٧٦ - ٥٤٤هـ)

تأليف الدكتور

الحسين بن محمد شوّاط

القاضي عياض

عالم المغرب، وإمام أهل الحديث في وقته

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

هٰــذَا الرَّجُــل

« الإمام العلاّمـة، الحافظ الأوحد، شـيخ الإسـلام: القاضي أبو الفضل عياض بن موسى... استبحر في العلوم، وجمع وألَّف، وسارت بتصانيفه الركبان، واشتهر اسمه في الآفاق».

الحافظ الذهبي

«كان إمام الحديث في وقته، وأعلم الناس بعلومه، وبالنحو، واللغة، وكلام العرب، وأيامهم وأنسابهم».

الإمام السيوطي

«كان إمام وقته في علوم شتّى، وصنَّف التصانيف البديعة... عديم النظير، حسنة من حسنات الأيام، شديد التعصُّب للسنّة».

الحافظ ابن العماد الحنبلي

«حاز من الرئاسة في بلده والرفعة، ما لم يصل إليه أحد قطُّ من أهل بلده، وما زاده ذلك إلا تواضعاً وخشية لله تعالى».

الفقيه محمد بن حماد السبتي

«كان حافظاً لمذهب مالك، شاعراً مجيداً، خطيباً بليغاً، صبوراً حليماً، جميل العِشْرة، جَواداً سَمْحاً، كثير الصدقة، دؤوباً على العمل، صلباً في الحق».

العلاَّمة ابن فرحون

«مقام القاضي عياض مقام البخاري ومسلم والأئمة الأربعة، فهم حَمَلَة الشريعة، وعلومهم التي يبثّونها في صدور الرجال بالتلقين أو بالتأليف هي أورادهم، والوسيلة بينهم وبين الله تعالى، وذلك من أجلّ الأوراد وأجدرها نفعاً، وأبقى ثواباً، وأئمة العلم المذكورون لازالوا بعلومهم كأنهم أحياء، وكل مَن استفاد مسألة علمية من كتبهم فهم أشياخه إلى يوم القيامة».

العلاَّمة محمد أمين الصحراوي، نزيل مراكش

«لما ورد علينا القاضي عياض غرناطة خرج الناس للقائه، وبرّزوا تبريزاً ما رأيت لأمير مؤمَّر مثله.. ولما استقرّ عندنا كان مثل التمرة: كلما ليكت زادت حلاوة، ولفظه عذب في كل ما صرَّف من الكلام، للنفس إليه تَتَوُّق، وله طلاوة، وكان برّاً بلسانه، جواداً ببنانه، كثير التخشُّع في صلاته، مواصلاً لِصِلاته».

الحافظ ابن القصير

«كان من حفَّاظ كتاب الله تعالى والقيام عليه، لا يترك التلاوة له على كل حالة، مع الحظ الوافر من تفسيره وجميع أنواع علومه».

ابنه: القاضي محمد



المقـــدّمَة

١ ـ أهمية العناية بتراجم أعلام الأمة :

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، رب الأرضين والسماوات العلى، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله النبي المجتبىٰ، شهادة أرجو بها النجاة والفوز في الآخرة والأولى، وصلى الله وسلم وبارك على المبعوث رحمـة للخَلْق أجمعين وهدىً لأولي النهى، تَرَكَنـا على المحجّـة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا الهلكى، ورضي الله تعالى عن الصحابة والتابعين ومن تبعهم إلى يوم الدين بحسن الاهتداء والاقتداء، أما بعد:

فإن حَمَلَة الشريعة هم ورثة علم النبوة، هيّأهم الله عز وجل لخدمة هذا الدين، فأفنوا أعمارهم في تحصيل علوم الكتاب والسنّة،

واجتهدوا في الاستقامة على هديهما، وبذلوا الوسع في القيام عليهما رواية ودراية وتصنيفاً وتدريساً، ونافحوا عن الشريعة الغرّاء في مشارق الأرض ومغاربها، جيلاً بعد جيل، على مرّ الزمان وتعاقب الشهور والأعـوام، لا يضرّهم المخالف، ولا يفلُّ في عزائمهم المتخـاذل، ولا يضعف من هممهم المتخلّف الخانع.

حفظ الله بهم السنن، ونجّى الأمة بسببهم من كثير من الفتن، أحيا الله ذكرهم، ورفع قدرهم، ورزقهم لذّة الإيمان، وراحة البال، وطمأنينة القلب، وأمن النفس، والسعادة الغامرة بعبادة الله كما شرع وأمر، ونشر دينه بلا ملل، والذَّود عن حماه دون كلل، فضلاً عما ينتظرهم في الآخرة من جزيل الثواب بإذن الله.

قال الخطيب البغدادي[1]: «قد جعل الله رب العالمين الطائفة المنصـورة حراس الدين، وصرف عنهم كيد المعاندين لتمسّـكهم بالشرع المتين، واقتفـائهم آثـار الصحابـة والتابعين، فشـأنهم حفظ الآثار، وقطع المفاوز والقِفار، وركوب البراري والبحار؛ في اقتباس ما شرع الرسول المصطفى، لا يعرجون عنه إلى رأي ولا هوى، قبلوا شريعته قولاً وفعلاً، وحرسوا سنّته حفظاً ونقلاً، حتى ثبّتوا بذلك

---

(١) شرف أصحاب الحديث، ص ٨ ـ ١١.

أصلها، وكانوا أحق بها وأهلها».

وقال: «. . . فهم أمناء الله من خليقته، والواسطة بين النبي ﷺ وأمتـه، والمجتهدون في حفظ ملّتـه، أنوارهم زاهرة، وفضائلهم سائرة، وآياتهم باهرة، ومذاهبهم ظاهرة، وحججهم قاهرة».

وقال ابن الجوزي[1]: «تأملتُ نفسي بالإضافـة إلى عشـيرتي الذين أنفقوا أعمارهم في اكتساب الدنيا، وأنفقت زمن الصبوة والشباب في طلب العلم، فرأيتني لم يفتني مما نالوه إلا ما لو حصل لي ندمت عليه، ثم تأملت حالي فإذا عيشي في الدنيا أجود من عيشهم، وجاهي بين الناس أعلى من جاههم، وما نلته من معرفة العلم لا يقاوم».

ومن هنا وجب بيان فضائل العلماء، وتخليد ذكرهم، ونشر سيرهم، وتيسير الاستفادة منها، وأخذ العِبَر والفوائد من تراجمهم، والتأسي بخصالهم ومناقبهم، ويزداد الأمر تأكّداً في هذا الزمن، زمن الصحوة الإسلامية المباركة، واستعادة الأمة لوعيها بعظمة الأمانة التي تحملها.

ولن يصلح حال آخر هذه الأمة إلاَّ بما صلح به أوّلها، ومن أهم

---

(١) صيد الخاطر، ص ٢٣٤.

الأسباب المساعدة على ذلك جدية الانتماء لهذا الدين؛ صحة في الاعتقاد، وتسليماً في الانقياد، وسلامة في ربط المسلمين اليوم بأسلافهم النجباء للسير على نهجهم في الاهتداء، وتسنُّناً في الاقتداء، وبصيرة في الدعوة، وسموّاً في الأخلاق، وصدقاً في الطاعة، وتراحماً فيما بينهم، وتحقيقاً لشرطَي قبول الأعمال في جميع ذلك: الإخلاص والصواب، بأن يعبد الله وحده، وأن يعبد بما شرع.

وأسأل الله تعالى جزيل المثوبة للأفاضل القائمين على دار القلم بدمشق، الذين وقفوا على هذه الثغرة، ورعوا بمثابرة وصبر نشر (سلسلة أعلام المسلمين) التي تحيي في واقع الأمة المعاصر مجد الأسلاف وتستثير الهمم للنسج على منوالهم.

ولقد سعدت كثيراً عندما عرض عليّ أخي المفضال الأستاذ محمد علي دولة أن أكتب ضمن هذه السلسلة عن القاضي عياض؛ فلم أتردَّد في الاستجابة لطلبه؛ لقناعتي بأهمية الموضوع، ولما لمسته من النفع بهذه السلسلة المباركة.

٢ ـ الصلة بتراث القاضي عياض:

أما صلتي بالقاضي عياض وتراثه فتعود أوّلاً إلى زمن الصبا لشهرة كتابه (الشفا) في بلادنا إلى درجة أنّ بعض من لا علم عنده من

العوام كانوا يذكرونه مقروناً بصحيح البخاري لتغليظ القسم.

ثم اطّلعت على كثير من كتبه أثناء دراستي الجامعية والعليا، إلى أن شرّفني الله تعالى بتحقيق جزء من كتابه (إكمال المعلم بفوائد صحيح مسلم) في إطار إعداد أطروحة العالمية العالية (الدكتوراه)، حيث اطّلعت على جميع ما تمكّنت من الحصول عليه من تراثه مطبوعاً ومخطوطاً.

وكنت كلّما قرأت له شيئاً جديداً تزداد محبّتي له وإعجابي بشخصيته الفذّة، لما لمسته من فصاحة بيانه، وقوة عارضته، وعلو كعبه في شتّى فنون العلم، ودقته، وصبره، وطول نَفَسه، وحرصه على التحقيق واستيفاء كل مبحث حقه، واستيعابه لمسائل كل علم كأنه إمام فيه وحده، ومنهجيته المتميزة في مقدمات كتبه، وحلاوة عبارته، وشدة محبته للنبي ﷺ وصحابته الكرام، وسلف هذه الأمة الأخيار، وغيرته على عقيدة أهل السنّة والجماعة، واتّباعه للدليل وعدم تعصبه لمذهبه المالكي، بالإضافة إلى مواقفه السياسية والاجتماعية المتميزة.

وازدان ذلك بأدب جمّ وورع وتقوى وفضل وفير، فيدرك القارئ له وعنه بحق أنه أمام عالم رباني عامل، فلا عجب أن جعل الله له القبول في الأرض، حيث لا تكاد تجد كتاباً في علوم الشريعة معتبراً إلّا وله فيه ذكر مع الإطراء وحسن الثناء، رحمه الله رحمة واسعة وأجزل له المثوبة.

٣ ـ خطة البحث:

لقد بحثت ترجمة القاضي عياض من خلال مقدمة وتمهيد وبابين وخاتمة، وفق التفصيل المذكور في فهرس المحتويات، وملخص ذلك أن التمهيد قد اشتمل على بيان مختصر لوضعية بلاد المغرب في عصر القاضي عياض، من الناحيتين السياسية والعلمية؛ لصلة هذين المجالين بحياة عياض تأثّراً وتأثيراً، ولندرك الإسهام الإيجابي لهذا العلَم في واقع عصره.

وتناولت في الباب الأول سيرة القاضي عياض في مرحلة النشأة والطلب، مركّزاً على التعريف بشخصيته من حيث الاسم والنسب والأسرة وحياة الطفولة، والموطن، والعقيدة، والمذهب، ثم بيان متعلقات تكوينه العلمي والتربوي، من حيث: طلبه للعلم، ورحلته، وشيوخه، وموارده العلمية.

واشتمل الباب الثاني على دراسة حياة القاضي عياض في مرحلة الأستاذية والعطاء، حيث فصّلت القول في عطاءاته العلمية والعملية، من حيث التدريس والقضاء والشورى والإفتاء والخطابة والتأليف، ودوره في الإصلاح السياسي والاجتماعي، ثم بيّنت العلوم التي برع بها، والمؤلّفات التي أضافها للمكتبة الإسلامية، ثم ذكرت أشهر

تلاميذه، والخلال الحميدة التي اتّصف بها.

ثم انتهيت إلى بيان محنته ووفاته، وثناء أهل العِلْم عليه.

وختمت الكتاب بأهم نتائج سيرة هذه الشخصية المتميّزة.

٤ ـ منهج البحث:

لقد تطلَّبَتْ دراسة ترجمة القاضي عياض وسيرته استخدام جملة من مناهج البحث التي تكاملت وظائفها لتحقيق الغرض من هذه الترجمة وإبرازها بالشكل الذي يفيد المطالع لها.

فقد اعتمدت المنهج التاريخي الوصفي في جمع المادة العلمية واستقصاء الأخبار من مظانّها، واستقراء الأحداث المتعلّقة بمختلف جوانب شخصية القاضي عياض.

كما طبّقت المنهج النقدي لفحص المادة العلمية، والتأكد من صحتها ودقتها وحسن الربط بينها، ودفع التعارض، وإجراء المقارنات، والقيام بالاستدراك والترجيح.

واستخدمت المنهج التحليلي في دراسة الأحداث، وإبراز المواقف والآثار، ودراسة المصنّفات، مع التوجيه الإيجابي الذي يستصحب مقاصد الشريعة، وقيم البيئة الفاضلة في حسن تفسير الأحداث التاريخية، واستخراج العِبَر والدروس والفوائد، وتقريبها

للقارئ بترتيب حسن وأسلوب ميسّر.

وختاماً: أدعو الله تعالى أن يجمع لمُطالع هذا الكتاب بين الفائدة والمتعة، وأسأله سبحانه أن يرزقني الإخلاص والتوفيق وحسن القبول، وأن يدّخر لي ثواب هذا الجهد المتواضع يوم ألقاه، وبالله التوفيق، وله الحمد والفضل والمنّة، وهو الهادي إلى سواء السبيل، وصلّى الله وسلّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً.

الدكتور/ الحسين بن محمّد شواط
الرئيس السابق لقسم الدراسات الإسلامية
رئيس قسم البحث والترجمة
معهد العلوم الإسلامية والعربية في أمريكا
٢٩ رمضان ١٤١٨هـ

التمهيد
بلاد المغرب في عصر القاضي عيّاض

لقد وافق نشأة القاضي عياض وطلبه والشطر الأكبر من حياته زمن الاستقرار والرخاء في بلاد المغرب، مما ساعده على التفرُّغ للطلب ووفرة العطاء بعد ذلك في مجالات التعليم والتأليف والقضاء والشورى.

أما الفترة الأخيرة من حياته فقد كانت زمن بلاء وفتنة واضطرابات، قام فيها القاضي بواجب الجهاد دفاعاً عن معتقده، وأداء للأمانة المناطة بأعناق أهل العلم.

ففي المرحلة الأولى عاصر عياض دولة المرابطين، وكان لها موالياً مطيعاً، لما تحقّق لها من الولاية الشرعية، وما اتّصف به قادتها في عصره من الانقياد للشرع وعناية بالعلم وتقديم لأهله.

وفي المرحلة الثانية عاصر عياض دولة الموحّدين، وكان لها معارضاً مجاهداً، لأسباب شرعية اقتضت ذلك.

أولاً ـ دولة المرابطين (٤٤٥ ـ ٥٤١)[(١)]:

قامت هذه الدولة في الصحراء المغربية، على يد فقيه زاهد مشارك في العلوم هو: عبد الله بن ياسين الجَزُوليّ (ت ٤٥١)، الذي قادها على أسس شرعية، وبدأ بمجاهدة قبائل البربر الذين ارتدّ كثير منهم، وتركوا العمل بأحكام الدين وفروضه، وانحرفوا عن كثير من معتقداته، وسرعان ما توسّع سلطان هذه الدولة في عهد يوسف بن تاشفين (ت ٥٠٠)، فسيطرت على المغربين الأقصى والأوسط، ثم بلاد الأندلس.

إن هذه الدولة قد وحّدت بلاد المغرب والأندلس بعد أن كانت ممزّقة ومقسّمة إلى دويلات وقبائل متناحرة، وتبنّت عقيدة أهل السنّة والجماعة في الأصول، ومذهب الإمام مالك في الفروع، وحكمت بالعدل ـ وخاصة في عهودها الأولى ـ وعظَّمت أحكام الشرع، واحترمت العلماء، وقدّمت الفقهاء، وأصغت إليهم، ونفّذت ما يأمرون

---

(١) راجع تاريخ ابن خلدون: ٦/ ١٨١؛ الكامل، لابن الأثير: ٩/ ٦١٨؛ الاستقصاء: ٢/ ٣؛ أعمال الأعلام، لابن الخطيب: ٣/ ٢٢٥؛ المؤنس، ص ١٠٣؛ البيان المغرب: ٤/ ٧؛ الحلل الموشية، ص ١٧؛ عصر المرابطين والموحّدين: ١/ ٢٥؛ الاستبصار، ص ٢٠٨؛ المغرب الكبير: ٢/ ٢٩٠؛ المعجب، ص ٢٣٥؛ دولة المرابطين، ص ٣١.

به، وشجّعوا على طلب العلم، وجاهدوا أعداء الملّة.

قال ابن العربي: «المرابطون قاموا بدعوة الحق ونصرة الدين، وهم حُماة المسلمين والمجاهدون دونهم، ولو لم يكن للمرابطين فضيلة ولا تقدّم ولا وسيلة إلا وقعة الزلّاقة؛ كان ذلك من أعظم فخرهم وأربح تجرهم»[1]، وفي المعركة المذكورة حقّق المرابطون بقيادة يوسف بن تاشفين نصراً حاسماً ضد النصارى في الأندلس بقيادة الفونس سنة ٤٧٩ هـ.

وقرّب ابن تاشفين العلماء والفقهاء وأكرمهم وعمل بمشوراتهم، قال المراكشي: «فانقطع إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله، حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم، واجتمع له ولابنه من أعيان الكتّاب وفرسان البلاغة ما لم يتّفق اجتماعه في عصر من الأعصار»[2].

وقال عن ابنه علي ـ أمير سبتة ـ: «إنه في عهد علي بن يوسف ابن تاشفين بلغ الفقهاء مبلغاً عظيماً لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس، ولم يزل الفقهاء على ذلك وأمور المسلمين راجعة

---

(١) الحلل الموشية، ص ١١٠.

(٢) المعجب، ص ٢٤٣.

إليهم، وأحكامهم صغيرها وكبيرها موقوفة عليهم»[1].

وكذا الحال بالنسبة لابنه تاشفين ـ أمير غرناطة ـ، حيث نقل ابن الخطيب أنه: «كان سالكاً ناموس الشريعة، مائلاً إلى طريقة المستقيمين وكتب المريدين، قيل: إنه لم يشرب قط مسكراً، ولا استمع إلى قينة، ولا اشتغل بلذّة مما يلهو به الملوك... أحبّه الناس خواصّهم وعوامّهم، وحسنت سياسته فيهم، وسدّ الثغور، وأذكى على العدو العيون، وآثر الجند، ولم يكن منه إلا الجدّ، ولم ينل عنده الحظوة إلاّ بالعناء والنجدة...

لمّا قدِم غرناطة أقبل على صيام النهار وقيام الليل وتلاوة القرآن وإخفاء الصدقة وإنشاء العدل وإيثار الحق... وأكرم الفقهاء والطلبة، وكان له يوم في كل جمعة يتفرّغ فيه للمناظرة»[2].

لهذه الأسباب وغيرها أيّد القاضي عياض والعلماء دولة المرابطين وولاتها، ونافحوا عنها ضد هجمات الموحّدين.

ومن صور اهتمام حكام المرابطين بالعلم وأهله؛ الرسالة التي كتبها الأمير علي بن يوسف بن تاشفين (ت ٥٣٧) إلى قاضي الجماعة

---

(١) المعجب، ص ١٧١.
(٢) الإحاطة، ص ٤٤٨ ـ ٤٥٠.

بقرطبة في شأن عياض عندما عزم على الرحلة إلى الأندلس، ومما جاء فيها:

«. . . وفلان ـ يعني عياضاً ـ أعزّه الله بتقواه وأعانه على ما نواه، ممّن له في العلم حظّ وافر ووجه سافر، وعنده دواوين أغفال لم تفتح لها على الشيوخ أقفال، وقصد تلك الحضرة ليقيم أوَد متونها، ويُعاني رمد عيـونها، وله إلينـا ماتّـة مرعيـة أوجبت الإشـادة بذكره والاعتناء بأمره، وله عندنا مكانة حفية تقتضي مخاطبتك بخبره، وإنهاضك إلى قضاء وطره، وأنت إن شاء الله تسدّد عمله وتقرّب أمله، وتصل أسباب العون له إن شاء الله»[١].

إنّ هذه الرسـالة واضحة الدلالـة على مدى عنايـة هذه الدولـة بالعلماء، وهي في الوقت نفسه تبيّن سموّ مكانة القاضي رحمه الله ووجاهته وعِظَم منزلته لدى المرابطين.

ونظراً لعناية هذه الدولة بالعلم وتكريمها للعلماء، فإن الحياة العلميـة قـد ازدهرت، وكثُر العلماء، وشـاعت التصانيف، وقـويت الرحلات العلميـة، وتعدّدت مجالـس العلماء، وكثُر طلاّبها، ومن

---

(١) قلائد العقيان، ص ١١١.

مشاهير العلماء الذين عاصروا هذه الدولة على تفاوت بينهم في مدة المعاصرة[1]:

- أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي (ت٤٧٤)، القاضي، الحافظ، الفقيه، المتفنن في العلوم، له حوالي ثلاثين كتاباً، منها: (المنتقى في شرح الموطأ) و(التعديل والتجريح) و(إحكام الفصول في أحكام الأصول).

- أبو علي الحسين بن محمد الغساني المعروف بالجياني (ت٤٩٨)، إمام المحدّثين في وقته، مع تقدُّم في الفقه ومشاركة في سائر العلوم، له حوالي عشرة كتب، منها: (تقييد المهمل وتمييز المشكل) و(ضبط رجال الصحيح) و(شيوخ النسائي) و(شيوخ أبي داود).

- أبو علي الحسن بن محمد الصدفي (ت٥١٤) القاضي، كبير المحدّثين وأحد الحفّاظ المتقنين، كان متقدّماً في معرفة روايات الحديث وطرقه وعلله وأسماء رواته، له فهرسة لشيوخه ومرويّاته، ويلاحظ أنه لم يتوسّع في التأليف لتركيزه على التدريس وتكوين الطلاب، ولذلك ألّف ابن الأبار معجماً في أصحابه، وكذا القاضي عياض.

---

(١) راجع شجرة النور الزكية: ١/ ١٢٠ ـ ١٢٤، ١٢٨ ـ ١٤٣.

ـ أبـو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبـي (ت٥٢٠)، القاضي، كبير فقهاء زمانه، المعترف له بصحة النظر وجودة التأليف، له مؤلفات عديدة نفيسة، منها: (البيان والتحصيل) و(تهذيب مشكل الآثار للطحاوي) و(فهرسة شيوخه).

ـ أبـو بكر عبد الله بن طلحـة الأشـبيلي (ت٥١٩)، القاضي، الإمام، الفقيه، الأصولي، المفسّر، له عدة مؤلفات منها: (سيف الإسلام على مذهب مالك الإمام) و(شرح صدر الرسالة).

ـ أبو بكر محمد بن عبد الله الأشبيلي، المعروف بابن العربي (ت٥٤٣)، القاضي، الإمام، الحافظ المتبحّر في سائر العلوم، له عدد وافر من التآليف النافعة، منها: (عارضـة الأحوذي في شـرح سنن الترمذي) و(القبس في شرح موطأ مالك بن أنس) و(أحكام القرآن) و(العواصم من القواصم).

ومما ينبغي التنبيه إليه أن تأييد العلماء لهذه الدولة لم يكن على إطلاقه بحيث تدخله المصانعة والمداهنة، وإنما كان مرتبطاً بمدى التزام حكامها لجانب الحق والعدل، وتنفيذهم لأحكام الشرع، فنجد العلماء يأمرون وينهون، ويتوقفون عن تنفيذ ما فيه مخالفة للشرع، مع بيان الحق فيه، من ذلك ما فعله القاضي عياض أيام قضائه بغرناطة من

التضييق على أصحاب تاشفين بن علي، وصدّهم عن اللهو والباطل، وإيقافهم عن الظلم، فكان ذلك سبباً في انفصاله عن قضائها.

وقد ظهر الظلم في العهود الأخيرة لهذه الدولة، فبدأت مساحة سلطانها تتقلّص لفائدة دولة الموحّدين، إلى أن انقرضت سنة ٥٤١هـ، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ثانياً ـ دولة الموحّدين (٥١٥ ـ ٦٦٨هـ)[1]:

أُسِّست هذه الدولة على يد أبي عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بابن تومرت، والملقّب بعد قيام الدولة بالمهدي، إمام الموحّدين (ت٥٢٤)، وهو بربري من قبيلة مصمودة، المشهورة بالبأس ووفرة العدد، وكان استقرارهم في جبال دَرَن ببلاد المغرب.

طلب ابن تومرت العلم بالأندلس وإفريقية والمشرق، ثم عاد إلى المغرب سالكاً في طريقه تغيير المنكر، حتى اجتمع له أتباع كثيرون بايعوه سنة ٥١٥هـ، بعد أن زعم لهم أنه المهدي المنتظر،

---

(١) انظر الكامل، لابن الأثير: ١٠/٥٦٩؛ المؤنس، ص ١١١؛ نهاية الأرب: ٢٢/١٩١؛ البيان المغرب: ٤/٦٨؛ تاريخ ابن خلدون: ٦/٢٢٥؛ الحلل الموشية، ص ١٠٣؛ المهدي بن تومرت، ص ٦٣؛ المعجب، ص ٢٤٥؛ الموحّدون في الغرب الإسلامي، ص٣٥ ـ ٧٩.

وسمّاهم الموحّدين تعريضاً بمن لم يتّبعه، ونسبة لهم إلى الشرك والكفر.

وقد نظم أتباعه تنظيماً خاصاً، وقسّمهم إلى طبقات، ووزّع عليهم الوظائف، ثم بدأ مرحلة الجهاد ضد القبائل المغربية، حتى استولى عليها، ثم ضد دولة المرابطين، فافتكّ بعض أجزائها، وبعد وفاته تمكّن خلفاؤه من القضاء عليها، وسيطروا على المغربين الأوسط والأقصى، وبلاد الأندلس، وبلاد إفريقية.

إن دولة الموحّدين قد قامت على أسس باطلة شرعاً، وصاحَبَ ظهورها جملة من الممارسات المخالفات لتعاليم الإسلام، مما جعل علماء المغرب والأندلس يعادونها، ويقودون الناس للثورة ضدها، ولكنّها تمكّنت من إرغامهم على الطاعة، وكان القاضي عياض من أبرز الأمثلة على ذلك، كما سيأتي بيانه عند الكلام على مواقفه السياسية[1].

أما أهم الأسس والممارسات الباطلة التي قامت عليها دولة الموحدين، فهي:

١ ـ زعم ابن تومرت أنه المهدي المنتظَر، وادّعاؤه العصمة

---

(١) انظر ما يأتي ص ١٧٢.

والإمامة، وأنه مأمور بنوع من الوحي والإلهام.

٢ ـ ادّعاؤه العلم بالمغيبات.

٣ ـ حصره الإيمان في أتباعه، وأنهم الطائفة المنصورة، وتكفير من عداهم واستحلال دمائهم ونسائهم وأموالهم.

٤ ـ وضع لأتباعه كتاباً في التوحيد خلط فيه بين عقائد الأشاعرة والشيعة والمعتزلة والخوارج، وفرض عليهم حفظه، وكفّر مَن لم يحفظه، فصار عندهم كالقرآن الكريم.

٥ ـ أبطل ابن تومرت متابعة أئمة الفقه، والتعبّد بالأحكام الظنّية، وانتقد الفقهاء، وقتل بعضهم، وأمر بحرق كتب الفقه المذهبي.

٦ ـ أنكر حجية القياس وحجية أخبار الآحاد.

٧ ـ زاد في أذان صلاة الفجر: «أصبح ولله الحمد».

٨ ـ قام ابن تومرت بترويج دعوته مستعملاً كثيراً من الكيد والمكر والخداع والحيلة، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها ما ذكرته المصادر من أنه تواطأ قبل ظهور أمره مع رجل فصيح اللسان على أن يخفي ذلك على الناس، ويظهر العجمة والغفلة حتى حين، فلما تمّت البيعة لابن تومرت، وأراد التخلّص ممن لم يتبعه، قام هذا الرجل

المسمّى بأبي محمد البشير ذات يوم بعد صلاة الصبح، وخطب في الناس خطبة بليغة، بشّرهم فيها بإمامة ابن تومرت، وأنه المهدي المنتظَر، وميّز بزعمه أهل السعادة ـ الذين بايعوا ابن تومرت ـ وبين أهل الشقاوة ـ الذين لم يبايعوا ـ، فبادر ابن تومرت بقتل الصنف الثاني الذين هم في الحقيقة من لم يصدّقوا دعوته.

لهذه المخالفات العقائدية والعملية وقف العلماء في وجه الموحّدين، وتعرّضوا للمحن والابتلاءات، حيث كان ابن تومرت شديد المعاداة للفقهاء متسرّعاً في قتلهم، فقد كان يقول لأتباعه: «اقتلوا المجسمين والبرابرة المفسدين والفقهاء الماكرين»[1].

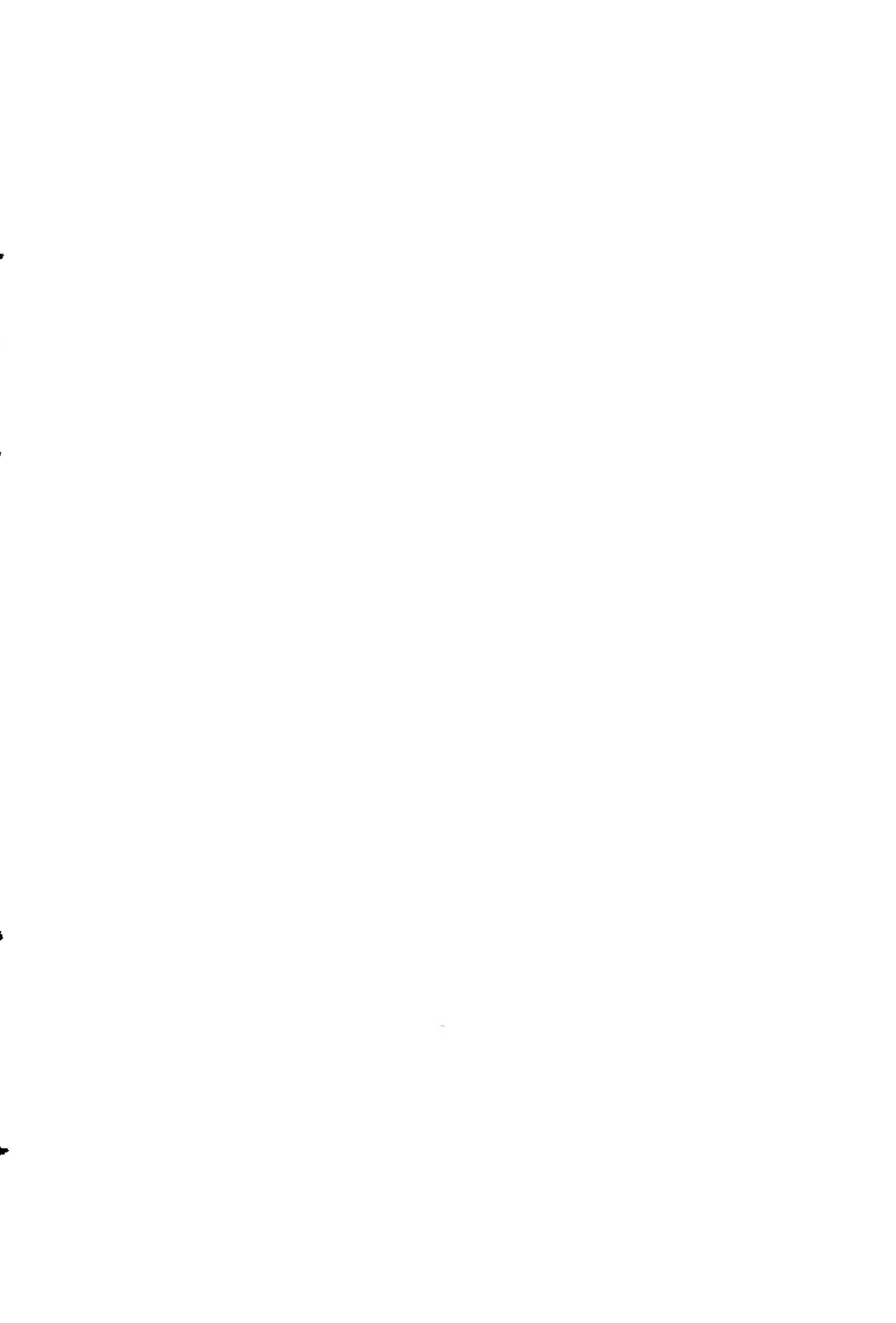
ولذلك فقد شهدت الحياة العلمية في هذا العهد تدهوراً وانحداراً، وكاد علم الفروع الفقهية أن ينقطع لأمر الموحدين بإحراق كتب الفقه المالكي في سائر بلاد المغرب والأندلس، مثل المدونة ونوادر ابن أبي زيد ومختصره، والتهذيب للبرادعي، والواضحة لابن حبيب. قال المراكشي[2]: «لقد شهدت وأنا يومئذٍ بمدينة فاس يؤتى منها بالأحمال، فتوضع ويُطلق فيها النار».

* * *

---

(١) البيان المغرب: ٤/٦٨.

(٢) المعجب، ص ١٧٠.



الباب الأول

القاضي عياض في مرحلة النشأة والطلب

مدخل:

يعدّ القاضي عياض ـ رحمه الله تعالى ـ أحد كبار مشاهير أعلام الأمة من العلماء العاملين النجباء، الذين استفاضت المعرفة بعلمهم وفضلهم، واشتهار ذكرهم وسمو مكانتهم، وقد بلغت شهرته آفاق بلاد المغرب والمشرق، ولا يبعد أن يقال: إنه أشهر علماء المغرب على الإطلاق، لا يكاد يدانيه في ذلك إلا آحاد منهم، حتى قيل فيه[1]: «لولا عياض ما عُرف المغرب»، فأصبح عياض الفرد علماً على المغرب البلد.

وقال العلاّمة الحجوي[2]: «ومن الناس من يعتبره رأس علماء

---

(١) دورة القاضي عياض: ٢/ ١٣٣.

(٢) الفكر السامي: ٣/ ٢٢٤.

المغرب في الإسلام، صَدَّق علمُه شهرتَه داخل المغرب وخارجه».

وقد عُني العلماء المتقدّمون بالترجمة له تبعاً واستقلالاً، فقد عرَّفوا به وأشادوا بعلمه وفضله في ثنايا كتب تراجم الحفّاظ والمفسّرين والفقهاء والأدباء والنحاة والقضاة والشعراء، وفي كتب التاريخ العام وتواريخ البلدان، كما سيأتي في قائمة مصادر ترجمته قريباً.

أما ما أفرد في ترجمة القاضي عياض من كتب المتقدمين، فهما كتابان:

١ ـ (التعريف بالقاضي عياض) لولده القاضي أبي عبد الله محمد، وهو كتيب مختصر، اشتمل على تفاصيل دقيقة من عيون أخبار القاضي عياض، وهو الأساس الذي بنى عليه من جاء بعده من المترجمين لعياض، غير أنه لم يستوعب جوانب حياة القاضي عياض، حيث جاءت سيرة حياته في هذا الكتاب في ثلاث عشرة صفحة، غير أنها دقيقة ومركزة فيما عدا صلة القاضي بدولة الموحدين، فينبغي أن ينتبه مُطالعُ الكتاب إلى أنه قد أُلِّف في ظل تلك الدولة العاتية، التي نقمت على والده مواقفه الحازمة منها، فعذّبته، بل وتسببت في قتله على ما جاء في بعض الروايات، فاضطرّ الابن لمداراتهم وإخفاء بعض الحقائق المتعلّقة بمواقف عياض من انحرافات تلك الدولة.

وهذا الكتاب قليل التداول، ولعلّ سبب عدم شهرته أنه طبع في المغرب بكميات قليلة.

٢ ـ (أزهار الرياض في أخبار عياض) للحافظ أحمد بن محمد المَقَّريّ (ت١٠٤١)، وهو في خمسة مجلدات، استوعب فيها المَقَّرِيُّ جوانب حياة هذا العلَم الفذّ مع البسط والتوسع والتفريع، وجعله محوراً لجملة من العلوم والمعارف المتعلّقة ببلاد المغرب والأندلس.

وهذا الكتاب أقلّ تداولاً من سابقه، ولا يكاد يعرف لدى غير أهل التخصّص، ولعلّ ذلك يعود إلى كبر حجمه، وقلّة العناية بإعادة طبعه.

أما المعاصرون فلم يُعنوا بالترجمة المستقلّة والمستفيضة لهذا العَلَم المتميّز، والجهد الوحيد في هذا الباب: الندوة التي أقامتها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في المملكة المغربية في جمادى الأولى سنة ١٤٠١هـ، ونشرت وقائعها بعنوان: (دورة القاضي عياض)، ضمن سلسلة (ندوة الإمام مالك بن أنس)، وقد اشتملت على عدد كبير من البحوث القيّمة حول مسيرة عياض وعلمه وتأثيره، غير أن سياق بحوث الندوة وترتيبها في الكتاب يختلف عن طبيعة كتب التراجم، مع التداخل والتكرار بين الورقات، وعدم الترابط والتسلسل والتنسيق بينها.

وبهذا يتبيّن أن الجهود السابقة في التعريف بالقاضي عياض

لا تفي بالحاجـة، من حيث الجمع بين الشـمول والاسـتيفاء وسـهولة التناول ويسر التداول، ولا تُغْنِي عن ضرورة تأليف كتاب معاصر يسـتوعب مختلف جوانب شـخصية هذا العَلَم الفذّ، مع التحليل والنقد والاستدراك والتحقيق، ولعلّ هذا الكتاب يسدّ هذه الثغرة في المكتبة الإسلامية بفضل الله ومنّه وكرَمه.



الفَصْل الأول:

التَّعريف بالقَاضي عِيَاض[1]

يشتمل هذا الفصل على أهم الجوانب المتصلة بشخصية

---

(١) انظر مصادر ترجمة القاضي عياض: التعريف بالقاضي عياض، لولده القاضي محمد؛ أزهار الرياض في أخبار عياض؛ الديباج المذهّب، ص ١٦٨؛ الإحاطة في أخبار غرناطة: ٤/ ٢٢٢؛ المرقبة العليا، ص ١٠١؛ النجوم الزاهرة: ٥/ ٢٨٤؛ بغية الملتمس، ص ٤٣٧؛ الصلة: ٢/ ٢٩؛ المعجم في أصحاب الصدفي؛ شجرة النور: ١/ ١٤٠؛ الإعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام: ٩/ ٣١٩؛ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ١/ ٨٣، ١٨٤، ٥٤٤، ٢/ ٣٠، ٧/ ٣٣٣؛ جذوة الاقتباس فيمن حلّ من الأعلام مدينة فاس، ص ٤٩٨؛ فهرس الفهارس: ٢/ ١٨٣؛ شرف الطالب في أسنى المطالب، ص ٦٢؛ الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى: ٢/ ٢٠٠؛ مظاهر النهضة الحديثية: ١/ ٢٥٣؛ أعلام ابن عاشور، ص ٥٦؛ النبوغ المغربي: ١/ ٩٥؛ سبتة ودورها، ص ١٠٧؛ سلوة الأنفاس: ١/ ١٥١؛ قلائد العقيان، ص ٢٣٢؛ تذكرة الحفاظ: ٤/ ١٣٠٤؛ طبقات الحفّاظ، ص ٤٧٠؛ تهذيب الأسماء واللغات: ٢/ ٤٣؛ شذرات الذهب: ٤/ ١٣٨؛ سِيَر أعلام النبلاء: ٢٠/ ٢١٢؛ خريدة القصر وجريدة العصر: ٢/ ٥٠٥؛ العِبَر: ٤/ ١٢٢؛ البداية والنهاية: ١٢/ ٢٢٥؛ كشف الظنون: ١/ ١٢٧، ١٥٨، ٢٤٨، ٣٩٥، ٢/ ١٠٥، ١١٨٦؛ هدية العارفين: ٥/ ٨٠٥؛ الفكر السامي: ٣/ ٢٢٣؛ وفيات الأعيان: ٣/ ٤٨٣؛ إنباه الرواة: ٢/ ٣٦٣؛ التكملة، ص ٦٩٤؛ معجم الوادي آشي، ص ٢١١؛ طبقات ابن قنفذ، ص ٢٨٠؛ مفتاح السعادة: ٢/ ١٤٩؛ تاج العروس: ١/ ٢١٦؛ تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٢٨٣.

القاضي عياض؛ من حيث اسمه، ونسبه، وكنيته، وولادته، وأسرته، وطفولته، وموطنه سبتة، حيث نشأ وتربّى، وتلقّى تكوينه العلمي.

أولاً ـ اسمه ونسبه وكنيته وألقابه[1]:

القاضي عياض هو: أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرون بن موسى بن عياض بن محمد بن عبد الله بن موسى بن عياض اليَحْصُبي، السَّبْتِيّ، المالكي، دفين مرّاكُش.

هكذا ورد نسبه في المصادر المعتمدة نقلاً عن عياض نفسه، إلاَّ أنه قال[2]: «لا أدري هل محمد والد عياض، أم بينهما رجل فهو جدّه».

وجاء عند ابن الأبار والذهبي وابن خلكان[3]: (عمرو) بدل (عمرون)، وهو تحريف.

كما أسقط ابن الأبار وابن خلكان (عبد الله) من نسب عياض، وهو خطأ.

---

(١) التعريف بالقاضي عياض، ص٢؛ المعجم في أصحاب الصدفي، ص٣٠٦؛ أزهار الرياض: ١/ ٢٤؛ الديباج المذهّب، ص١٦٨.

(٢) أزهار الرياض: ١/ ٢٧؛ التعريف بالقاضي عياض، ص ٢.

(٣) المعجم في أصحاب الصدفي، ص٣٠٦؛ سِيَر أعلام النبلاء: ٢٠/ ٢١٣؛ وفيات الأعيان: ٣/ ٤٨٣.

و(اليَحْصِبيُّ) بفتح المثناة، وسكون المهملة، وكسر الصاد وفتحها، وقيل بضمها أيضاً، نسبة إلى قبيلة عربية ترجع إلى حِمْيَر، وتنسَب إلى يحصب بن مالك[1]، فهو عربي أصيل.

ويلتقي القاضي عياض في هذا النسب بالإمام مالك بن أنس، إمام دار الهجرة، فبينهما وشيجة نسب، إضافة إلى أنّ عياضاً من أشهر أعيان المذهب المالكي، وأكثرهم خدمة لفقهه وتصنيفاً في رجاله.

و(السَّبْتيُّ) بفتح السين، وقيل بكسرها، نسبة إلى (سَبْتة)، مدينة القاضي عياض، حيث وُلد ونشأ وقضى أكثر حياته، وسيأتي الكلام عليها في المبحث الخامس من هذا الفصل إن شاء الله.

و(المالكي) نسبة إلى مذهب الإمام مالك بن أنس، وسيأتي في مبحث مذهبه الفقهي بيان إسهاماته في خدمة المذهب المالكي.

أما ألقابه، فأشهرها (القاضي) الذي صار ملازماً لاسمه لا ينفكُّ عنه، وقد حلّته المصادر بجملة أخرى من الألقاب النبيلة، منها: شيخ الإسلام، العلاَّمة، الحافظ، الأوحد، الإمام، المحدِّث، الفقيه،

---

(١) جمهرة أنساب العرب، ص٤٣٥، الإنباه على قبائل الرواة، ص١٣٣؛ اللباب: ٣/ ٤٠٧.

المجتهد، الأصولي، المفسّر، المؤرِّخ، اللغوي، الأديب، الشاعر، المحقّق، المصنّف المجيد، الخطيب الفصيح، العالم، العامل، الزاهد، الفاضل، الورع، الربّاني، المجاهد، علاّمة المغرب، وأحد آحاد الزمان.

ولكل لقب من هذه الألقاب حقيقته التي تنطبق على جانب من جوانب هذه الشخصية المتميّزة، كما سيتبيّن لمطالع هذا الكتاب بإذن الله.

ثانياً ـ ولادة القاضي عياض:

ولد ـ رحمه الله تعالى ـ في مدينة سَبتة ببلاد المغرب، في منتصف شعبان سنة ٤٧٦هـ، كذا وجده ابنه مكتوباً بخطه[١]، وعليه اتفاق المؤرّخين.

ثالثاً ـ أسرة القاضي عياض[٢]:

ينتمي القاضي عياض إلى عائلة كريمة الشمائل، كثيرة الأمجاد

---

(١) التعريف بالقاضي عياض، ص٣.

(٢) التعريف بالقاضي عياض، ص ٢ ـ ٤؛ الإحاطة: ٤/ ٢٢٢؛ المعجم في أصحاب الصدفي، ص ٣٠٦.

والمفاخر، معروفة بالعلم، والفضل، والخير، والإحسان، والصلاح، والوجاهة، واليسار، وقد قدِم أجداده من المشرق، وكان لهم استقرار بمدينة القيروان عاصمة إفريقية، وببلاد الأندلس، ثم انتقلوا إلى مدينة فاس بالمغرب الأقصى، وكان جده الأعلى عمرون من أعيانها، وقد أُخذ أخواه فيمن أُخِذ من أبناء الأعيان رُهُناً من قبل بعض أمراء الأندلس، لضمان عدم ثورة المغاربة عليهم.

فانتقل عمرون إلى مدينة سبتة ليقرب من أخبارهما بقرطبة، فاشترى بها أرضاً بنى في بعضها مسجداً، وفي بعضها دياراً أوقفها على المسجد، وجعل باقي الأرض مقبرة للمسلمين، وكان رجلاً خيّراً صالحاً من أهل القرآن، حجّ إحدى عشرة حجة، وشارك في الجهاد بالأندلس، ثم انقطع للعبادة والعلم في مسجده بسبتة.

إلى هذا السلف الخيّر ينْتمي عياض، وفي كنف هذه الأسرة الفاضلة الوجيهة تربّى، فلا عجب أن نشأ على العلم والعبادة والجهاد، مقبلاً على الخير، مَرْضيّ الخلال، محمود الأقوال والأفعال.

ولم تذكر المصادر من أسرة القاضي عياض غير ابنه القاضي أبي عبد الله محمد، كما وردت الإشارة إلى أخيه الذي تنازل له عياض

عن تركـة والده حرصاً على العلم واشـتغالاً بطلبـه، وإلى ابن أخيـه أبي عبد الله الزاهد[1].

وقد تسلسل القضاء في أسرة عياض، حيث تولاّه بعده ابنه محمد (ت٥٧٢)، وحفيده عياض بن محمد (ت٦٣٠)، وابن حفيده محمد بن عياض بن محمد (ت٦٥٥) قاضي الجماعة بمدينة غرناطة[2].

وقد وصفت المصادر جميعهم بالعلم والاستقامة وسيرة العدل والصلابة في الحق.

رابعاً ـ طفولة القاضي عياض[3]:

لم يعرف عياض في طفولته لهو الصغار، فقد فتح عينيه على حياةٍ جادّة، في أسـرةٍ صاحبـةِ رسـالة، ومدينـةٍ تعجّ بالعلمـاء والعبّاد والمجاهدين، فوجد في بيئته مقوّمات التربية الإسلامية المنضبطة

---

(١) التعريف بالقاضي عياض، ص ١٠٦، ١١٣.
(٢) انظر التكملة: ٢/ ٦٧٧؛ صلة الصلة، ص ١٦٥؛ أزهار الرياض: ١/ ٢٤؛ الذيل والتكملة: ٨/ ١٢١.
(٣) التعريف بالقاضي عياض، ص ٤، ٥؛ دورة القاضي عياض: ١/ ٣١٦؛ منهجيـة فقـه الحديث عند القاضي عيـاض، ص ١٢٧ ـ ١٢٩؛ اختصار الأخبار، ص ٣٥.

والتنشئة الصالحة الخيّرة، وهي العلم والعبادة والجهاد واليسار.

ففي مجال العلم كانت مدينة سبتة تزخر بالعلماء في مختلف التخصصات من أهلها والوافدين إليها والعابرين بها، وتمثّل مركزاً علمياً متميّزاً يلتقي فيه حَمَلة العلم من أهل المغرب والمشرق، فهي المعبر الوحيد إلى الأندلس، وكان ذلك في ظلّ دولة تحترم العلم، وتجلّ أهله وتقدّمهم وتكرمهم، وتقف عند أحكامهم ومشوراتهم؛ ولم يكن عياض الطفل المسلم الموجَّه إلى الفضائل ليضيع تلك الفرص النادرة، فأقبل على حفظ كتاب الله تعالى حتى أتمّه في سنّ التمييز، وأكثر من مجالسة العلماء حتى برع في مختلف فنون العلم، كما سيأتي تفصيله.

وفي مجال العبادة نجد عياضاً قد تربّى في مسجد أسرته، ملتزماً بالصلاة فيه، متذكراً آخرته بتكرار النظر والتأمل في المقبرة الملحقة بالمسجد مِنْ وَقْفِ جده الأعلى عمرون، فلا عجب أن كان بعد ذلك «عاملاً مجتهداً، صوّاماً قوّاماً، يقوم ثلث الليل الآخِر لجزء من القرآن، لم يترك ذلك قطّ على أية حالة حتى يغلب عليه، متديّناً متورّعاً، متواضعاً، متشرّعاً»[1].

---

(١) التعريف بالقاضي عياض، ص ٥.

وفي مجال الجهاد نلاحظ أن طفولة عياض قد تزامنت مع زحف جيوش المرابطين لتوطيد سلطانهم وقمع الثائرين عليهم، فتعوّد عياض الطفل على رؤية الجند وسماع قعقعة السلاح، وصار ذلك مألوفاً لديه، مع ارتباط ذلك بهدف عظيم هو إرساء قواعد الدين، وتوطين سلطانه العظيم، فكان أن قاد بلده بعد ذلك في حروبها ضد الموحّدين حمايةً لعقيدة أهل السنّة والجماعة.

وكان لِيَسارِ أسرته أثر في انقطاعه للعلم، وفي أعماله الخيرية وآثاره الإصلاحية، فقد كان كثير الصدقة، مغيثاً للملهوفين، كما قام بتوسعة جامع سبتة، وبنى رباطاً للعبّاد والمجاهدين.

خامساً ـ سَبْتة موطن القاضي عياض[1]:

(سَبْتة) بفتح السين، وقيل بكسرها أيضاً، مدينة ساحلية

---

(١) معجم البلدان: ٣/ ١٨٢؛ أزهار الرياض: ١/ ٢٩؛ مراصد الاطلاع: ٢/ ٦٨٨؛ المسالك والممالك، ص ١٠٢؛ اللباب: ٢/ ٩٨؛ البيان المغرب: ١/ ٤٣، ٤/ ٣٤؛ تاريخ ابن خلدون: ٦/ ٤٣٧؛ نفح الطيب: ٤/ ٣٩١؛ آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٥٣٣؛ الاستقصا: ٢/ ٢٨؛ فتوح إفريقية والأندلس، ص ٧٢؛ اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، ص ٢٧؛ شيوخ العلم وكتب الدرس في سبتة، ص ١٧؛ بُلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة من مدرس وأستاذ وطبيب، ص ٢٢؛ مجلة المناهل: ٢٢/ ٦٥٨، ٧٢٩.

مشهورة، ضاربة القِدَم في التاريخ، تقع شمال غرب المملكة المغربية في مضيق جبل طارق، حيث يلتقي البحر الأبيض المتوسط مع المحيط الأطلسي، وهي أقرب مدن المغرب إلى بلاد الأندلس، ومجاز المتنقلين بين البلدين، وقد قيل إن أول من اختطّها سبت بن نوح، وإليه تُنسب.

وهي مدينة حصينة، تحيط بها سبعة جبال متصلة، كثيرة العمران، خصبة التربة، نافقة التجارة.

وقد سعد أهلها بالإجابة طوعاً إلى الإسلام سنة ٩٢هـ، ومنها دخلت طلائع الفتح الإسلامي إلى بلاد الأندلس، وقد اتّخذها قادة المسلمين في عهود مختلفة قاعدةً لجيوشهم، حتى إنها سمّيت (باب الجهاد).

وزاد اتّساع عمرانها باستقرار الحضارة الإسلامية بها، حتى عُدَّت من كبريات حواضر العالم الإسلامي عمراناً وعلماً، حيث وُجد بها ألف مسجد، وسبعة وأربعون رباطاً، واثنتان وستون خزانة علمية، ومئة وأربعة وسبعون سوقاً، ومئتان وخمسون زقاقاً، وثمانية عشر محرساً، وثلاثمئة وستون فندقاً، وأربعة وأربعون من أماكن الرماية والسباق.

وقد خصّت بالتأليف في القديم والحديث، فمما ألَّف القدماء:

- العيون الستة في أخبار سبتة، للقاضي عياض (ت ٥٤٤).

- اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سنيّ الآثار، لمحمد بن قاسم الأنصاري.

- بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة من مدرس وأستاذ وطبيب، لمؤلف مجهول.

- الكوكب الوقّاد فيمن حلّ بسبتة من العلماء والصلحاء والعبّاد، لمحمد بن أبي بكر الحضرمي (ت٧٨٧).

ومن الكتب المعاصرة:

- الحركة العلمية في سبتة خلال القرن السابع، لإسماعيل الخطيب.

- سبتة ودورها في إثراء الفكر الإسلامي، كتاب المهرجان الثقافي الثالث، لجمعية الثقافة الإسلامية بتطوان.

- شيوخ العلم وكتب الدرس في سبتة، د. حسن الوراكلي.

- مجلة المناهل المغربية، العدد الثاني والعشرون.

وكثر الثناء على سبتة نظماً ونثراً، من ذلك قول لسان الدين بن الخطيب في كتابه الإحاطة: «مدينة سبتة عروس المجلى، وثنية الصباح الأجلى، تبرجت تبرج العقيلة، ونظرت وجهها من البحر في المرآة الصقيلة، واختصَّ ميزان أهلها بالحسنات الثقيلة، وهي خزانة كتب العلوم، والآثار المنبتة عن أصالة الحلوم».

ومما قيل فيها شعراً:

حييتِ يا مختطّ سبط بن نوح   بكل مزن يغتدي أو يروح
مغنى أبي الفضل عياض الذي   أضحت برباه رياض تفوح

وقال مالك بن المرحل:

سلام على سبتة المغرب   أخيَّة مكة أو يثرب[1]

وقد جمع أهلها بين العلم والعبادة والجهاد واليسار، وخرجت عشرات الجهابذة في كل فن، كما سيأتي بيانه عند ذكر شيوخ القاضي عياض.

وكان موقعها الجغرافي المتميّز قد تسبّب في ازدهارها العلمي والاقتصادي، فهي مجاز أهل الأندلس إلى المغرب وإفريقية

(١) انظر: دورة القاضي عياض: ١/ ٢٦٥.

والمشـرق، وبالعكس، سـواء كانوا علماء أو حجاجاً أو تجّـاراً أو مجاهدين، ومقصد كثير من العلماء والعبّاد للاستيطان بها.

فما من عالم من أهل الأندلـس ارتحل إلى المشرق إلا مرّ بها، وتوقّف فيها مفيداً ومستفيداً، كما أنه يجتاز بها عند عودته من رحلته، فيحدِّث فيها بمروياته والمصنفات التي تحمّلها أثناء رحلته.

وكذلك فإن كثيراً من علماء إفريقية والمغرب وبعض المشارقة قد وفدوا إليها عابرين إلى بلاد الأندلس، فأفادوا واستفادوا، ومنهم من استقرّ بها واستوطنها.

وبهذا كانت (سبتة) ملتقى دائماً لأهل العلم من مختلف حواضر العالم الإسلامي.

في هذه المدينة المتميّزة نشأ عياض وتعلّم وتربّى، ولم يكن الطالب اللبيب الفطن الحريص على طلب العلم ليضيع تلك الفرص دون اغتنام، فنجده يستفيد من الوافدين إلى سـبتة والعابرين بها من الفريقين، مما كان له أبعد الأثر في تكوين شخصيته العلمية وتنوّع مشـاربه، وتعدّد اهتماماتـه، وثـراء حصيلتـه، وقد أغنـاه ذلـك عن الارتحال في شبابه للطلب، لأنه قد وجد بغيته في شيوخ بلده ومن حلَّ بها من كبار العلماء[1].

---

(١) انظر: الإحاطـة: ٤/ ٢٢٢؛ التعريف بالقاضي عياض، ص ٤؛ الغنيـة، =

سادساً ـ نبذة من كتاب (التعريف بالقاضي عياض) لولده محمد[1]:

لقد رأيت من المناسب أن أختم هذا الفصل بإيراد مقتطف مما ذكره القاضي أبو عبد الله محمد في التعريف بوالده أبي الفضل القاضي عياض؛ لجزالة لفظه ودقة عبارته وقوة دلالته على المطلوب:

«نشأ على عفة وصيانة، مَرْضيَّ الخلال، محمود الأقوال والأفعال، موصوفاً بالنبل والحدق، طالباً للعلم حريصاً عليه، مجتهداً فيه، معظَّماً عند الأشياخ من أهل العلم، كثير المجالسة لهم، والاختلاف إلى مجالسهم، إلى أن برع في زمانه، وساد جملة أقرانه، وبلغ من التفنن في فنون العلم ما هو معلوم، فكان من حفّاظ كتاب الله تعالى، والقيام عليه، لا يترك التلاوة له على كل حالة، مع القراءة الحسنة المستعذبة، والصوت الجهير، والحظ الوافر من تفسيره، والقيام على معانيه وإعرابه وشواهده وأحكامه، وجميع أنواع علومه.

وكان من أئمة وقته في الحديث وفقهه وغريبه ومشكله ومختلفه،

= ص ٦٨، ٧٦، ٧٩، ٩٠، ١١٤، ١١٨.

(١) التعريف بالقاضي عياض، ص ٤ ـ ٦.

ومن صحيحه وسقيمه وعلله، وحفظ رجاله ومتونه، وجميع أنواع علومه، أصولياً متكلّماً، وكان لا يرى الكلام في ذلك إلا عند نازلة، فقيهاً، حافظاً لمسائل المختصر[1]، والمدوّنة[2]، قائماً عليها.

حاذقاً بتخريج الحديث من مفهومها، عاقداً للشروط، بصيراً بالفتيا والأحكام والنوازل، نحوياً، رياناً من الأدب، شاعراً مُجيداً، يتصرّف في نظمه أحسن تصرف، ويستعمل في شعره الغرائب من صناعة الشعر، مليح القلم، من أكْتَب أهل زمانه، خطيباً فصيحاً، حسن الإيراد، لا يخطب إلا بما يصنع، خطبته فصيحة ذات رونق، عذبة الألفاظ، سهلة المأخذ، حافظاً للّغة والأغربة، والشعر والمثل وأخبار الناس ومذاهب الأمم، عارفاً بأخبار الملوك وتنقُّل الدول، وأيام العرب وحروبها ومقاتل فرسانها، ذاكراً لأخبار الصالحين وسيرهم، وأخبار الصوفية ومذاهبهم، مشاركاً في جميع العلوم.

حسن المجلس، كثير الحكاية والخبر، ممتع المحضر، عذب الكلام، مليح المنطق، نبيل النادرة، حلو الدعابة، ليّن الجانب، صبوراً حليماً، موطّأ الأكناف، جميل العِشْرة، حسن الأخلاق، بسّاماً، يكره الإطراء والإفراط في التصنُّع منه وله، لا يستسهل

---

(١) أي مختصر ابن أبي زيد القيرواني للمدونة.

(٢) أي مدونة سحنون عن ابن القاسم عن مالك.

التكليف للناس والتحامل عليهم، منصفاً من نفسه، منصفاً لأهل العلم، مُحَبّباً في طلبة العلم، محرّضاً لهم على طلبه، مسهّلاً لهم الطرائق، مبادراً لقضاء الحوائج، صغير النفس، غير متكبّر، جواداً سمحاً، من أكرم أهل زمانه، كثير الصدقة والمواساة.

عاملاً مجتهداً، صوّاماً، يقوم ثلث الليل الأخير لجزء من القرآن، لم يترك ذلك قط على أية حال حتى يغلب عليه، متديّناً متورّعاً، متواضعاً متشرّعاً.

كثير المطالعة، لا يفارق كتبه، كثير البحث على العلم، توفّي وهو طالبٌ له، حسن الضبط، صحيح العقل، قوي الخط دقيقه، من أقدر الناس على تقييد الروايات وجمعها، كثير التواليف المستحسنة البارعة في أنواع العلوم.

هيّناً ليّناً من غير ضعف، صلباً في الحق، لا تأخذه في الله لومة لائم، وكان يأخذ أموره بالملاطفة والسياسة ما أمكنه، ويحلّ الأمور كذلك ما استطاع، وإلاّ تقوَّى، وكان يلاطف الأمراء، فإن امتنعوا من الحق تقوّى عليهم، غير هيوب لهم، مقداماً عليهم في صدّهم عن الباطل ، واستقضاء حوائج الرعية عندهم، محبّباً في قلوب العامة والخاصة، بعيد الصيت، جميل الوجه، طيب الرائحة، نظيف الملبس، باهي المركب».

سابعاً ـ عقيدة القاضي عياض[1]:

إذا ذكر أئمة أهل السنّة والجماعة في تاريخ هذه الأمة المشرق عُدَّ القاضي عياض رحمه الله من مقدّميهم، فهو أحد أعلام هذا الشأن، الذين استفاضت المعرفة باستقامة منهجهم في أصول الدين وفروعه، وقد أقرّ له الموافق والمخالف بالإمامة، وطار ذكره في الآفاق، وسارت بتصانيفه الركبان شرقاً وغرباً، وتشوّف لها الأئمة من أهل البلدان، وصدروا عنها في مختلف العلوم، ومن ذلك ما تعلّق بالعقيدة وأصول الدين.

وقد أثنى المترجمون له على تمسّكه بالسنّة وتعصّبه لها، وأنه كان يكره الخوض في الكلام ـ مع تقدّمه فيه ـ إلا لحاجة تقتضي ذلك، كتجلية شبهة أو دحض حجة مخالف.

قال ابن العماد الحنبلي[2]: «كان (عياض) عديم النظير، حسنة

---

(١) راجع: كتاب (الإيمان) من إكمال المعلم للقاضي عياض؛ المباحث ذات العلاقة في كتابه (الشفا بتعريف حقوق المصطفى)؛ كتابه (الإعلام بحدود قواعد الإسلام). وجميعها مطبوع؛ وراجع (كتاب العقيدة) له، مخطوط بدار الكتب المصرية، قسم المجاميع، رقم ٢٥٠ خاص، ورقم ٤٧٠ عام؛ فن التوحيد.

(٢) شذرات الذهب: ٤/ ١٣٩.

من حسنات الأيام، شديد التعصّب للسنة والتمسّك بها».

وقال ابنه محمد[1]: «وكان أصولياً متكلّماً، وكان لا يرى الكلام في ذلك إلا عند نازلة».

وبمطالعة كتبه، وبخاصة (إكمال المعلم بفوائد صحيح مسلم)، نجد أن عياضاً يستدلّ لمسائل العقيدة بالكتاب والسنّة وكلام أئمة سلف هذه الأمة، ويسير على مناهجهم في الأعم الأغلب من كلامه وتقريراته، ويبتعد ما أمكن عن أساليب الجدل والكلام، كما أنه شديد المحبة للنبي ﷺ وصحابته الكرام رضوان الله عليهم، قويّ الغيرة على السنّة، مُبْلِغاً في المنافحة عنها وخدمتها والذود عن حماها.

وبالتأمل في التراث العقيدي للقاضي عياض وجدت أنه على مذهب أهل السنة والجماعة من حيث الجملة، وأما من حيث التفصيل فهو في أبواب الإيمان وتوحيد الإلـٰهية وتوحيد الربوبية على منهج السلف من الصحابة والتابعين ومَن بعدهم من أهل القرون الثلاثة المفضلة.

وأما في أبواب الصفات فهو متردّد بين منهج السلف ومذهب الأشاعرة، وذلك لتردّده بين الإثبات والتفويض والتأويل.

---

(١) التعريف بالقاضي عياض، ص ٤.

فإن الإثبات بلا تشبيه وبمعنى معلوم، وكيفٍ غير معلوم لنا، يليق بجلال الله تعالى؛ هو نهج السلف.

أما تفويض المعنى والتأويل فهو مذهب الأشاعرة فيما عدا ما أثبتوه من الصفات.

وقد اتَّضح لي ميله إلى مذهب الأشاعرة في الصفات الخبرية كالغضب والضحك والمجيء والنزول، فراراً من التشبيه وتقريراً للتنزيه، ولا يخفى على مَن عنده علم وخبرة بهذا الباب أن التشبيه غير وارد على طريقة السلف، فإنهم يثبتون الصفات على حقيقتها، بمعنى معلوم وكيفية مجهولة لنا، تليق بعظمة الله تعالى.

وهذا الذي سار عليه القاضي عياض رحمه الله في تأويل الصفات الخبرية قريب مما انتهجه الإمام أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي (ت٣٨٨)، والحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت٤٥٨)، والإمام يحيى بن شرف النووي (ت٦٧٦)، والحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢)، تغمّد الله الجميع برحمته.

وسأورد فيما يلي نماذج تطبيقية لما تقدّم تقريره، ومن أراد أن يتوسَّع فيمكنه الرجوع إلى كتابي (منهجية فقه الحديث عند القاضي عياض)[١]:

---

(١) مبحث التعريف بالقاضي عياض، ص ٣٧٧ ـ ٣٩٨.

١ ـ يذهب القاضي رحمه الله إلى أن أول الواجبات على المكلّف: الإقرار بالشهادتين، وهو مذهب السلف، حيث قال رحمه الله عند شرح حديث الأمَة التي أقرّت بالشهادتين فأثبت لها النبي ﷺ الإيمان وأمر بعتقها: «فيه دليل على أن الاكتفاء في ذلك ـ أي الإيمان ـ بصريح الشهادتين وصحة العقيدة، وإن لم يكن عن برهان ونظر واستدلال، إذ لم يسألها النبي ﷺ من أين علمت ذلك»[١].

٢ ـ يذهب القاضي عياض إلى أن الإيمان اعتقاد وقول وعمل، كما هو مذهب السلف، قال رحمه الله: «وحقيقته ـ الإيمان ـ في عرف الشرع: التصديق بالقلب واللسان، فإذا حصل هذا الإيمان المنجي من الخلود في النار ـ أي أصل الإيمان ـ، لكن كماله المُنْجي بالجملة من دخولها رأساً بكمال خصال الإيمان»[٢].

كما يذهب إلى دخول الأعمال في مسمّى الإيمان اللغوي أيضاً، حيث قال: «إن تمام الإيمان بالأعمال وكماله بالطاعات، وإن

---

(١) منهجية فقه الحديث، ص ٣٧٩؛ وانظر: شرح الطحاوية، ص ٤ ـ ١٥؛ مجموع الفتاوى: ١/٧٦، ٢/٢، ٣، ٦، ٧٢.

(٢) منهجية فقه الحديث، ص ٣٨٠؛ وانظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنّة والجماعة: ٤/ ٣٨٠.

التزام الطاعات وضمّ هذه الشعب من جملة التصديق ودلائل عليه، وأنها خلق أهل التصديق، فليست خارجة عن اسم الإيمان الشرعي ولا اللغوي »[1]، وهذا المعنى قرّره ابن تيمية ونافح عنه، وذكر أنه مذهب السلف[2].

٣ ـ يقرّر عياض زيادة الإيمان ونقصانه، وهو ما عليه السلف وجمهور أهل السنة والجماعة، حيث قال: «ومذهب أهل السنة القول بأنه يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية».

٤ ـ يقول القاضي رحمه الله بإثبات رؤية المؤمنين لربهم عزّ وجل يوم القيامة، حيث قال[3]: «مذهب أهل السنة بأجمعهم جواز رؤية الله عقلاً، ووجوبها في الآخرة للمؤمنين سمعاً، نطق بذلك الكتاب العزيز، وأجمع عليه سلف الأمة، ورواه بضعة عشر من الصحابة بألفاظ مختلفة عن النبي ﷺ، خلافاً للمعتزلة والخوارج وبعض المرجئة»[4].

---

(١) منهجية فقه الحديث، ص ٣٨٠؛ وانظر مجموع الفتاوى: ٧/ ١٢١ـ١٤٣.
(٢) منهجية فقه الحديث، ص ٣٨٠؛ وانظر مجموع الفتاوى: ٧/ ١٢١ـ١٤٣.
(٣) منهجية فقه الحديث، ص ٣٨١؛ وانظر: الإيمان لأبي عبيد، ص ٧٢؛ الإيمان، للعدني، ص ٩٤.
(٤) منهجية فقه الحديث، ص ٣٨٤؛ وانظر: مختصر الصواعق المرسلة: =

٥ ـ قرّر القاضي أحكام عصاة الموحّدين بمباحث بديعة على مذهب السلف ومن سار على نهجهم من أهل الحق، من ذلك:

ـ قوله: «إن مذهب أهل السنة بأجمعهم من السلف الصالح، وأهل الحديث والفقهاء والمتكلّمين على مذهبهم من الأشعريين أن أهل الذنوب في مشيئة الله تعالى، وأن كل من مات على الإيمان، ويشهد مخلصاً من قلبه بالشهادتين فإنه يدخل الجنة، فإن كان تائباً أو سليماً من المعاصي والتِّباعات دخل الجنة برحمة ربه تعالى، وحرم على النار بالجملة.

وإن كان من المخلطين بتضييع ما أوجب الله عليه أو فعل ما حرَّم عليه فهو في المشيئة، لا يقطع في أمره بتحريمه على النار، ولا باستحقاقه لأول حاله الجنة، بل يقطع أنه لابد له من دخول الجنة آخراً، ولكن حاله قبلُ في خطر المشيئة وبرزخ الرجاء والخوف، إن شاء ربه عذّبه بذنبه أو غفر له بفضله»[1].

ـ وقوله عند شرح حديث: «لا يزني الزاني حين يزني وهو

= ١/ ٢٨٠ ـ ٢٨٩؛ منهاج السنّة النبويّة: ٢/ ٣١٣ ـ ٣٥٨.

(١) منهجية فقه الحديث، ص ٣٨٥، ٣٨٦؛ وانظر: عقيدة السلف، ص ٧١؛ الاعتقاد، للبيهقي، ص ٨٥.

مؤمن»: «ولا خلاف بين أهل السنة أنَّ هذا الحديث ليس على ظاهره، وأن المعاصي لا تخرج أحداً من سواد أهل الإيمان، على ما قدّمناه، ثم اختلفوا في تأويله أو إمراره على ما جاء بعد تحقيق الأصل المتقدّم، ويفسّره حديث أبي ذر: «مَن قال لا إله إلا الله دخل الجنة، وإن زنا وإن سرق»، ومعلوم أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن، فالحديث الأول يقطع حجة المرجئة القائلين إن المعاصي لا تضر المؤمن، والحديث الآخر يقطع حجة المعتزلة والخوارج وبعض الرافضة القائلين: إن المعاصي تخرج من الإيمان، وتوجب الخلود في النار.

وأهل السنة والهدى جمعوا بين معانيها، وقرّروا الأحاديث على أصولها، واستدلُّوا من حديث أبي ذر على منع التخليد، ومن هذا الحديث على نقص الإيمان بالمعاصي، كما وردت مفسّرة في أحاديث كثيرة، وآي من القرآن منيرة»[1].

٦ ـ وفي أبواب الأسماء والصفات نجد القاضي يقرّر الإثبات والتنزيه ومنع التكييف، والوقوف عند إطلاقات الشارع.

وقد أورد في هذا الباب كلاماً بديعاً، يدل على حرصه على

---

(١) منهجية فقه الحديث، ص ٣٨٦؛ وانظر: الطحاوية وشرحها، ص ٢٩٠ ـ ٣٠٠؛ مجموع الفتاوى: ٨/ ٢٧٠، ١١/ ٦٤٦.

التعبير بما عبَّر به الشارع في أبواب الصفات، واجتهاده في تنزيه الرب تعالى عن مشابهة المخلوقين ومنع تكييف صفاته، ولو التزم القاضي ما ذكره هنا في كافة مذهبه في الصفات لتجنّب ما وقع فيه في بعض المواضع من التأويل وتفويض المعاني.

قال رحمه الله تعالى: «فما ورد من هذه الأحاديث من مشكل: يؤمَن بالله وصفاته ولا يُشبَّه شيء به، ولا يشُبَّه هو بشيء سواه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وما قاله رسول الله ﷺ من ذلك وثبت عنه حق وصدق، فما أدركنا علمه فبفضل الله، وما عَيِيَ علينا من ذلك آمنا به، ووكلنا علمه إليه وإلى رسوله، وحمَّلنا لفظه ما احتمل في اللسان الذي بثه الله به، ليبين للناس ما نُزل إليهم، ولم نقطع على مغيَّبه بعد تنزيهه تعالى عما لا يليق به من ظاهره.

٧ ـ يذهب القاضي رحمه الله إلى القول بالمجاز في بعض أبواب الأسماء والصفات، فقد قال عند شرح حديث: «وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه»:

«كانت العرب تستعمل في كلامها الاستعارة كثيراً، وهو أحد أنواع مجازات كلامها، وأرفع أنواع بديع فصاحتها وإيجازها، وهو

التجوُّز باللفظة، ونقلها عن أصل موضوعها، واستعمالها في غيره مما له شبه استعمال بالموضوع، ونحا الرماني إلى أنها نوع من التشبيه بغير أداة، فالعرب تستعملها في كلامها استعمال غيرها، وتفهم المقصد بها، كما قال تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء: ٢٤]، فمخاطبة النبي ﷺ بـ: «رداء الكبرياء على الوجه»، وشبهه من المشكلات من هذا المعنى.

ومن لم يفهم مقاصد العرب وكلامها ممن غلبت عليه العجمة تاه في هذا المَهْمَه، فمن بليد محض أجرى الأمر على ظاهره، فقال بالتجسيم والتشبيه، وممَّن خضرم في النباهة استهول ظواهرها، ولم تتضح له وجوهها؛ لجهله بكلام العرب ومنازعهم، فإما كذّب بالأصل كالمعطلة، أو كذّب بهذه الآثار واطّرحها وجهّل نقلتها كالمعتزلة»[١].

والقول بالمجاز في هذا الباب لم ينقل عن السلف، فإنهم يثبتون الأسماء والصفات على الحقيقة كما يليق بجلال الله تعالى، وقد أثبت المحققون كابن تيمية وابن القيم وغيرهما أنّ تقسيم الألفاظ إلى حقيقة ومجاز ليس تقسيماً شرعياً ولا لغوياً ولا عقلياً، وإنما هو اصطلاح محض حدث بعد القرون الثلاثة المفضلة[٢].

---

(١) منهجية فقه الحديث، ص ٣٩٠؛ وانظر: الإيمان لابن تيمية، ص ٧٥ـ٧٦.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى: ٧/ ٨٧ ـ ٩٠، ٢٣٥ ـ ٢٥٩، ٢٠/ ٤٠٣ ـ ٤٠٥؛ =

٨ ـ صار القاضي رحمه الله إلى التأويل أيضاً في بعض مواضع هذا الباب، من ذلك قوله: «من المستحيل أن تكون ذات الله نوراً، إذ النور من جملة الأجسام، والله يتعالى عن الاتصاف بذلك»، وقوله عن صفة الغضب: «وهي في المخلوق تغيُّر حاله لإرادة السوء أو فعله بمن غضب عليه، والله جلّ اسمه يتعالى عن التغيير واختلاف الحال»[(١)].

والذين سلكوا هذا المسلك فرّوا من التشبيه والتجسيم، فوقعوا في التعطيل، ولو أثبتوا النصوص على حقيقتها، بمعنىً معلومٍ وكَيْفٍ مجهول يليق بجلال الله تعالى؛ لسلموا.

٩ ـ وفي بعض الأحيان نجد أن القاضي يتردّد بين الإثبات والتأويل دون ترجيح بينهما، من ذلك قوله عن صفة (الوجه): «فإذا جعلنا معنى وجه الله تعالى ذاته ووجوده على ما اختاره الجويني وغيره من أئمتنا كانت إضافة السبحات إليها على معنى إضافة النور إليه في الآية، وفي قوله: «أعوذ بنور وجهك»: إما على المِلْك أو الاختصاص، وتكون هذه السبحات هي تلك الحُجُب التي ذكر من

= مختصر الصواعق المرسلة: ١/ ١٠، ٢١، ٤٨، ٢/ ٢ ـ ٧٦؛ منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز: ١٠/ ٦ (مع أضواء البيان).

(١) منهجية فقه الحديث، ص ٣٩١.

النور أو النار، وجلال الملكوت وعظيم القدرة، لو كشفها لأحرقت كلَّ من رآها وأدركها، وهو معنى قوله إن شاء الله: «ما انتهى إليه بصره من خلقه»، الهاء في (بصره) عائدة على (خلقه)، أي: لأحرقت من خلقه كلّ من انتهى إليه بصره منهم ورأى ذلك.

ويتأول في ذلك ما يتأول في قوله تعالى: ﴿ ۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ [النور ٣٥]، وفي تسميته (نوراً)، ويستقيم المعنى الحقيقي، وينطبق على اللفظ العربي، وعلى تفسير أهل اللغة التي لابد من الرجوع إليهم في معاني هذه الألفاظ.

ومن سلك من مشايخنا في الوجه أنه صفة، وهو قول شيخنا أبي الحسن، كانت إضافة السبحات إليها، والمراد الذات، لا سيما على القول بتقسيم القول في الصفات، وأن منها ما يقال هو نفس الذات.

وإذا جعلنا الوجه بمعنى الجهة حسن أيضاً أن يقال: لأحرقت السبحات والأنوار أو النار التي في الجهة التي ينظر إليها الناظر إذا كشفها الله له وأراه إياها كل من نظر إليها.

وهذه الوجوه كلها بيّنة حسنة ظهرت بعون الله وتوفيقه»[1].

---

(١) منهجية فقه الحديث، ص ٣٩٦.

ثامناً ـ مذهبه الفقهي[1]:

لقد تلقّى المغاربة مذاهب السلف على يد من وفد إليهم من الصحابة والتابعين، وشاهدوا الفتن التي أدى إليها التأويل والبعد عن النصوص، ولذلك فإنه ما إن أدخل علي بن زياد (ت١٨٣) الموطأ إلى إفريقية وفسّر لهم قول مالك، ولم يكونوا يعرفونه؛ حتى أقبلوا عليه والتزموا مذهبه، حيث إنهم وجدوا فيه ضالتهم المنشودة؛ لجمعه بين البساطة والأصالة، واعتماده على الحديث.

وكذا الحال بالنسبة لأهل الأندلس، فقد دخل إليهم موطأ مالك متفقهاً بالسماع في وقت مبكر، وذلك عن طريق زياد بن عبد الرحمن القرطبي، المعروف بشبطون (ت ١٩٣)، فقد أخذ الموطأ وفقهه عن مالك، كما أخذ عنه فتاوى كثيرة معروفة بسماع زياد.

وتعتبر رواية يحيى بن يحيى الليثي القرطبي للموطأ عن مالك أشهر روايات الموطأ على الإطلاق.

وتلقى أهل المغرب الأقصى فقه مذهب مالك عن الأفارقة

---

(١) راجع: الديباج المذهّب، ص ١٦٨؛ شجرة النور: ١/ ١٤٠؛ الفكر السامي، ص ٢٢٣؛ دورة القاضي عياض: ٢/ ٣٥، ٣/ ١٢٧؛ مدرسة الحديث في القيروان: ١/ ٩٣.

والأندلسيين، وبذلك شاع مذهب مالك في بلاد المغرب عامة، وتشبّثوا به وخدموه خدمة جليلة، حتى إنّ كتبهم في المذهب وشروح الموطأ تحتل مقام الصدارة في مراجع الفقه المالكي شرقاً وغرباً.

أما القاضي عياض، فإن بيان مكانته بين علماء المذهب لا تحتاج إلى كبير تقرير، فقد أطبقت مصادر ترجمته على أنه أحد كبار أعيان علماء مذهب مالك في عصره، بل وعلى مدار تاريخ علماء المذهب أيضاً، وقد خدم المذهب خدمة متميزة في مقامات التأصيل والتأليف والمناظرة والتنظير، وتطوير مجالات تطبيق أصول المذهب، وبخاصة فقه العمليات، أي ما جرى به العمل والفتوى والقضاء.

وقد ألّف القاضي عياض جملة من المصنّفات التي تخدم المذهب خدمة مباشرة. وذلك في فقه المذهب، والترجمة لرجاله، وشرح غريب الموطأ وضبط ألفاظه؛ منها:

- كتاب (التنبيهات المستنبطة على الكتب المدوّنة والمختلطة)، وعلى هذا الكتاب معوّل المغاربة في حل مشكلات المدوّنة، وضبط ألفاظها، مع الاهتمام بما فيها من الأحاديث والآثار والرجال، بالإضافة إلى الجوانب الفقهية.

- كتاب (ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب

مالك)، وهو أفضل كتب طبقات المالكية، ترجم فيه للإمام مالك وأتباعـه من أهل المدينة والعراق وبقيـة المشارقة، وأهل إفريقيـة والأندلس والمغرب. وسيأتي ذكر بقيتها عند إيراد مصنّفات القاضي رحمه الله.

وأودّ أن أنبّه في هذا المقام على أمرين يدلّان على تواضع عياض وتقواه وورعه، وثقوب فهمه ووقوفه إلى جانب النص الشرعي، ويفسّران جانباً من القبول العام الذي حظي به القاضي عياض لدى الناس.

الأول: إن القاضي عياض ـ رغم مكانته العالية في المذهب المالكي، ومحبته للإمام مالك، وشدة تفانيه في خدمة مذهبه ـ ليس متعصّباً لهذا المذهب، ولذلك كثيراً ما نجده يوافق المذاهب الأخرى، ويخالف قول مالك وأصحابه إذا كان الدليل خلافه[1].

ونجده يقرّر أن الواجب على المسلم أن يتعبّد الله تعالى بالدليل من الكتاب والسنّة والإجماع، وأن أولى الناس بأن نتّبع طريقهم بعد النبي ﷺ هم صحابتـه الكرام، وفي مقدّمتهم الخلفـاء الراشـدون، وأنّ أهل العلم بعد ذلك سواء في متابعتهم وتقليدهم من قِبَل عوام المسلمين، وخاصة الأئمة الأربعة المتّفق على علمهم وفضلهم.

---

(١) انظر: منهجية فقه الحديث عند القاضي عياض، ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩.

وله في ذلك كلام نفيس، أقتطف منه مايلي[1]: «اعلم وفقنا الله وإياك أنّ حُكمَ المتعبّد بأوامر الله ونواهيه، المتشرّع بشريعة نبيّه ﷺ: طلبُ معرفة ما يُتعبّد به، وما يأتيه، ويذره، ويجب عليه ويحرم، ويُباحُ له ويُرَغَّبُ فيه؛ من كتاب الله تعالى وسنّة نبيه ﷺ، فهما الأصلان اللذان لا تعرف الشريعة إلا من قِبَلهما، ثم إجماع المسلمين مرتَّب عليهما، فلا يصح أن يؤخذ وينعقد إلا عليهما، إمَّا من نص صريح عرفوه ثم تركوا نقله، أو اجتهاد مبني عليهما، على القول بصحة الإجماع من طريق الاجتهاد.

وهذا كلّه لا يتمّ إلا بعد تحقيق العلم بذلك والعرف والدلالات الموصلة إليه من نقل ونظر، وجَمْع وحِفْظ وعِلْم ما صحَّ من السنن واشتهر، ومعرفة كيف تفهم من علم ظواهر الألفاظ، وهو: علم العربية والفقه، وعلم معانيها ومعاني موارد الشرع ومقاصده، ونص الكلام وظاهره وفحواه وسائر مناهجه، وهو المعبّر عنه بعلم أصول الفقه.

ثم الواصل لطريق الاجتهاد قليل، وأقل القليل بعد الصدر الأول والسلف الصالح، وإذا كان هذا فلابد لمن لم يبلغ هذه المنزلة من

---

(١) ترتيب المدارك: ١/ ٧٥ ـ ٨١.

المكلَّفين أن يتلقّى ما يتعبّد به ويكلّف من وظائف شريعته ممن ينقله له ويعرفه به، وثقاً به في نقله وعلمه، وهذا هو التقليد ودرجة عوام الناس بل أكثرهم.

وإذا كان هذا فالواجب تقليد العالم الموثوق به في ذلك، فإذا كثر العلماء فالأعلم، وهذا حظ المقلّد من الاجتهاد لدينه، ولا يترك المقلّد الأعلم ويعدل إلى غيره.

وإن كان مشتغلاً بالعلم فيسأل حينئذٍ عما لا يعلم حتى يعلمه، قال تعالى: ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، وأمر النبيُّ ﷺ بالاقتداء بالخلفاء من بعده وأصحابه، وقد بعث النبي ﷺ أصحابه في الناس ليفقّهوهم في الدين ويعلّموهم ما كُتب عليهم.

وإذا كان هذا الأمر لازماً، فأولى من قلّده العاميُّ الجاهل، والطالب المسترشد، والمتفقّه في دين الله: فقهاءُ أصحاب رسول الله ﷺ الذين أخذوا عنه الأمر، وعلموا أسباب نزول الأوامر والنواهي، وشاهدوا قرائن الأمور، وثاقفوا في أكثرها النبي ﷺ واستفسروا عنها، مع ما كانوا عليه من صفة العلم ومعرفة معاني الكلام، وتنوير القلوب وانشراح الصدور، فكانوا أعلام الأمة بلا مرية، وأولاهم بالتقليد.

لكنهم لم يتكلّموا من النوازل إلا في اليسير مما وقع، ولا تفرّعت عنهم المسائل، ولا من الشرع إلا في قواعد ووقائع، وكان أكثر اشتغالهم بالعمل بما علموا، والذبّ عن حوزة الدين، وتوطين شريعة المسلمين، ثم بينهم في الاختلاف في بعض ما تكلّموا فيه مما يبقي المقلّد في حيرة، ويحوجه إلى نظر وتوقف، وإنما جاء التفريع وبسط الكلام فيما يتوقّع وقوعه بعدهم، فجاء التابعون فنظروا في اختلافهم وبنوا على أصولهم.

ثم جاء من بعدهم من العلماء من أتباع التابعين، والوقائع قد كثرت، والفتاوى قد تشعّبت، فجمعوا أقاويل الجميع، وحفظوا فقههم، وبحثوا عن اختلافهم واتفاقهم، وحذّروا انتشار الأمر وخروج الخلاف عن الضبط، فاجتهدوا في جمع السنن وضبط الأحوال، وسُئلوا فأجابوا، ومهّدوا الأصول، وفرّعوا النوازل، ووضعوا التصانيف ودوّنوها، وقاسوا على ما بلغهم ما يشبهه.

فالمتعيّن على المقلّد أن يرجع في التقليد لهؤلاء؛ لإحكامهم النظر في مذاهب من تقدّمهم، وكفايتهم ذلك لمن جاء بعدهم، لكن تقليد جميعهم لا يتّفق في أكثر النوازل، لاختلافهم في الأصول التي بنوا عليها، ولا يصلح أن يقلّد المقلِّد من شاء منهم على الشهرة، أو على ما وجد عليه أهل قطره، فحظه هنا من الاجتهاد أن ينظر في أعلمهم، ويعرف الأَوْلى بالتقليد من جملتهم، حتى يركن في أعماله إلى فتواه.

ولا يحل له أن يعدو في استفتائه إلى مَن هو لا يرى مذهبه.

وكذلك يلزم هذا طالب العلم في بدايته في درس ما أصَّله الأعلم من هؤلاء وفرَّعه، والاهتداء بنظره، إذ لو ابتدأ الطالب يطلب في كل مسألة الوقوف على الحق منها بطريق الاجتهاد لعسر عليه ذلك، إذ لا يتّفق إلا بعد جمع خلاله ـ كما تقدّم ـ وإذا اجتمعت خلاله كان حينئذٍ من المجتهدين لا من المقلّدين».

ثم قال ما ملخّصه: «وقع إجماع المسلمين في أقطار الأرض على تقليد هذا النمط واتّباعهم ودرس مذاهبهم دون من قبلهم، مع الاعتراف بفضل من قبلهم وسبقه ومزيد علمه.

ثم اختلفت الآراء في تعيين المقلَّد منهم، فغلب مذهب كل منهم على جهة: فمالك بالمدينة، وأبو حنيفة والثوري بالكوفة، والحسن البصري بالبصرة، والأوزاعي بالشام، والليث بن سعد والشافعي بمصر، وأحمد بن حنبل ببغداد، وكان لأبي ثور هناك أتباع أيضاً، ثم نشأ ببغداد أبو جعفر الطبري، وداود الأصبهاني، فألَّفا الكتب واختارا في المذهب على رأي أهل الحديث، وطرح داود منها القياس، وكان لكل واحد منهم أتباع.

فهؤلاء الذين وقع إجماع الناس على تقليدهم، مع الاختلاف في

أعيانهم، واتّفاق العلماء على اتّباعهم، والاقتداء بمذاهبهم، ودرس كتبهم، والتفقّه على مآخذهم، والبناء على قواعدهم، والتفريع على أصولهم، دون غيرهم ممن تقدّمهم؛ للعلل التي ذكرناها.

وصار الناس اليوم في أقطار الأرض على خمسة مذاهب: مالكية، وحنبلية، وشافعية، وحنفية، وداودية وهم المعروفون بالظاهرية».

ولا يتعارض هذا مع ما قرّره بعد ذلك من ترجيح مذهب مالك[1] على غيره بطريق النقل والأثر، وبطريق الاعتبار والنظر، وخاصة إذا استحضرنا المرحلة الحرجة التي كانت تمر بها الأندلس والمغرب آخر حياة عياض، من هجمة الموحّدين وطعنهم على مذهب مالك السائد في تلك الديار، وقتلهم فقهاء المالكية، وإتلافهم كتب المذهب، فرأى عياض مزيداً من التأكيد على أحقيّة مذهب مالك بالاتّباع باعتباره أحد أسباب وحدة المغاربة ضد هجمات الموحّدين الفكرية والعسكرية.

الثاني[2]: إن القاضي عياضاً رغم علوّ كعبه في علوم القرآن والسنة والفقه والأصول، وتقدّمه على علماء المذهب، وشهادة علماء

---

(١) ترتيب المدارك: ١/ ٨٠، ٨٢، ٨٩.

(٢) راجع الغنية، ص ٦٩ ـ ٧٢؛ دورة القاضي عياض: ٢/ ٥٥ ـ ٦١.

عصره له بذلك، فإنه لم يدَّعِ بلوغ مرتبة الاجتهاد، بل إنه أنكر على من قال له: إنا نرى شروط الاجتهاد قد تكاملت فيك.

قال رحمه الله: «إن الاجتهاد في زمننا هذا طارت به للجو عنقاء مغرب، فهو أصعب من لمس الثريا وخرط القتاد، وإن مالكاً بنى مذهبه على أربع قواعد، الأولى: آية محكمة، الثانية: حديث صحيح سالم من معارضة ما هو أقوى منه، الثالثة: الإجماع، الرابعة: عمل أهل المدينة: لأنه كالمتواتر عنده، والمتواتر يفيد العلم ودلالته قطعية».

وقال: «أجمع علماء عصرنا قاطبة بقرطبة وسبتة وفاس ومراكش على أنه لا يجوز لأحد أن يكون إماماً في الدين مجتهداً حتى يكون جامعاً لهذه الخصال، وهي: أن يكون حافظاً للغات العرب واختلافها، ومعاني أشعارها وأصنافها، واختلاف العلماء والفقهاء فيها، ويكون هو في نفسه عالماً تقيّاً، حافظاً للإعراب وأنواعه، وحافظاً لكتاب الله تعالى واختلاف قراءاته، حافظاً لتفسيره ومحكمه ومتشابهه ومنسوخه وناسخه وقصصه وأسباب نزوله، وعالماً بأحاديث الرسول صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، مميّزاً بين صحيحها وسقيمها، ومتّصلها ومنقطعها، ومراسيلها ومسانيدها ومشاهيرها،

وأحاديث الصحابة كلٌّ باسمه، عارفاً بموقوفها ومسندها إلى غير ذلك من مراتب الحديث.

ثم يكون أيضاً ورعاً ديِّناً صائناً لنفسه صدوقاً ثقة، يبني مذهبه على الكتاب والسنّة.

فإذا جمع هذه الخصال يكون إماماً مقلَّداً، ويجتهد في فتاويه، وإلا فلا يجوز اجتهاده ولا تقليده».

فقال له القاضي أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الإدريسي: «هلاَّ تكون مجتهداً، فإنا نراك تكاملت فيك هذه الشروط»، قال الإدريسي: «فنظرني القاضي عياض بوجه لم ينظر به من قبلي ولا أراه ينظر به من بعدي، وقال: هيهات هيهات ما لعياض والاجتهاد...».

* * *

الفصل الثاني:

تكوينه العلمي والتربوي

تهيّأت للقاضي عياض ـ رحمه الله ـ أسباب التحصيل العلمي الجادّ، من حيث الاستعدادات الفطرية ومحضن الأسرة الخيّرة، وخصائص البيئة الصالحة.

فقد كان يمتاز بذكاء وقّاد، وفطنة عالية، وذهن ثاقب، وحافظة قوية، وشخصية جادّة، وحرص على طلب العلم، وتربّى في كنف أسرة فاضلة ثرية، مهتمة بالعلم والتعبّد، موجّهة إلى الفضائل ومعالي الأمور، ونشأ في مدينة تعجّ بالعلماء من مختلف التخصّصات، وتمثّل مركزاً علمياً مرموقاً، يلتقي فيه حَمَلة العلم من أهل المغرب والمشرق، ومعقلاً للعبّاد والمجاهدين، وعاش معظم حياته في ظلّ دولة المرابطين التي تحترم العلم، وتجلّ أهله وتقدّمهم وتكرمهم، وتقف عند أحكامهم ومشوراتهم.

فكانت هذه العوامل مجتمعة أسباباً دفعت عياضاً إلى أن يُقبل

على التحصيل ويهتم بالطلب، ويجتهد وسعه في ذلك، ويحرص كل الحرص على مجالسة العلماء والاستفادة منهم: قارئاً، ومستمعاً، ومتفقّهاً، ومُناظراً، ومُكاشفاً؛ مما كان له أبعد الأثر في نبوغه وقوة عارضته وعلوّ كعبه في العلم، فلا عجب أن يتصدّر بعد ذلك علماء عصره، ويسود أقرانه، ويبلغ في العلم منزلة متميّزة لا تكاد تحصل إلا لآحاد من العلماء[1].

ولم يُبعد ابنه عندما قرّر أنه نشأ «طالباً للعلم، حريصاً عليه، مجتهداً فيه، معظَّماً عند الأشياخ من أهل العلم، كثير المجالسة لهم، والاختلاف إلى مجالسهم، إلى أن برع في زمانه وساد جملة أقرانه، وبلغ من التفنّن في فنون العلم ما هو معلوم»[2].

أولاً ـ طلبه للعلم في (سبتة)[3]:

لقد تمّ القسم الأكبر من التكوين العلمي للقاضي عياض في

---

(١) انظر: قلائد العقيان، ص ١١١؛ دورة القاضي عياض: ١/ ١٥٤، ١٧٧؛ منهجية فقه الحديث عند القاضي عياض، ص ١٣٥؛ أزهار الرياض: ٣/ ٧؛ الإحاطة: ٤/ ٢٢٢.

(٢) التعريف بالقاضي عياض، ص ٤.

(٣) انظر: الغنية، ص ٣٢، ٣٥، ٣٧، ٤١، ٤٤، ٦٨؛ التعريف بالقاضي عياض، ص٤ ـ ١٤؛ أزهار الرياض: ٣/ ٧؛ الإحاطة: ٤/ ٢٢٢؛ قلائد العقيان، ص ١١٥.

مدينة سبتة، حيث ولد ونشأ، ولم يحتج إلى التبكير بالرحلة، لما تميّزت به هذه المدينة من الموقع والمكانة في النفوس، فقد اجتمعت لها ثلاث صفات لم تُعرف لغيرها من المدن المغربية؛ فهي (الرباط)، و(دار العلم)، و(دار الجهاد).

تلقّى عياض العلم في هذه المدينة على يد علمائها ومن يَفِدُ إليها أو يستوطنها من علماء الأندلس والمغرب والمشرق.

وقد بدأ بحفظ كتاب الله تعالى حتى ختمه عدة مرات، وأتقن القراءات السبع برواياتها المشهورة واختلاف القرّاء، والتفسير وعلوم القرآن، تلقّى ذلك عن مجموعة من كبار مقرئي بلده والوافدين إليها، منهم: عبد الله بن إدريس المقرئ (ت ٥١٥)، ومحمد بن عبد الله المَوْروري (ت٥٠٠)، وعبد الله بن محمد النفزي (ت٥٣٨)، ومحمد ابن عبد الله الأموي المفسّر (ت ٥١٧).

وقرأ اللغة العربية؛ قواعدها ومتونها وآدابها على فطاحلة النحاة والأدباء واللغويين، مثل: الأديب أبو بكر محمد بن عبد الله الجزيري (ت٥٠٠)، وأبو علي الحسن بن علي، شيخ النحويين بسبتة (ت ٥٠١)، وخلف بن يوسف، أحد أئمة النحاة والأدباء الأخيار (ت٥٣٢).

ومن حصيلته عنهم في هذا الباب: الفصيح لثعلب، والأمالي لأبي علي القالي، وأدب الكاتب لابن قتيبة، والكامل للمبرد، والجمل للزجاجي، والواضح للزبيدي، والكافي لابن النحاس، والإيضاح للفارسي.

فلا عجب أن كان عياض بعد ذلك من كبار محقّقي اللغة ونقّادها، ولا عجب أن نجد ترجمته مضمنة في كتب النحاة والأدباء.

وأخذ علوم العقيدة والكلام والجدل والمناظرة على جماعة من المتكلّمين والنظّار، منهم: عبد الغالب بن يوسف السالمي (ت ٥١٦)، وعبد الرحمن بن محمد المعافري (ت ٥٠٢)، ومحمد بن عمر بن قطري (ت ٥٠١)، ومحمد بن عيسى التميمي (ت ٥٠٥).

وممّا تلقّاه عنهم في هذا الباب: أنوار الحقائق وأسرار الدقائق للسالمي وأبي الحجاج الضرير، ومقدمة رسالة ابن أبي زيد في العقيدة، والمنهاج في الجدل والمناظرة لأبي الوليد الباجي، كما أخذ عنهم أصول الاعتقاد من الكتاب والسنّة، وحاورهم وناظرهم في ذلك.

وأخذ علوم السنّة رواية ودراية عن جماعة من الحفّاظ المتقدّمين في علم الحديث، منهم: محمد بن عيسى التميمي (ت ٥٠٥)،

ومحمد بن علي الشاطبي (ت بعد ٥٠٠)، وأحمد بن طاهر الأنصاري (ت ٥٢٠)، وإبراهيم بن جعفر اللواتي (ت ٥١٣).

وقد تلقّى عن هؤلاء وغيرهم من المحدّثين بسبتة أصول كتب السنّة وعلومها، من ذلك: الصحيحان، والسنن الأربعة، والموطأ، وعلوم الحديث للحاكم، والطبقات لمسلم، وكتاب الضعفاء والمتروكين للنسائي، والملخص للقابسي، وغريب الحديث لأبي عبيد، وغيرها.

وأخذ الفقه وأصوله عن جماعة من كبار الفقهاء والأصوليين بسبتة، منهم: أبو عبد الله محمد بن داود بن عطية (ت ٥٢٥)، وأبو علي الحسن بن عبد الأعلى الكلاعي (ت ٥٠٥)، وأبو محمد عبد الله بن أحمد الأزدي (ت٥٣٧)، وغيرهم.

وقد تلقّى عنهم مصادر فقه وأصول مذهب مالك وطرق المناظرة فيه.

وزاد عدد شيوخه بسبتة من أهلها والوافدين إليها على الأربعين من كبار العلماء في مختلف فنون العلم.

وعلى يد هؤلاء العلماء الأعلام اكتمل التكوين الأساسي لعياض في علوم الشريعة الغرّاء ومعارفها، فلم يحتج إلى التبكير بالرحلة،

حيث إنه ما من عالم ينتقل من المشرق والمغرب وإفريقية إلى الأندلس، وما من عالم ينتقل من الأندلس إلى إفريقية والمغرب والمشرق؛ إلاَّ ويمرّ بسبتة ضرورة، فيهتبل القاضي عياض تلك الفرصة ويتلقّى عنه.

ويبدو أن الحافظ الذهبي لم يدرك هذه الخاصية لمدينة سبتة، ولم يعرف شيئاً عن طلب القاضي على مشايخها والوافدين إليها، ولذلك فلا يعتدّ بما ذكره أنّ القاضي «لم يعمل العلم في الحداثة، وأول شيء أخذ عن الحافظ أبي علي الغساني إجازة مجرّدة، وكان يمكنه السماع منه، فإنه لحق من حياته اثنين وعشرين عاماً»[1].

والواقع غير ذلك كما تقدّم، فإن عياضاً قد بدأ الطلب منذ نعومة أظفاره، واستغنى بعلماء سبتة ومن يفد إليها عن الرحلة للطلب خارجها.

ثم إن إجازة الغساني لعياض لم تكن إجازة مجرّدة، وإنما قرنها بمرويات كتبها لعياض بخط يده، كما أنّ عياضاً قد سبق أن تلقّاها من تلاميذ الغساني[2].

---

(١) سِيَر أعلام النبلاء: ٢٠/ ٢١٣.

(٢) انظر: الغنية، ص ١٣٩.

ومما يزيد في بيان فضل عياض أنّ بعض العلماء كان يقصد سبتة خصّيصاً للقائه وإفادته والاستفادة منه[1].

ثانياً ـ رحلته إلى الأندلس[2]:

عندما قارب عياض الثلاثين من عمره كان قد برع في جملة علوم الشريعة، وأصبح عَلَماً مشهوراً يشار إليه بالبنان، وبان فضله وعلمه للعامة والخاصة.

ولذلك فإنه لمّا عزم على الرحلة إلى الأندلس لمقابلة بعض أصول سماعاته، والأخذ عمّن لم يلقَ من علمائها، وجد معارضة من أحد كبار شيوخه بأن مَن سيرحل إليه عياض هو أحوج إلى عياض في العلم من احتياج عياض إليه[3].

كما أنّ أمير المرابطين علي بن يوسف بن تاشفين نفسه قد اهتمّ برحلة عياض، واتّخذ بعض التدابير لإنجاحها؛ فقد كتب رسالة بهذا

---

(١) انظر: الغنية، ص ١٧١.

(٢) انظر: التعريف بالقاضي عياض، ص ٦ ـ ١٠؛ الإحاطة: ٤/ ٢٢٢، أزهار الرياض: ٣/ ٨؛ الغنية، ص ٤٨، ٥٩، ٦٢؛ المعجم في أصحاب الصدفي، ص ٣٠٦؛ الصلة: ٢/ ٤٢٩.

(٣) التعريف بالقاضي عياض، ص ١٠٦.

الخصوص إلى قاضي قرطبة أبان فيها فضل عياض، وما وصل إليه من التقدّم في العلوم في تلك المرحلة المبكّرة من حياته، ومما جاء فيها أن عياضاً:

«أعزّه الله بتقواه، وأعانه على ما نواه، ممّن له في العلم حظٌّ وافر ووجهٌ سافر، وعنده دواوين أغفال لم تفتح لها على الشيوخ أقفال، وقصد تلك الحضرة ليقيم أوَد متونها، ويعاني رمد عيونها، وله إلينا ماتَّةٌ مرعية أوجبت الإشادة بذكره والاعتناء بأمره، وله عندنا مكانة حفيّة تقتضي مخاطبتك بخبره، وإنهاضك إلى قضاء وطره، وأنت إن شاء الله تسدّد عمله وتقرّب أمله، وتصل أسباب العون له إن شاء الله»[(١)].

وتحرّك لرحلة عياض وزير الدولة أيضاً، فإنه كتب رسالة أخرى يوصي فيها بعياض ويشيد بفضله، ومما جاء فيها أن عياضاً «. . . رأى أن يقتحم نحوك ظهرَي لجة ومحجّة، ويرحل إلى حضرتك المألوفة مهاجراً، ويعتمدها في طلب العلم تاجراً، وله في الفضل مذاهب يبهرج عندها الذهب، وعنده من النبل ضرائب لا يفارق زندها اللهب، وستُقَرِّبهُ فتستغربه، وتخبره فتكبره إن شاء الله»[(٢)].

---

(١) قلائد العقيان، ص ١١١.
(٢) قلائد العقيان، ص ١١٥.

وقد بدأ عياض رحلته الموفّقة إلى الأندلس في منتصف جمادى الأولى سنة ٥٠٧هـ، فوصل قرطبة في مستهلّ جمادى الآخرة، مستقبَلاً بأعلى مراتب الحفاوة والتكريم، وقد وقف مشايخ الأندلس على سموّ أخلاقه وعلوّ مكانته العلمية، ففرَّغوا له جلّ أوقاتهم، حيث كان يستفيد من كثير منهم في مجالسهم لعامة الطلاب، ثم يخصُّونه بالسماع في بيوتهم، ليدرك غرضه من رحلته في أقل وقت ممكن.

من ذلك قوله في ترجمة ابن الحاج[١]: «قرأت عليه في داره بقرطبة جميع كتاب غريب الحديث لأبي محمد بن قتيبة، وعارضت كتابي بكتابه...».

وقوله في ترجمة أبي عبد الله النغزي[٢]: «قرأت عليه في منزله بقرطبة الكتاب الكامل لأبي العباس المبرد.. وكتاب إصلاح المنطق ليعقوب.. وكتاب الهداية في القراءات السبع.. وكتاب التفصيل للمهدوي...».

وقد صرَّح علماء الأندلس بإعجابهم بنبل عياض وفضله وعلوّ كعبه في العلم والورع، فهذا شيخه محمد بن علي بن حَمدين (ت٥٠٨)،

---

(١) الغنية، ص ٤٨.
(٢) المرجع السابق، ص ٥٩.

أجلّ رجال الأندلس قدراً وزعيمها في وقته يقول له[1]: «وحقّي يا أبا الفضل، إن كنت تركت بالمغرب مثلك»، وقال شيخه عبد الله بن محمد الخشني (ت٥٢٦)، شيخ فقهاء وقته بشرق الأندلس[2]: «ما وصل إلينا من المغرب أنبل من عياض».

ويبدو أن عياضاً الألمعي قد خطط لرحلته مسبقاً، وانتقى شيوخه فيها قبل سفره، ولذلك فإنه كان يقصد بغيته مباشرة، وبأصول جاهزة في كثير من الأحيان، فلم تتجاوز رحلته ثلاثة عشر شهراً، تتلمذ خلالها على ستٍّ وثلاثين من أجلّة علماء الأندلس في أكبر مدنها وحواضرها العلمية، وبخاصة قرطبة حاضرة الأندلس، وأشبيلية ومرسية[3].

ولعلّ قصة سماع عياض من الحافظ أبي علي الحسين بن محمد الصدفي (ت ٥١٤) مما يدلّ على منزلة عياض لدى علماء الأندلس، وحرصهم على الأخذ بأسباب إنجاح رحلته وتحقيق رغبته، فقد خرج عياض من قرطبة إلى مرسية قاصداً أبا علي الصدفي صاحب الحفظ

---

(١) التعريف بالقاضي، ص ١٠٦؛ الغنية، ص ٤٦.
(٢) الإحاطة: ٤/ ٢٢٩.
(٣) انظر: أزهار الرياض: ٣/ ١٠؛ المعجم في أصحاب الصدفي، ص ٣٠٦؛ الصلة: ٢/ ٤٢٩.

والضبط والرواية الواسعة، ووافق وصوله إليها اختفاء الصدفي هروباً من خطة القضاء، فبقي حوالي شهرين ينتظر حضوره، وقد اغتنم تلك الفترة في إفادة أهل مُرسية من ناحية، وفي مقابلة كتبه بأصول الصدفي على يد خاصة من أهله بإذنٍ منه، مما يفيد وجود صِلة ومراسلات بين عياض والصدفي أثناء اختفائه.

وما كان عياض لينتظر كل هذه المدة لولا غلبة ظنه بعودة الصدفي بناءً على تواصله معه، خاصة وأنّ أخذه عنه من أعظم أهداف هذه الرحلة.

وكان الصدفي يحمل همّ عياض وهو مُتَخَفٍّ، فقد قال له بعد ذلك[1]: «لولا أن الله يسّر خروجي بلطفه، لكنت عزمت أن أُشعرك بموضع يقع عليه الاختيار من بلاد الأندلس، لا يؤبه لكوني فيه، ترحل إليه، وأخرج مختفياً إليه بأصولي، فتجد ما ترغب؛ لما كان في نفسي من تعطيل رحلتك وإخفاق رغبتك».

ولما أعفي الصدفي من خطة القضاء وخرج للناس، كان عياض يسمع منه مع عامة الطلبة، ويلازمه في بقية أوقاته، حتى أخذ عنه مروياته ومسموعاتها من كتب متون السنة والرجال والتاريخ وعلوم

---

(١) أزهار الرياض: ٣/ ٨؛ التعريف بالقاضي، ص ٨.

القرآن، مثل الصحيحين، وسنن الترمذي، والناسخ والمنسوخ لهبة الله المفسّر، والاستدراكات على البخاري ومسلم للدارقطني، والجرح والتعديل للباجي، والعلل الكبير للدارقطني، وغيرها.

قال ابنه محمد عن تتلمُذ عياض على الصدفي[1]:

«... فخرج أبو علي من اختفائه، وجلس للتسميع، فسمع عليه كثيراً، ولازمه، وكان له به اختصاص، فحصل له مسموع كثير في مدة يسيرة».

وقد سمع عياض في هذه الرحلة كثيراً، وأخذ على كبار حفّاظ الأندلس وفقهائها، منهم ـ بالإضافة إلى مَن تقدّم ـ:

ـ أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد (ت ٥٢٥)، زعيم فقهاء وقته بالأندلس والمغرب، وقد جالسه القاضي كثيراً وتفقّه عليه، واستفاد منه[2].

ـ أبو بكر محمد بن عبد الله المعافري، المعروف بابن العربي (ت ٥٤٣)، المحدّث الفقيه المفسّر، وقد لقيه القاضي بأشبيلية

---

(١) التعريف بالقاضي، ص ٨.
(٢) الغنية، ص ٥٤.

وقرطبة، وكتب عنه كثيراً، وكان قد أجازه جميع رواياته عند مروره بسبتة قبل ذلك[1].

- أبو القاسم أحمد بن محمد بن مخلد (ت ٥٣٢)، حفيد الحافظ بقي بن مخلد، وقد حدّث عياضاً بمسند جدِّه ومصنّفه وغيرهما من مرويّاته في الحديث والرجال[2].

وفي هذه الرحلة المباركة اتّسعت مرويّات عياض وسماعاته، حتى استوعبت معارف عصره في الحديث والفقه وسائر العلوم.

ومما ينبغي التنبيه إليه أن هذه الرحلة لعياض لم تكن متمحّضة للتلقّي، بل كان فيها عطاء أيضاً، فقد أسمع عياض الحديث خلالها، وقُرئ عليه، واستفاد منه الناس، وتدبّج ببعض شيوخه، مثل: أبي عامر محمد بن أحمد الطّليطلي، وأبي بكر محمد بن خلف[3].

وقد امتاز تلقّي عياض عن شيوخه عامة، السَّبْتِيّين والأندلسيين، باقترانه بالمناظرة، والتفقّه، والمفاوضة، والسؤال، والمذاكرة،

---

(١) الغنية، ص ٦٦.
(٢) المرجع السابق، ص ٩٧.
(٣) انظر: الغنية، ص ٧٤، ٨١؛ أزهار الرياض: ٣/ ١٠.

والضبط لما يتحمل، وطول الملازمة للشيوخ حتى ينال بغيته، وكثيراً ما يكون هو القارئ على الشيوخ[1].

ثالثاً ـ أسباب عدم رحلة عياض إلى المشرق:

لم يتمكن القاضي عياض رحمه الله من الرحلة إلى المشرق، برغم حرصه الشديد على ذلك للحج وزيارة الحرم النبوي وللقاء الشيوخ، ويظهر ذلك جليّاً في بعض أشعاره، كقوله مُظهراً شوقه إلى المدينة المنورة:

يا دار خير المرسلين ومن به	هُدِي الأنام وخُصّ بالآيات
عندي لأجلك لوعة وصبابة	وتشوّق متوقّد الجمرات
وعليّ عهد إن ملأت محاجري	من تلكم الجدران والعَرَصات
لأعفّرنّ مصون شيبي بَيْنَها	من كثرة التقبيل والرشفات
لولا العوادي والأعادي زرتها	أبداً ولو سحباً على الوجنات
لكن سأهدي من حفيل تحيتي	لِقَطين تلك الدار والحجرات
أزكى من المسك المفتق نفحه	تغشاه بالآصال والبكرات
وتخصّه بزواكي الصلوات	ونواصي التسليم والبركات

وإنّ شدّة محبة عياض للنبي ﷺ معلومة، وقد ترجمها في منتهى

---

(١) انظر التعريف بالقاضي، ص ٤؛ الغنية، ص ٢٨، ٤٦، ٥٥، ٦٤، ٩٠.

البلاغة في كتاب الشفا، فما الذي حمله على ترك الحج وزيارة مسجد النبي ﷺ؟.

وما الذي حَمَله على ترك الرحلة للقاء الشيوخ؟ وقد أبدى اشتياقه لذلك في مثل قوله مخاطباً أبا طاهر السلفي:

أبا طاهر خذها على البعد والنوى تحية مرتاح لذكرك شيّق
طوى لك ما بين الضلوع مودة تشفّ صفاءً كالزلال المورق
يناجيك بالذكرى فيشفى عليله ويخلص بالود الصحيح ويلتقي

وبعد التتبع والاستقصاء لم أجد تصريحاً بالأسباب التي منعت عياضاً من الرحلة إلى المشرق، ولكن يمكن تقرير المبرّرات التالية استناداً إلى بعض تلميحات عياض، واستناداً إلى واقع إفريقية والمغرب في ذلك الزمان:

١ ـ إن تقليد عياض لخطة القضاء، وعدم تمكّنه من الاستعفاء، وأخذه الأمر بما يلزم من الجدّية، وتفريغ وقته وجهده وذهنه لذلك كان من أهم أسباب عدم الرحلة إلى المشرق، فقد قال في مقدمة كتابه (إكمال المعلم) ـ عند الحديث عن سبب تأليفه ـ: «فكثرت الرغبات في تعليق لما يمضي من تلك الزيادات والتنبيهات، يضم نشرها ويجمع، والقواطع عن الإجابة تقطع، وشغل المحنة التي طوّقت عنق

الإنسان تمنع، والرجاء لوقت فراغ ذلك يسوّف ويُطمع...»[1].

وقال في مقدمة كتاب (الشفاء): «... فبادرت إلى نكت سافرة عن وجه الغرض، مؤدّياً من ذلك الحق المفترَض، اختلستها على استعجال، لما المرء بصدده من شغل البدن والبال، بما قُلّده من مقاليد المحنة التي ابتُلي بها، فكادت تشغل عن كل فرض ونفل، وتردّ بعد حسن التقويم إلى أسفل سفل»[2].

فالقاضي يعتبر القضاء محنة ابتُلي بها، شغلت منه البدن والبال، وكادت تلهيه عن الفروض، فضلاً عن النوافل، ومن ذلك الحج وطلب العلم بالمشرق.

٢ ـ إن الفتن والاضطرابات والحروب التي أحدثها الموحّدون، قد تسبّبت في عدم ارتحال عياض إلى المشرق، وذلك من وجهين:

أوّلهما: قطع الطريق دون المشرق، لكونهم من جهة المغرب، وهدفهم الأساسي الاستيلاء على دولة المرابطين والإطاحة برموزهم، ويعتبر القاضي عياض واحداً منهم، فلا يمكن أن يجتاز إلى المشرق سالماً.

---

(١) مقدمة إكمال المعلم، ص ٧٨.
(٢) الشفاء: ١/٦، ٧.

والوجه الثاني: أن عياضاً كان يومئذٍ رئيس أهل سبتة بأبوّته وعلمه وفضله وتوليه منصب القضاء، فلا يُستساغ في حقّه أن يترك أهل بلده في أجواء فتنة متوقّعة ويرحل إلى المشرق، ويصدِّق هذا أنه هو الذي تولّى قيادة أهل سبتة في حروبهم ضد الموحّدين.

وهذا السبب هو المشار إليه في قصيدته المتقدّمة قريباً بقوله:

لولا العوادي والأعادي زرتها أبداً ولو سحباً على الوجنات

٣ ـ وقبل فتنة الموحّدين كانت هناك فتنة أخرى عصفت رياحها بإفريقية، ووصلت أطراف المغرب، تلكم هي فتنة أعراب بني هلال وبني سُليم؛ الذين كانوا ممنوعين من اجتياز نهر النيل لما عُرفوا به من الإفساد في الأرض، فلما قطع المعزّ بن باديس دعوة الرافضة العبيديين في إفريقية، لم يكن الحقد الباطني ليسكت على ذلك، بل أرسل إليهم هؤلاء الأعراب، فتسابقوا إلى إفريقية وخرّبوها، وأتوا فيها على الأخضر واليابس وتقاسموا مدنها[1]، فما من قرية «إلا وقد سُحقت وأُكلت، أهلها عراة أمام حيطانها، من رجل وامرأة وطفل، يبكي جميعهم جوعاً وبرداً. . .»[2].

---

(١) راجع مدرسة الحديث في القيروان: ١/ ٨٤ ـ ٨٦.

(٢) البيان المغرب: ١/ ٢٩١.

وبذلك انعدم الأمن في الطرق المؤدّية إلى المشرق، وتعطّلت الحياة الاقتصادية، ولم تعد الحياة العلمية للظهور إلا في سنة الأخماس ٥٥٥هـ[1].

٤ ـ ويمكن أن يُضاف إلى ما تقدّم استغناء عياض عن الرحلة إلى المشرق بما حصّله من العلوم في سبتة والأندلس، ولكن هذا السبب ليس بقوي، لأنه لا يفسّر لنا سبب عدم الحج، وهو أعظم أغراض الرحلة المشرقية.

نعم إن الرحلة إلى المشرق قد فاتت عياضاً للأسباب المتقدّمة وغيرها، لكن العالم النبيه الحريص قد عوّض عن بعض ما فاته من ذلك بواسطة الإجازة، فقد استجاز جماعة من كبار علماء عصره بالمشرق، منهم: الإمام أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي (ت ٥٢٠)، والحافظ أبو الطاهر أحمد بن محمد السلفي (ت ٥٧٦)، والمحدّث أحمد بن خليفة الخزاعي المكّي[2]. وسيأتي ذكر سائرهم عند الكلام على شيوخه بالإجازة.

---

(١) معالم الإيمان: ٣/ ٢٠٣.
(٢) راجع: الغنية، ص ٦٢، ١٠٢، ١١٥.

رابعاً ـ شيوخه:

تتلمذ عالمنا الجهبذ القاضي عياض على عدد وافر من العلماء في تخصصات العلوم الشرعية واللغة العربية جميعها، وقد انتقى منهم مئة ضمّنهم في فهرسة شيوخه التي سمّاها: (الغنية)، ذاكراً تخصّص كل منهم، وجملة مما سمعه أو قرأه عليه، وإجازاتهم ومكاتباتهم ومناولاتهم له.

وسرد ابنه محمد أسماءهم في فصل من كتاب التعريف بالقاضي عياض، محّضه لهذا الغرض[1].

وترجم صاحب أزهار الرياض لكثير من أساتذة عياض في فصل من كتابه سمّاه: (روضة البهار في ذكر جملة من شيوخه الذين فضلهم أظهر من شمس النهار)[2].

ويمكن تقسيم هؤلاء الشيوخ تقسيماً موضوعياً، يُستفاد منه في معرفة مشارب عياض المختلفة، وإفادته من مختلف المدارس العلمية الموجودة في عصره شرقاً وغرباً، وذلك بحسب مواطن هؤلاء الشيوخ وطريقة تلقّي القاضي عنهم.

---

(١) التعريف بالقاضي، ص ١١٩ ـ ١٣٣.

(٢) أزهار الرياض: ٣/ ٥٩.

فأبدأ بذكر شيوخه في سبتة من أهلها والوافدين عليها، وأثنّي بذكر شيوخه في الأندلس، ثم أذكر شيوخه الذين لم يأخذ عنهم إلا بطريق الإجازة، وسأرتّبهم في المواضع الثلاثة على حروف المعجم.

شيوخه في سبتة:

تتلمذ القاضي عياض في مدينة سبتة على اثنين وأربعين من العلماء، استناداً إلى ما جاء في الغنية، منهم من كان من أهلها، ومنهم من وفد إليها واستوطنها، ومنهم من عبر بها، فاغتنم عياض تلك الفرصة للاستفادة منهم، وهؤلاء العلماء هم:

١ ـ إبراهيم بن أحمد البصري، أبو إسحاق القاضي (ت ٥٢٣)[1]: أحد فقهاء سبتة وقضاتها الأجلّاء، ناظر عياض عنده في المدونة، وذاكره في فقه مالك.

٢ ـ إبراهيم بن جعفر اللواتي، أبو إسحاق (ت٥١٣)[2]: محدّث فقيه بصير بالأحكام، صحبه عياض كثيراً، وقرأ عليه الموطأ، وشرح غريب الحديث لأبي عبيد، والملخص للقابسي، وغيرها.

---

(١) الغنية، ص ١٢٣.
(٢) المرجع السابق، ص ١١٩؛ الديباج، ص ٨٩؛ أزهار الرياض: ٣/ ١٥٧.

٣ ـ إبراهيم بن محمد بن الإمام، أبو إسحاق[١]: فقيه، خطيب، صالح، أخذ عنه القاضي فوائد، وروى عنه الحديث المسلسل بأخذ اليد عن البراء بن عازب رضي الله عنه.

٤ ـ أحمد بن طاهر الأنصاري (ت حوالي ٥٢٠)[٢]: محدِّث متقن، واسع الرواية، ضابط لكتبه، رحل في طلب الحديث، فأخذ عن الجياني والمازري وغيرهما، له مصنّفات قيّمة، منها: أطراف الموطأ، ورجال صحيح مسلم، تقلد الشورى في بلده دانية، وامتنع عن القضاء.

٥ ـ أحمد بن عمران الأنصاري، أبو العباس[٣]: محدِّث له رحلة وسماع، قرأ عليه عياض كتاب إصلاح الغلط لابن قتيبة، وأحاديث عالية الإسناد عن الجياني.

٦ ـ أحمد بن قاسم الصنهاجي، أبو العباس[٤]: شيخ من أهل العلم والخير، له رحلة وسماع.

---

(١) الغنية، ١٢٤؛ التكملة: ١/ ١٤٤.
(٢) الغنية، ص ١١٨؛ الذيل والتكملة: ١/ ١٢٩.
(٣) الغنية، ص ١١٦؛ الذيل والتكملة: ١/ ٣٥٢.
(٤) الغنية، ص ١١٦.

٧ـ أحمد بن محمد الأنصاري، أبو العباس (ت حوالي ٥٠٠)[١]: فقيه، أصولي على مذهب أهل العراق، محدّث، له رحلة واسعة إلى المشرق، سمع فيها من كريمة المروزية صحيح البخاري، وأخذ عن أبي إسحاق الشيرازي وأبي الفتح الشاشي.

٨ ـ الحسن بن عبد الأعلى الكلاعي، أبو علي (ت ٥٠٥)[٢]: فقيه، أصولي، متكلم، له معرفة بالهندسة والحساب والفرائض، جالسه القاضي كثيراً وانتفع بعلمه.

٩ ـ الحسن بن علي التاهرتي، أبو علي (ت٥٠١)[٣]: شيخ سبتة في النحو، مع مشاركة في الفقه والحديث، وشهرة بالصلاح، درس عليه عياض كثيراً من كتب الأدب والنحو، منها: الجمل للزجاجي والواضح للزبيدي، والمقتضب للمبرد، وقرأ عليه علوم الحديث للحاكم، ومشكل الحديث لابن فورك.

١٠ ـ الحسين بن محمد الصدفي، أبو علي الحافظ (ت ٥١٤):

---

(١) الغنية، ص ١١٤؛ أزهار الرياض: ٣/ ١٧٥؛ الديباج، ص ٥٥.
(٢) الغنية، ص ١٤٠؛ التكملة: ١/ ٢٦٩.
(٣) الغنية، ص ١٤١؛ المعجم في أصحاب الصدفي، ص ٧٢.

كبير محدّثي بلاد المغرب والأندلس في وقته، دخل سبتة مرتين قبل أن يصل القاضي سن التمييز، ومع ذلك فقد حضر ما قرئ عليه بسبتة، ولكنه لم يحصله حينئذ، ثم رحل إليه وسمع عنه مرويّات كثيرة، وسأكرره في شيوخ القاضي بالأندلس.

١١ ـ خلف بن يوسف بن فرتون (ت ٥٣٢)[١]: أحد أئمة النحاة والأدباء الثقات الأخيار، المتّفق على خيرهم وفضلهم، مع مشاركة في علم الحديث، جالَسَه القاضي كثيراً، وتلقّى عنه مرويّاته.

١٢ ـ سعيد بن أحمد السفاقسي (ت ٥٠١)[٢]: فقيه، متكلّم، من أهل البلاغة والتأليف نظماً ونثراً، مع الخير التام والفضل الكامل وسلوك طريق الزهد والورع والتواضع الجمّ.

١٣ ـ سهل بن علي النيسابوري، أبو نصر التاجر (ت ٥٣١)[٣]: أخذ عن أبي المعالي الجويني والقشيري والطوسي وغيرهم، وأخذ عنه عياض أمالي أبي بكر الشيرازي، وأصول الفصول للواحدي، وأجازه في جميع رواياته.

---

(١) الغنية، ص ١٤٩؛ بغية الوعاة: ١/ ٥٥٧؛ الصلة: ١/ ١٧٧.
(٢) الغنية، ص ٢١٠.
(٣) الغنية، ص ٢٠٩؛ نفح الطيب: ٣/ ٦٧.

١٤ ـ عبد الرحمن بن محمد الكتامي، أبو القاسم (ت ٥١٥)[١]: الفقيه، القاضي، من بيت علم ونُبل، مع مشاركة في النحو، وميل إلى النظر والحجة.

١٥ ـ عبد الرحمن بن محمد المعافري، أبو القاسم (ت ٥٠٢)[٢]: القاضي، الخطيب، الفقيه، الأصولي، المتكلّم، اللغوي، له رحلة واسعة أخذ فيها بإفريقية ومصر والحجاز، أخذ عنه عياض كتاب المنهاج للباجي، والرسالة لابن الطيب، وشرح الجمل لابن فضال، وغيرها.

١٦ ـ عبد الغالب بن يوسف السالمي (ت ٥١٦)[٣]: المتكلّم على مذاهب أهل السنّة من الأشعرية، وكان خيّراً فاضلاً، مستقلاً بعلمه، إماماً فيه، له تصانيف جيدة، منها: أنوار الحقائق وأسرار الدقائق، الذي ألّفه بالاشتراك مع أبي الحجاج الضمري، أخذ عنه القاضي كثيراً، وناوله كثيراً من مجموعاته.

١٧ ـ عبد الله بن أحمد الأزدي، أبو محمد (ت ٥٣٧)[٤]: أحفظ

---

(١) الغنية، ص ١٦٨؛ جذوة الاقتباس، ص ٤٠٨.
(٢) الغنية، ص ١٦٥.
(٣) المرجع السابق، ص ١٦٩؛ الصلة: ٢/٣٨٨.
(٤) الغنية، ص ١٥٤؛ المعجم في أصحاب الصدفي، ص ٢١٤.

أهل وقته لمسائل الفقه المالكي، مع حظ من الأدب، وطلاقة لسان، وحلاوة شمائل، وورع في فتواه، ووقوف عند ما علِمه وحفظه، وكانت له حلقة بجامع سبتة.

١٨ ـ عبد الله بن أحمد التميمي، أبو محمد (ت ٥٠١)[1]: فقيه صالح زاهد، أخذ بالمشرق عن أبي المعالي الجويني وغيره، أخذ عنه عياض كتاب الإخبار عن فوائد الأخبار لابن أبي إسحاق.

١٩ ـ عبد الله بن إدريس المقرئ، أبو محمد (ت ٥١٥)[2]: قرأ عليه عياض القرآن برواية نافع وابن كثير وأبي عمرو وابن عامر بطرقها، وكان صالحاً خيّراً.

٢٠ ـ عبد الله بن محمد الخشني، أبو محمد (ت ٥٢٦)[3]: شيخ فقهاء وقته بشرق الأندلس وأحفظهم للمذهب، مع العلم بالتفسير والحديث، له رحلة واسعة ورواية، أخذ عنه عياض بسبتة ثم رحل إليه في مرسية، وممَّا قرأه عليه: صحيح مسلم والملخّص للقابسي، وناظر عليه في المدونة، وأجازه جميع مروياته.

---

(١) الغنية، ص ١٥٩؛ شجرة النور: ١/ ١٤٣.
(٢) الغنية، ص ١٥٧؛ الصلة: ١/ ٢٩٢.
(٣) الغنية، ص ١٥٣؛ شذرات الذهب: ٤/ ٧٨.

٢١ ـ عبد الله بن محمد اللخمي، أبو محمد (ت ٥١٣)[1]: فقيه أصولي متكلّم، من أهل الفهم والنباهة والنظر والتفنن والمشاركة في ضروب العلم، ناظر عياض عنده في المدونة والموطأ وأصول الفقه والدين، وكان محمودَ السيرة في القضاء، حَسَن العشرة.

٢٢ ـ عبد الله بن محمد النفزي، أبو محمد (ت ٥٣٨)[2]: خطيب مشارك في الفقه والحديث، سمع منه الناس بسبتة وغرناطة وأشبيلية وقرطبة.

٢٣ ـ عبد المجيد بن عبدون الفهري، أبو محمد (ت ٥٢٧)[3]: أحد رؤساء الأدب والشعر القائمين بعلم العربية، الحافظين للخبر ومعاني الشعر واللغات، قصد سبتة من أجل لقاء عياض والاجتماع به، وممّا تلقّاه عنه رائيّته المشهورة في الرثاء، والتي مطلعها:

الدهر يفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصور

كما سمع عليه كتابه في نصرة أبي عبيد، وأجازه جميع مرويّاته.

---

(١) الغنية، ص ١٥٦؛ المعجم في أصحاب الصدفي، ص ٢٠٤.
(٢) الغنية، ص ١٥٦؛ الصلة: ١/٢٩٦.
(٣) الغنية، ص ١٧١؛ قلائد العقيان، ص ١٤٥.

٢٤ ـ علي بن محمد الربعي، أبو الحسن الشافعي التاجر (ت ٥٣١)[١]: فقيه محدّث واسع الرواية، سمع منه القاضي، وأجازه جميع رواياته عن أبي إسحاق الشيرازي والخطيب البغدادي ونصر المقدسي.

٢٥ ـ علي بن محمد الأنصاري، أبو الحسن الأستاذ النحوي (ت ٥٢٠)[٢]: أحد مشايخ المقرئين والنحاة المقدّمين، وكان فاضلاً متواضعاً، محبَّباً إلى الناس، قرأ عليه عياض القرآن برواية ابن عامر بسبتة، ثم لقيه بعد ذلك بغرناطة، وأخذ عنه كتابه في مخارج الحروف.

٢٦ ـ عيسى بن محمد الزهري، أبو الأصبغ (ت حوالي ٥٣٠)[٣]: محدِّث، أصولي، له رحلة وسماع، أخذ صحيح البخاري عن كريمة المروزية، وتتلمذ على الباجي والجياني، وغيرهما، أخذ عنه القاضي كتاب التعديل والتجريح، وكتاب الفصول في أحكام الأصول للباجي، وكتاب الوقف والابتداء للنحاس، وغيرها.

---

(١) الغنية، ص ١٨١؛ الصلة: ٢/ ٤٧٣.
(٢) الغنية، ص ١٧٦؛ بغية الوعاة: ٢/ ١٨٧.
(٣) الغنية، ص ١٨٣؛ الصلة: ٢/ ٤٤٠.

٢٧ ـ غالب بن عطية المحاربي، أبو بكر (ت ٥١٨)[١]: فقيه، محدِّث، أندلسي، له رحلة وسماع، أخذ عنه عياض في سبتة وقرطبة، وكان حسن الضبط والتقييد.

٢٨ ـ محمد بن داود القلعي، أبو عبد الله (ت ٥٢٥)[٢]: فقيه أصولي من أهل القلعة، صحبه عياض كثيراً، ودرس عليه أصول الفقه، وكان فقيهاً ذكيّاً.

٢٩ ـ محمد بن عبد العزيز الأنصاري، أبو عبد الله (ت ٥١٨)[٣]: محدِّث، أصولي، مقرئ من أهل الأندلس، لقيه عياض بها وبسبتة، وجالسه وسمع منه بعض مروياته.

٣٠ ـ محمد بن عبد الله الأموي، أبو عبد الله (ت ٥١٧)[٤]: شيخ سبتة في القضاء والفتيا، فقيه فرضي، مشارك في علم التفسير، ناظر عليه عياض في المدونة، وأخذ عنه كثيراً من مرويّاته، وكان موصوفاً بالصلاح والعفّة والورع والتحرّي.

---

(١) الغنية، ص ١٨٩؛ تذكرة الحفّاظ، ص ١٢٦٩.
(٢) الغنية، ٦٤؛ الصلة: ٢/٦٠٦.
(٣) الغنية، ص ٨٨؛ المعجم في أصحاب الصدفي، ص ١٠٠.
(٤) الغنية، ص ٥٨.

٣١ ـ محمد بن عبد الله الجزيري، أبو بكر (ت ٥٠٠)[١]: أحد فحول شعراء وقته وأدبائهم، أندلسي، وسكن سبتة مدة حيث قُرئ عليه النحو، وقرأ عليه عياض كتاب الكامل للمبرد.

٣٢ ـ محمد بن عبد الله المعافري، أبو بكر ابن العربي (ت ٥٤٣)[٢]: فقيه، أصولي، مفسّر، أخذ عنه عياض بسبتة والأندلس، وسيأتي ذكره في شيوخه الأندلسيين.

٣٣ ـ محمد بن عبد الله الموروري (ت ٥٠٠)[٣]: أحد شيوخ سبتة في القراءات، عالماً بها وباختلاف القرّاء، صرف عمره في إقراء القرآن بسبتة، وهو أحد شيوخ عياض في هذا المجال.

٣٤ ـ محمد بن عقال السرقسطي، أبو عبد الله[٤]: شيخ مقرئ له رواية وسماع ورحلة سمع فيها بمكة وغيرها، جالسه القاضي كثيراً وسمع منه كتاب تنبيه الغافلين للسمرقندي.

٣٥ ـ محمد بن علي الأزدي، أبو عبد الله (ت ٥٠٣)[٥]: أحد

---

(١) الغنية، ص ٧٩؛ التكملة: ١/ ٤٠٨.
(٢) الغنية، ص ٦٦.
(٣) المرجع السابق، ص ٩٠؛ الذيل والتكملة: ٦/ ٣٢٩.
(٤) الغنية، ص ٩٠؛ التكملة: ١/ ٤٢٣.
(٥) الغنية، ص ٧٦؛ جذوة الاقتباس، ص ٢٥٢.

شيوخ طليطلة النبهاء، له فقه ورواية، ولي الخطبة بسبتة، وسمع منه عياض كثيراً.

٣٦ ـ محمد بن علي بن الصيقل الشاطبي (ت بعد ٥٠٠)[١]: من أهل صناعة الحديث، وممن يفهم هذا العلم، له رحلة وسماع، وأفاد منه عياض بعض مروياته.

٣٧ ـ محمد بن عمر الزبيدي، أبو عبد الله النحوي (ت٥٠١)[٢]: أندلسي استوطن سبتة، له رحلة واسعة إلى المشرق، متقدم في علم النحو والعربية، مشارك في علوم الحديث وأصول الفقه والعقيدة، أخذ عنه عياض: الفقيه والمتفقّه للخطيب، وغيره من مسموعاته.

٣٨ ـ محمد بن عيسى التميمي، أبو عبد الله القاضي (ت٥٠١)[٣]: أجلّ شيوخ سبتة ومقدمهم في الحديث والفقه، وكان كثير الكتب والضبط، وقد لازمه القاضي كثيراً للتفقه والمناظرة والسماع، وأخذ عنه معظم كتب الحديث والفقه، من ذلك الموطأ والصحيحان والمدونة.

---

(١) الغنية، ص ٩٢؛ سلوة الأنفاس: ٣/ ٢٦٣.
(٢) الغنية، ص ٧٦؛ بغية الوعاة: ١/ ١٩٩.
(٣) الغنية، ص ٢٧؛ جذوة الاقتباس، ص ٢٥٢.

٣٩ ـ مروان بن عبد الملك اللواتي، أبو عبد الملك (ت ٤٩١)[١]: من أهل طنجة، ولي الخطبة والفتيا بسبتة، له رحلة وسماع، وكان فقيهاً أديباً، مشاركاً في علوم القرآن، أفاد منه الناس كثيراً.

٤٠ ـ موسى بن عبد الرحمن الشاطبي، أبو عبد الله (ت ٥١٧)[٢]: أندلسي، فقيه، محدّث، واسع الرواية، وكان له اختصاص بابن عبد البر، سمع منه عياض كتب ابن عبد البر: التقصي والاستيعاب، وغيرهما، وذلك عند اجتيازه بسبتة.

٤١ ـ يوسف بن عبد العزيز، أبو الحجاج (ت ٥٠٥)[٣]: من أهل طليطلة، وأقام مدة بسبتة فأفاد منه بعض أهلها، وكان من أهل العلم والمعرفة والحفظ، فقيهاً، محدّثاً، متفنّناً في معرفة معاني الأحاديث وفقهها.

٤٢ ـ يوسف بن موسى الكلبي، أبو الحجاج الضرير (ت٤٨٩)[٤]: سكن سبتة مدة، وتردد بالأندلس والمغرب، وكان من المشتغلين بعلم

---

(١) الغنية، ص ١٩٧؛ التكملة: ٢/ ٦٩٨.
(٢) الغنية، ص ١٩٥؛ أزهار الرياض: ٣/ ١٥٩.
(٣) الغنية، ص ٢٢٧؛ الصلة: ٢/ ٦٨١.
(٤) الغنية، ص ٢٢٦؛ أزهار الرياض: ٣/ ١٦٢.

الكلام على مذهب الأشعرية ونظّار أهل السنّة، عارفاً بالنحو والأدب، وله في ذلك تصانيف مشهورة، أخذ عنه عياض أرجوزته الصغرى في العقيدة وغيرها، وأجازه مؤلفاته ومروياته.

شيوخه بالأندلس:

إن رحلة عياض إلى الأندلس لم تتجاوز ثلاثة عشر شهراً[1]، ومع ذلك فقد سمع خلالها من خمسة وثلاثين شيخاً، كان قد انتقى معظمهم مسبقاً، ونسخ كثيراً من أصولهم وسماعاتهم حتى يعرضها عليهم، وهم:

١ ـ أحمد الزنقي، أبو العباس[2]: شيخ المتكلّمين على مذهب أهل الحق في وقته، لقيه القاضي بقرطبة، وأفاد منه.

٢ ـ أحمد بن عبد الرحمن الخزرجي، أبو جعفر (ت ٥١١)[3]: أحد شيوخ القرّاء بجامع قرطبة، المتصدّرين للإقراء، والأعلياء السند، جالسه عياض وأفاد منه.

---

(١) التعريف بالقاضي عياض، ص ٦ ، ٨.
(٢) الغنية، ص ١١٧؛ المعجم في أصحاب الصدفي، ص ١٢ .
(٣) الغنية، ص ١١٧؛ طبقات القرّاء: ١/ ٦١ .

٣ ـ أحمد بن عبد الله بن أحمد بن طريف، أبو الوليد (ت ٥٢٠)[١]:
فقيه مقرئ قديم السماع، لقيه عياض بقرطبة، وأخذ عنه ساطع البرهان لابن مالك، والمفتاح في القراءات لابن عبد الوهاب، وأجازه جميع روايته.

٤ ـ أحمد بن عثمان بن مكحول، أبو العباس (ت ٥١٣)[٢]:
فقيه، محدِّث، طبيب، له رحلة قديمة ورواية واسعة عن المكيّين والمصريين، حدّث عياضاً بكتابي الشهاب والعدد للقضاعي.

٥ ـ أحمد بن محمد الخولاني، أبو عبد الله (ت ٥٠٨)[٣]:
محدِّث واسع الرحلة والرواية، حدَّث عياضاً بالموطأ وفهرسة أبيه، وأجازه جميع مروياته عن أبي ذر الهروي وأبي عمران الفاسي وغيرهما.

٦ ـ أحمد بن محمد اللخمي، أبو جعفر (ت ٥٣٣)[٤]:
محدِّث، متقن لعلم الحديث، حسن الضبط والتقييد، كثير الرواية، له

---

(١) الغنية، ص ١٠٥؛ نفح الطيب: ٣/ ٤٢٩.
(٢) الغنية، ص ١٠١؛ فهرس ابن عطية، ص ٩٨.
(٣) الغنية، ص ١٠٦؛ أزهار الرياض: ٣/ ١٥٧.
(٤) الغنية، ص ١٠٨؛ الصلة: ١/ ٨٠.

اختصاص بأبي علي الجياني، قرأ عليه عياض بعض حديثه بقرطبة، وصحبه كثيراً وذاكره.

٧ ـ أحمد بن محمد بن مخلد، أبو القاسم (ت ٥٣٢)[١]: فقيه، محدِّث، واسع الرواية، من أجلّ بيوت العلم بقرطبة، حدّث عياضاً بمسند جدّه بقي بن مخلد ومصنّفه، وأجازه جميع مروياته.

٨ ـ الحسين بن محمد الصدفي، أبو علي (ت ٥١٤)[٢]: أجلّ محدّثي بلاد المغرب والأندلس في عصره، مع تقدّم في علم الفقه والأصول، له رحلة واسعة إلى المشرق، سمع بإفريقية ومصر ومكة وواسط وبغداد والشام وغيرها، واتّسعت روايته عن الشيوخ، فألّف عياضاً له فهرسة سمّاها المعجم في شيوخ الصدفي، كما أنَّ ابن الأبار ألّف المعجم في أصحاب الصدفي أي تلاميذه.

وقد حضر عليه القاضي عياض بسبتة، ثم رحل إليه فوجده مختفياً فراراً من خطة القضاء، فلما خرج اختصّ به القاضي، وأخذ عنه جميع مروياته، وقابل معه أصوله.

٩ ـ خلف بن إبراهيم بن خلف، أبو القاسم (ت ٥١١)[٣]:

---

(١) الغنية: ص ٩٧؛ شذرات الذهب: / ٩٨.
(٢) الغنية، ص ١٢٩؛ أزهار الرياض: ٣/ ١٥١.
(٣) الغنية، ص ١٤٧؛ أزهار الرياض: ٣/ ١٥٨.

زعيم المقرئين بقرطبة ومتقلّد خطبتها، متقدّم في علم اللغة، ومشارك في الفقه، أخذ عنه عياض طبقات القرّاء لأبي عمرو المقرئ، وشرح الجمل وشرح المقدمة لابن باب شاذ، وغير ذلك.

١٠ ـ سراج بن عبد الملك بن سراج الأموي، أبو الحسين (ت ٥٠٨)[١]: زعيم وقته في علم الأدب والغريب والشروح، حافظ واسع الرواية، رحل إليه عياض بقرطبة فسمع منه كثيراً، وجعل له حظاً من نفسه ودولاً كثيرة، فاتّسعت مروياته عنه، من ذلك: غريب الحديث للخطابي، والمصنف والأمثال لأبي عبيد، وكتاب الغريبين للهروي، وأجازه جميع مروياته.

١١ ـ سفيان بن العاصي الأسدي، أبو بحر (ت ٥٢٠)[٢]: أحد كبار حفّاظ الأندلس، واسع الرواية، كثير الضبط والإتقان، لقيه عياض بقرطبة وأكثر الأخذ عنه، من ذلك أنه سمع عليه جميع صحيح مسلم، وسيرة ابن هشام، وشيوخ البخاري للجرجاني، وبهجة المجالس لابن عبد البر، وغيرها.

١٢ ـ سليمان بن البيغي (ت ٥٢٠)[٣]: من أهل شاطبة، متفنّن

---

(١) الغنية، ص ٢٠١؛ ترتيب المدارك: ٤/ ٨١٥.
(٢) الغنية، ص ٢٠٥؛ الصلة: ١/ ٢٣٠.
(٣) الغنية، ص ٢١٠.

في أنواع العلوم، ناول عياضاً كتاب المنتقى والفهرسة لابن عبد البر، وفهرسة شيوخ الدّلائي، وغير ذلك.

١٣ ـ سليمان بن محمد، ابن الطراوة[1]: أحد أئمة الأدب وشيوخ النحاة، كان قائماً على كتاب سيبويه وغيره، شاعراً مجيداً، مشاركاً في علوم رياضية، جالسه عياض كثيراً وأفاد من مجالسه في الأدب، وأخبره بكثير من اللطائف نثراً ونظماً.

١٤ ـ عبد الرحمن بن سعيد، أبو المطرف (ت ٥٢٢)[2]: أحد المتقدّمين في علم القراءات، مع الثقة والديانة، أقرأ بجامع قرطبة، وتولّى الصلاة فيه، أجاز عياضاً جميع روايته، وحدّثه بتصانيف عبد الحق الأشبيلي والقاضي عبد الوهاب.

١٥ ـ عبد الرحمن بن عبد الله الأموي (ت ٥١٩)[3]: فقيه، محدِّث، له سماع من الجياني والطرابلسي، صحبه عياض كثيراً وسمع منه، وكان خيّراً فاضلاً.

١٦ ـ عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن مخلد، أبو الحسن

---

(١) الغنية، ص ٢٢٣؛ نفح الطيب: ٤/ ٣٥٥.
(٢) الغنية، ص ١٦٨؛ طبقات القرّاء: ١/ ٣٦٩.
(٣) الغنية، ص ١٦٦؛ التكملة، ص ٥٥٧.

(ت ٥١٥)[١]: مسند، واسع الرواية، لقيه عياض بقرطبة، وجالسه كثيراً.

١٧ ـ عبد الرحمن بن محمد بن عتاب الجذامي، أبو محمد (ت ٥٢٠)[٢]: محدِّث حافظ، فقيه، مفسّر، متفنّن في سائر العلوم، متقن ضابط، واسع الرواية، قرأ عليه عياض وسمع منه كثيراً، من ذلك الموطأ وصحيح البخاري، والمدونة، والناسخ والمنسوخ لمكي، وتفسير عبد الرزاق، وغير ذلك.

١٨ ـ عبد الله بن محمد الخشني، أبو محمد (ت ٥٢٦): أخذ عنه عياض بسبتة ومرسية، وقد تقدّم في شيوخه بسبتة[٣].

١٩ ـ علي بن أحمد بن خلف الأنصاري، أبو الحسن (ت ٥٢٨)[٤]: شيخ مقرئي غرناطة ورواتها في علوم القرآن والحديث والآداب والأصول والضبط للحديث، والقراءات واللغات والإتقان وغير ذلك، والمقدّم في محدّثيها المتقنين ونحاتها المبرزين، وأحد الفضلاء الصالحين المتفنِّنين في المعارف، لقيه عياض بقرطبة، وقرأ

(١) الغنية، ص ١٦٩؛ الصلة: ٢/ ٣٤٧.
(٢) الغنية، ص ١٦٢؛ فهرس ابن عطية، ص ٨٠.
(٣) رقم ٢٠.
(٤) الغنية، ص ١٧٤؛ الإحاطة: ٤/ ١٠٠.

عليه كتاب أدب الكاتب لابن قتيبة، واختيار فصيح الكلام لثعلب، وغير ذلك من مروياته.

٢٠ ـ علي بن عبد الرحمن التنوخي، أبو الحسن (ت ٥١٤)[١]: أحد أساتذة النحو ومقدّمي اللغويين، مع مشاركة في علم الحديث، كان متقناً ضابطاً لكتبه، لقيه عياض بأشبيلية، أخذ عنه شرح الأشعار الستة للأعلم، وأجازه جميع مؤلّفاته ومروياته، من ذلك شرح الحماسة وشرح شعر حبيب.

٢١ ـ علي بن محمد الأنصاري، أبو الحسن الأستاذ النحوي (ت ٥٢٠): أخذ عنه عياض بسبتة وغرناطة، وقد تقدّم في شيوخه من أهل سبتة[٢].

٢٢ ـ محمد بن أحمد التجيبي، أبو عبد الله ابن الحاج (ت ٥٢٩)[٣]: أحد الفقهاء الفضلاء، محدّث حسن الضبط، جيّد الكتب، كثير الرواية، له حظ من الأدب، وكان مطبوعاً في الفتيا، مقدّماً في الشورى، صليب الدين، متواضعاً متسمّتاً حليماً. قرأ عليه

---

(١) الغنية، ص ١٧٧؛ بغية الوعاة: ٢/ ١٧٤.
(٢) رقم ٢٥.
(٣) الغنية، ص ٤٧؛ المعجم في أصحاب الصدفي، ص ١١٤.

عياض في داره بقرطبة كتاب غريب الحديث لابن قتيبة، وأجازه جميع رواياته.

٢٣ ـ محمد بن أحمد بن رشد، أبو الوليد (ت ٥٢٠)[١]: زعيم فقهاء وقته بأقطار الأندلس والمغرب ومقدّميهم، المعترَف له بصحّة النظر وجودة التأليف ودقة الفقه، كان بصيراً بالأصول والفروع والتفنّن في العلوم، وكانت الدراية أغلب عليه من الرواية، جالسه عياض كثيراً وساءله واستفاد منه، وسمع عليه كتابه في اختصار المبسوطة، وناوله بعضه، وأجازه سائر كتبه ورواياته، من ذلك: البيان والتحصيل والمقدمات وتهذيب كتاب الطحاوي.

٢٤ ـ محمد بن أحمد الطليطلي، أبو عامر (ت ٥٢٣)[٢]: محدّث، واسع الرواية، كثير السماع والجمع، عارف بالتاريخ والرجال، قرأ عليه عياض كتاب الإخوان لابن الأعرابي، والتحبير لابن المنذر، والأماني المنتجزة للحميدي، وغيرها.

٢٥ ـ محمد بن خلف الأريولي، أبو بكر (ت ٥٢٠)[٣]: فقيه،

---

(١) الغنية، ص ٥٤؛ الإحاطة: ١/ ١١٤.
(٢) الغنية، ص ٧٢؛ أزهار الرياض: ٣/ ١٥٩.
(٣) الغنية، ص ٨١؛ الصلة: ٢/ ٥٧٧.

محدّث، موصوف بالنبل والذكاء، من بيت علم وفضل، أفاد منه عياض، وأخذ عنه كتابيه: التنبيه، والذيل على كتاب الصحابة لابن عبد البر، وهو أحد من تدبَّج بهم عياض من شيوخه، حيث إنه أخذ عن عياض أشياء وفوائد ذكرها في تصانيفه.

٢٦ ـ محمد بن خميس الصوفي، أبو عبد الله[١]: شيخ صالح من أهل الورع والزهد والتقشّف التام، والاستقلال بعلم آفات الأعمال والإخلاص والرقائق. أخذ عنه عياض كتابه المنتقى من كلام أهل التقى، وأجازه كتاب الرعاية لحارث المحاسبي.

٢٧ ـ محمد بن سليمان النفزي، أبو عبد الله (ت ٥٢٥)[٢]: أحد كبار محدّثي قرطبة ورواتها، مع تقدّم في الأدب والنحو، وجمع الكتب، مع الضبط والإتقان، وقّف عمره للتدريس والإسماع، وسمع منه الناس كتب الحديث والغريب، قرأ عليه عياض في منزله بقرطبة كتباً كثيرة، منها: الهداية في القراءات السبع للمهدوي، والزاهر لابن الأنباري، وإصلاح المنطق لابن السكيت، وغيرها.

---

(١) الغنية، ص ٩١؛ التكملة: ١/ ٤٢٤.
(٢) الغنية، ص ٥٩؛ الصلة: ٢/ ٥٧٩.

٢٨ ـ محمد بن عبد الرحمن بن سعيد، أبو عبد الله (ت ٥٠٥)[١]: أحد شيوخ قرطبة في النحو والقراءات والأدب، أقرأ كثيراً بجامع قرطبة، وسمع عليه عياض بعض مروياته.

٢٩ ـ محمد بن عبد الله المعافري، أبو بكر ابن العربي (ت ٥٤٣)[٢]: أحد كبار علماء الأندلس والمغرب في الفقه والأصول والتفسير والقراءات، مع توسّع في الرواية وإتقان وضبط لكتبه، له رحلة واسعة إلى المشرق، كتب عنه عياض بسبتة، وأخذ عنه كثيراً بأشبيلية وقرطبة.

٣٠ ـ محمد بن علي التغلبي، أبو عبد الله (ت ٥٠٨)[٣]: من أجلّ فقهاء الأندلس، مع النظر الصحيح والأدب البارع والتقدّم في النثر والنظم، لقيه عياض بقرطبة، وسمع عليه الموطأ، وقرأ عليه بعض رسائله وردوده على الغزالي، وأجاز له سائر مروياته.

٣١ ـ محمد بن مسعود المكتب (ت بعد ٥١٠)[٤]: محدّث،

---

(١) الغنية، ص ٨٩؛ الصلة: ٢/ ٥٦٨.
(٢) الغنية، ٦٦؛ تذكرة الحفّاظ: ٤/ ١٢٩٤.
(٣) الغنية، ص ٤٦؛ الصلة: ٢/ ٥٧٠.
(٤) الغنية، ص ٨٧؛ التكملة: ١/ ٤١٢.

سمع الدلائي وغيره، سمع عياض بعض حديثه يُقرأ عليه.

٣٢ ـ محمد بن مفرج الصنهاجي، أبو عبد الله (ت ٥٣٠)[1]: كان رجلاً صالحاً خيّراً، مشاركاً في الفقه والحديث والعقيدة، ناول عياضاً كتاب الفِرق للباجي، وأنشده بلفظه بعض شعره.

٣٣ ـ هشام بن أحمد القرطبي، أبو الوليد (ت ٥٠٩)[2]: أحد مقدّمي علماء قرطبة في الحديث والفقه والفُتيا، مع ورع وصلاح وزهد، لقيه عياض بقرطبة، وقرأ عليه في منزله كتاب السنن والمراسيل والتفرّد لأبي داود السجستاني، وغيرها.

٣٤ ـ هشام بن أحمد الهلالي، أبو الوليد (ت ٥٣٠)[3]: كان من أهل العلم بالفقه والحديث وعلم التوحيد والأصول والتكلّم على معاني الحديث، من النقاد المتقنين مع المعرفة بالشروط، لقيه عياض بغرناطة.

٣٥ ـ يونس بن محمد، أبو الحسن ابن الصغار (ت ٥٣٢)[4]:

---

(١) الغنية، ص ٨٦؛ التكملة: ١/ ٤٣٨.
(٢) الغنية، ص ٢١٧؛ أزهار الرياض: ٣/ ١٦١.
(٣) الغنية، ص ٢١٩؛ أزهار الرياض: ٣/ ١٥٤.
(٤) الغنية: ٢٢٤؛ شذرات الذهب: ٤/ ١٠١.

أحد كبار مشايخ قرطبة ولسانهم وصدرهم، وأسنّ من بقي منهم، وشيخ فتواهم ورواياتهم في وقته، قرأ عليه عياض كتاب الأربعين حديثاً للآجري، وحدّثه بكتاب المعجم في شيوخ أبي ذر، وجالسه كثيراً وأفاده فوائد جمّة.

شيوخه بالإجازة:

لقد عني عياض رحمه الله تعالى باستجازة أعلام عصره من العلماء الذين لم يستطع الارتحال إليهم، وبخاصة المشارقة، لتوسيع دائرة مرويّاته، وتكميل تكوينه العلمي، كما أن من هؤلاء مَن بادره بالإجازة دون سابق طلب من عياض لما بلغهم من شهرته، واستفاض لديهم من تصدّره في العلم وإمامته، وقد بلغ شيوخه بالإجازة أربعة وعشرين عالماً من مختلف حواضر العالم الإسلامي، وهم:

١ ـ أحمد بن خليفة الخزاعي[١]: محدِّث من أهل مكة، كتب إلى عياض يجيزه صحيح الإمام البخاري بسماعه من كريمة المروزية.

٢ ـ أحمد بن سعيد اللخمي (ت ٥١٠)[٢]: محدّث أندلسي ثقة، واسع الرواية، كثير العناية بأصوله، أجاز عياضاً جميع رواياته، من

---

(١) الغنية، ص ١١٥.

(٢) الغنية، ص ٩٩؛ الصلة: ٧٦.

ذلك: اختلاف الموطآت للدارقطني، والجامع لنكت الأحكام للسبيعي.

٣ ـ أحمد بن محمد السلفي، أبو طاهر (ت ٥٧٦)[١]: أصله من أصبهان ونزل الإسكندرية، وهو أحد كبار حفّاظ أهل زمانه ومتقدّميهم في علم الحديث رواية ودراية، له رحلة واسعة في طلب الحديث ومصنّفات بديعة، مع الضبط والإتقان والديانة، وقد كتب إلى عياض مجيزاً بجميع رواياته ومؤلّفاته، وطالباً من عياض أن يجيزه، فنظّم له عياض الإجازة في أبيات من الشعر مطلعها:

أبا طاهر خذها على البعد والنوى تحية مرتاح لذكرك شيق
طوى لك ما بين الضلوع مودّة تشفّ صفاء كالزلال المورق

فأجابه الحافظ السلفي بأبيات مطلعها:

أتاني نظم الألمعي الموفق يميس اختيالاً بين غرب ومشرق
فطالعته مستبشراً فوجدته نتيجة فهم في البلاغة مشرق
وأنشدته الأصحاب بعد تأمل فلم يبقَ غير مطرب ومطرق

٤ ـ الحسين بن محمد الغساني الجياني، أبو علي (ت ٥١٩)[٢]:

---

(١) الغنية، ص ١٠٢؛ حسن المحاضرة: ١/ ٣٥٤؛ أزهار الرياض: ٣/ ١٦٧، ٤/ ٢٤٩.

(٢) الغنية، ص ١٣٨؛ تذكرة الحفّاظ، ص ١٢٣٣.

الإمام، المحدِّث، الحافظ، الواسع الرواية، شيخ علماء الأثر بالأندلس في وقته، وإليه كانت الرحلة لطلب علوم الحديث، كتب إلى عياض بإجازة فهرسته الكبرى ومروياته غير مرة، من ذلك البخاري ومسلم والموطأ وسنن أبي داود وغريب الحديث لابن قتيبة، وغيرها.

٥ ـ حيدر بن يحيى الجيلي (ت ٥٣٠)[١]: أصله من خراسان وجاور بمكة، توسّع أولاً في الدنيا، ثم زهد فيها وانقطع للعلم والعبادة، فكان أكثر الدهر يصوم، وطلب علم الحديث والتفسير، واتَّسعت مروياته في ذلك، كتب إلى عياض من مكة يجيزه جميع مروياته، من ذلك: معالم السنن للخطابي وتفسير الثعلبي وتفسير الواحدي، وغيرها.

٦ ـ خلف بن خلف الأنصاري (ت ٥٠٨)[٢]: أديب، فقيه، مقرئ أندلسي، أجاز عياضاً جميع مروياته، وكان حسن الضبط، جيد الكتب، كثير الجمع.

٧ ـ خليص بن عبد الله العبدري، أبو الحسن (ت ٥١٣)[٣]:

---

(١) الغنية، ص ١٤٢.
(٢) الغنية، ص ١٤٨؛ طبقات القرّاء: ١/ ٢٧٢.
(٣) الغنية، ص ١٥٠؛ الصلة: ١/ ١٨٠.

محدِّث، فقيه، أندلسي، أجاز عياض جميع رواياته، وكان كثير الكتب، غير أن في ضبطه شيئاً.

٨ ـ شريح بن محمد الرعيني، أبو الحسن (ت ٥٣٩)[١]: شيخ المقرئين بأشبيلية، وأحد القائمين بعلوم القرآن والاستقلال بالنحو والعربية، مع مشاركة في علم الحديث، أجاز عياضاً بجميع مروياته ومرويات أبيه محمد بن شريح.

٩ ـ عبد الرحمن بن عبد الصمد النيْسابوري، أبو القاسم[٢]: من أهل نيسابور وجاور بمكة، محدِّث مقرئ، مشارك في علم الكلام، وكان عالماً فاضلاً متصوّفاً، كتب إلى عياض يجيزه جميع روايته.

١٠ ـ عبد الرحمن بن عبد الله السرقسطي، أبو زيد (ت ٥١٥)[٣]: أندلسي، زاهد، مشارك في العلوم، كتب إلى عياض يجيزه بجميع مروياته.

١١ ـ عبد الله بن محمد البطليوسي، أبو محمد (ت ٥٢١)[٤]:

---

(١) الغنية، ص ٢١٣؛ بغية الوعاة: ٢/ ٣.
(٢) الغنية، ص١٦٦؛ المنتظم: ١٠/ ١٥٩.
(٣) الغنية، ص ١٦٧، الصلة: ٢/ ٣٤٦.
(٤) الغنية، ص ١٥٨؛ إنباه الرواة: ٢/ ١٤١.

شيخ أدباء بلنسية في وقته، متقدّم في علم النحو واللغات والآداب والشعر والبلاغة، مع مشاركة في الحديث والفقه، أجاز عياضاً في جميع رواياته ومصنّفاته، من ذلك المقتبس في شرح الموطأ وسبب اختلاف الفقهاء، كلاهما له.

١٢ ـ عبد الله بن محمد الفهري، أبو محمد (ت ٥٣٠)[١]: شاطبي مشارك في العلوم، من أهل بيت ونباهة، أجاز عياضاً بالحديث المسلسل بأخذ اليد.

١٣ ـ عبد الملك بن أبي مسلم الهمداني، أبو نصر النهاوندي[٢]: محدِّث، فقيه، سمع بمكة وبغداد وغيرهما، وسمع منه الناس، كتب إلى عياض يجيزه بجميع مروياته، من ذلك: الجمع بين الصحيحين للحميدي.

١٤ ـ عبد الواحد بن أحمد البغدادي الفهري[٣]: محدِّث ثبْت، سمع منه الناس، كتب إلى عياض يجيزه بجميع مروياته، وذلك سنة ٥١٧هـ.

---

(١) الغنية، ص ١٥٩؛ الصلة: ١/ ٢٩٥.
(٢) الغنية، ص ١٧٢؛ العقد الثمين: ٥/ ٥١٦.
(٣) الغنية، ص ١٧٠.

١٥ ـ علي بن أبي القاسم المهدوي، المعروف بابن البناء[١]: أصله من المهدية وسكن مكة، له تقدُّم في علوم القرآن والقراءات، كتب إلى عياض يجيزه بجميع رواياته، من ذلك: الجامع الكبير والتلخيص، كلاهما في القراءات لأبي معشر الطبري.

١٦ ـ علي بن المشرف الأنماطي، أبو الحسن الإسكندراني (ت ٥١٩)[٢]: محدِّث مصري، مسند، واسع الرواية، كتب بإجازة جميع مروياته لعياض، من ذلك: المؤتلف والمختلف والأوهام لعبد الغني بن سعيد، وتفسير عبد الرزاق الصنعاني.

١٧ ـ محمد بن أحمد الأموي، أبو عبد الله (ت ٥١٢)[٣]: محدِّث، مقرئ، أجاز عياضاً بكتاب الهداية في القراءات للمهدوي.

١٨ ـ محمد بن أحمد الرازي، أبو عبد الله ابن الحطاب (ت ٥٢٥)[٤]: أحد كبار الرواة والمسندين بمصر في وقته، له رحلة وسماع واسع، أجاز عياضاً جميع مروياته.

---

(١) الغنية، ص ١٨٣.
(٢) الغنية، ص ١٧٨؛ أزهار الرياض: ٣/ ١٦٠.
(٣) الغنية، ص ٩١.
(٤) الغنية، ص ٨٢؛ حسن المحاضرة: ١/ ٣٧٥.

١٩ ـ محمد بن الفرج، أبو عبد الله[١]: محدِّث، له رحلة واسعة وسماع بالعراق والشام وغيرهما، كتب إلى عياض من سرقسطة يجيزه بجميع رواياته.

٢٠ ـ محمد بن الوليد الفهري، أبو بكر الطرطوشي[٢]: أندلسي، رحل إلى المشرق، فأقام بالشام ثم بمصر، حيث حصلت له رئاسة، متقدّم في علوم الفقه والأصول والتوحيد، كتب إلى عياض يجيزه جميع رواياته ومؤلفاته، ومن ذلك: كتاب السعود في الرد على اليهود، ورسالة تحريم الغناء، وكتاب البدع، كلها من تصنيفه.

٢١ ـ محمد بن المسلم المخزومي، أبو عبد الله[٣]: من أهل صقلية، ونزل الإسكندرية، أديب نحوي، أصولي متكلّم، غلب عليه الكلام والتحقيق، وتقدّم فيه تقدُّماً بزَّ فيه أهل وقته، وصنّف فيه التصانيف الكبار، مثل: البيان لشرح البرهان، والمهاد في شرح الإرشاد، وغيرهما؛ رحل إليه الناس في هذا الشأن، وناظر الفِرَق المخالفة، كتب إلى عياض مجيزاً بجميع مؤلَّفاته ومرويّاته.

---

(١) الغنية، ص ٨٩؛ التكملة: ١/ ٤٣٣.
(٢) الغنية، ص ٥٦٢؛ النجوم الزاهرة: ٥/ ٢٣١.
(٣) الغنية، ص ٨٨.

٢٢ ـ محمد بن حبيب الأموي، أبو عامر (ت ٥٢٨)[١]: مقرئ، فقيه، من أهل شاطبة، كتب إلى عياض يجيزه جميع مروياته.

٢٣ ـ محمد بن عبد الرحمن بن شبرين، أبو عبد الله (ت ٥٠٣)[٢]: إشبيلي، متقدّم في علم الأصول ومسائل الخلاف، مشارك في الحديث، كتب إلى عياض يجيزه جميع روايته، من ذلك جميع كتب أبي الوليد الباجي.

٢٤ ـ محمد بن علي المازري، أبو عبد الله (ت ٥٣٦)[٣]: أصلهُ من صقلية واستوطن المهدية، وهو إمام بلاد إفريقية وما وراءها من المغرب، وآخر المستقلّين من شيوخ إفريقية بتحقيق الفقه ورتبة الاجتهاد ودقة النظر، متقدّم بلا منازع في علم الأصول والفقه والكلام والحديث واللغة، كتب إلى عياض يجيزه كتابه المعلم في شرح مسلم وغيره من مؤلّفاته.

على يد هؤلاء الأئمة الحفّاظ والفقهاء الأفذاذ والعلماء الجهابذة من مختلف حواضر العالم الإسلامي؛ تم تكوين عياض العلمي في

---

(١) الغنية، ص ٨١؛ الصلة: ٢/ ٥٧٩.
(٢) الغنية، ص ٧٥؛ أزهار الرياض: ٣/ ١٥٥.
(٣) الغنية، ص ٦٥؛ منهجية فقه الحديث، ص ١٠١.

شتّى فنون العلم، واكتسب حصيلة علمية متميّزة، فكان له أثره البارز في الحياة العلمية في عصره تصنيفاً وتدريساً وقضاءً وإفتاءً.

خامساً ـ مصادر القاضي عياض مبوّبة على فنون العلم:

كانت حصيلة عياض من تكوينه العلمي بين سبتة والأندلس وما ناله من الإجازات؛ مجموعات واسعة من الكتب والرسائل في شتّى فنون العلم والمعرفة، وقد وقفتُ على أسماء كثير من هذه المصادر من خلال قراءتي ودراستي لكتب القاضي عياض، وبخاصة (إكمال المعلم بفوائد صحيح مسلم)، وفهرسة شيوخه (الغنية) و(الشفاء) و(الإلماع).

وكثيراً ما ينصّ عياض رحمه الله في مؤلّفاته على الكتب التي يستقي منها معلوماته، إلا أنه لا يفعل ذلك في كثير من الأحيان، مما جعل الوقوف على أسماء كثير من موارده متعذّراً، فقد يقتصر في العزو أحياناً على ذكر اسم المؤلف، ولا يصرّح باسم الكتاب، وقد يكون لذلك المؤلف أكثر من كتاب، وقد لا يذكر إلا جزءاً من اسم المؤلف، مما اقتضى البحث في المصادر لتكميل أسماء كثير من المصنّفين، وبحثاً آخر للاطلاع على أسماء مصنّفاتهم، والنظر فيما يكون من بينها مناسباً للمادة التي نقلها عياض عن ذلك المؤلف لتحديد اسم المصدر جزماً أو تغليباً.

كما أنه أشار إلى كثير من مصادره بصيغة الإجمال، فكان ذلك سبباً في عسر الوصول إلى تحديد أسمائها، مثل قوله: «ذكر بعض الشارحين»، «قال المفسّرون»، «ذكر أصحاب الأخبار والمغازي»، «قال أهل السير»، «ذكر أصحاب القراءات»، «قال المصنّفون في الأصول»، «رأيت في كتب بعض شيوخي»، وغير ذلك.

وقد صنّفتُ ما وجدته وما حدّدْته من هذه المصادر بحسب العلوم المختلفة، ورتّبتها داخل كل فنّ على حروف المعجم، وأذكر أحياناً آخر مصادر الفن قائمة بأسماء من نقل عنهم في ذلك الباب ولم يمكن تمييز مصنّفاتهم، إن وُجدوا، كما خصَّصت في الأخير باباً للمتفرّقات من الكتب التي لم يظهر لي وجه بيِّن لإلحاقها بموضوعات محدَّدة[1]:

النوع الأول: علوم الاعتقاد:

إنّ ما أورده القاضي ـ رحمه الله ـ في مصنّفاته من مسائل أصول الدين والعلوم المتعلّقة بها كثير جداً، مع البسط والتحرير والدقة، مما يؤكّد أنّ عدداً وفيراً من المصادر في هذا المجال كان متيسّراً له، غير

---

(١) راجع منهجية فقه الحديث عند القاضي عياض، ص ٢٩٤ ـ ٣٢٤؛ الغنية، ص ٢٩٥ ـ ٣٠٠؛ الإلماع، ص ٣٨٠ ـ ٣٨٢.

أنه لم يصرّح لنا في مصنّفاته وفهرسة شيوخه إلا بالقليل منها، وهي:

أ ـ كتب العقيدة:

١ ـ الأرجوزة الصغرى.

٢ ـ الأرجوزة الكبرى، كلاهما ليوسف بن محمد الكلبي.

٣ ـ الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، لإمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني (ت ٤٧٨).

٤ ـ أصول العبارة لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٤٧٦).

٥ ـ أنوار الحقائق وأسرار الدقائق، لعبد الرحمن بن محمد القرطبي وأبي الحجاج الضرير.

٦ ـ التحبير والتذكير، لأبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري (ت ٤٦٥).

٧ ـ التسديد إلى معرفة التوحيد، لأبي الوليد سليمان بن خلف الباجي (ت ٤٧٤).

٨ ـ شرح الأسماء الحسنى، لأبي سليمان حمد بن محمد الخطابي (ت ٣٨٨).

٩ ـ شرح الصفات، لعلي بن عيسى الرماني المعتزلي (ت ٣٨٤).

١٠ ـ المقنع، لأبي منصور عبد المحسن بن محمد الشيحي (ت ٤٨٩).

١١ ـ المهاد في شرح الإرشاد، لمحمد بن مسلم الصقلي.

١٢ ـ النصائح، لإسحاق بن إبراهيم القرطبي (ت ٣٦٤).

وقد نقل القاضي في العقيدة عن جماعة آخرين صرّح بأسمائهم دون أسماء مؤلَّفاتهم، وهم:

ـ عبد الكريم بن هوازن القشيري.

ـ عبد الله بن أبي زيد القيرواني، أبو محمد (ت ٣٨٦).

ـ محمد بن إسحاق بن خزيمة، أبو بكر (ت ٣١١).

ـ محمد بن الطيب الباقلاني، أبو بكر (ت ٤٠٣).

ب ـ كتب الجدل والمناظرة:

١ ـ المعونة في الجدل، لإبراهيم بن علي الشيرازي (ت ٤٧٦).

٢ ـ المنهاج في ترتيب الحجاج، للباجي.

جـ ـ كتب مقالات الفِرَق والمِلَل :

١ ـ الردّ على المعتزلـي البغدادي، لأبـي محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني (ت ٣٨٦).

٢ ـ السعود في الرد على اليهود، لمحمد بن الوليد الطرطوشي.

٣ ـ شرح مقالات زُرْقان، لأبي عثمان سعيد بن محمد بن صبيح الغساني، المعروف بابن الحداد (ت ٣٠٢).

٤ ـ مقالات عبد الله بن أحمد البلخي، أبو القاسم (ت ٣١٩).

٥ ـ مقالات محمد بن زيد الواسطي المعتزلي (ت ٣٠٦).

٦ ـ مقالات محمد بن شداد المسمعي المعتزلي، الملقَّب بـ (زُرْقان) (ت ٢٧٨).

النوع الثاني: كتب التفسير وعلوم القرآن:

أ ـ كتب التفسير:

١ ـ تفسير بقي بن مخلد الأندلسي (ت ٢٧٦).

٢ ـ تفسير الثّعْلبي.

٣ ـ تفسير السُّدي الصغير، محمد بن مروان الكوفي.

٤ ـ تفسير الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠).

٥ ـ تفسير عبد الرزاق الصنعاني.

٦ ـ تفسير القرآن لأبي زكريا يحيى بن علي التبريزيّ (ت٥٠٢).

٧ ـ تفسير الواحدي.

٨ ـ الرد على مَن غلط في التفسير والحديث، لبكر بن العلاء القشيري (ت ٣٤٤).

٩ ـ شفاء الصدور ـ وهو تفسير النقاش ـ، محمد بن الحسن الموصلي (ت ٣٥١).

١٠ ـ مختصر تفسير يحيى بن سلام، لابن أبي زمنين، محمد بن عبد الله المرّي (ت ٣٩٩).

١١ ـ مختصر كتاب الثعالبي في القرآن، لأبي بكر محمد بن الوليد الطرطوشي (ت ٥٢٠).

١٢ ـ معاني القرآن، لأبي جعفر أحمد بن محمد النحاس (ت٣٣٨).

١٣ ـ معاني القرآن، ليحيى بن زياد الفراء (ت ٢٠٧).

١٤ ـ الهداية إلى بلوغ النهاية، لمكي بن أبي طالب (ت ٤٣٧).

ب ـ كتب غريب القرآن ومشكله :

١ ـ تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة (ت ٢٧٦).

٢ ـ تفسير غريب القرآن، لابن قتيبة.

جـ ـ كتب الناسخ والمنسوخ :

١ ـ الناسخ والمنسوخ، لأبي محمد مكي بن أبي طالب.

٢ ـ الناسخ والمنسوخ، لهبة الله.

د ـ كتب القراءات :

١ ـ التحصيل، لأبي العباس أحمد بن عمار المهدوي.

٢ ـ التفصيل، للمهدوي.

٣ ـ التلخيص في القراءات، لأبي معشر الطبري.

٤ ـ الجامع الكبير في القراءات، لأبي معشر أيضاً.

٥ ـ المفتاح في القراءات، لابن عبد الوهاب.

٦ ـ الهداية في القراءات السبع، لأبي العباس أحمد بن عمار المهدوي.

٧ ـ الوقف والابتداء، لابن النحاس.

النوع الثالث: كتب السنّـة وعلومها:

(أ) كتب متون السنة:

١ ـ الكتب الخمسة:

أ ـ الجامع الصحيح، للإمام محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦).

ب ـ الجامع الصحيح، للإمام مسلم بن الحجاج القشيري (ت ٢٦١).

جـ ـ سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥).

د ـ سنن أبي عيسى، محمد بن عيسى الترمذي (ت ٢٩٧).

هـ ـ سنن أبي عبد الرحمن، أحمد بن علي بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣).

أما سنن ابن ماجه فلم أجد له ذكراً في كتب القاضي، وقد كان قليل التداول في بلاد المغرب إلى زمن عياض رحمه الله.

٢ ـ بقية كتب الحديث المصنّفة على الأبواب:

أ ـ جامع عبد الله بن وهب.

ب ـ سنن الدارقطني، علي بن عمر (ت ٣٨٥).

جـ ـ سنن سعيد بن منصور الخراساني (ت ٢٢٧).

د ـ السنن الكبرى، لأبي عبد الرحمن النسائي.

هـ ـ الصحيح المنتقى، لسعيد بن عثمان بن السكن (ت ٣٥٣).

و ـ المستدرك على الصحيحين، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم (ت ٤٠٥).

ز ـ الموطأ، للإمام مالك بن أنس الأصبحي (ت ١٧٩)، وقد استعمله القاضي بروايات متعدّدة صرّح بها، وهي:

- رواية أبي مصعب، أحمد بن أبي بكر الزهري.
- رواية عبد الرحمن بن القاسم العتقي.
- رواية عبد الله بن الحكم المصري.
- رواية عبد الله بن عمر بن غانم القيرواني.
- رواية عبد الله بن مسلمة القعنبي.
- رواية عبد الله بن وهب المصري.
- رواية عبد الله بن يوسف التنيسي.
- رواية علي بن زياد التونسي.
- رواية يحيى بن عبد الله بن بكير المصري.
- رواية يحيى بن يحيى الليثي القرطبي.

٣ ـ المسانيد:

أ ـ مسند أبي بكر ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمد العبسي (ت ٢٣٥).

ب ـ مسند الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١).

جـ ـ مسند أحمد بن عمرو البزار (ت ٢٩٢)، المسمَّى البحر الزخار.

د ـ مسند بقي بن مخلد الأندلسي (ت ٢٧٦).

هـ ـ مسند الشهاب للقضاعي.

و ـ مسند محمد بن أحمد بن يعقوب بن شيبة السدوسي.

ز ـ مسند مسدد بن مسرهد (ت ٢٢٨).

٤ ـ كتب الجمع بين الصحيحين:

ـ الجمع بين الصحيحين، لأبي عبد الله محمد بن فتّوح الحميدي (ت ٤٨٨).

٥ ـ المستخرجات:

ـ المستخرج على الصحيحين، لأبي بكر أحمد بن محمد البرقاني (ت ٤٢٥).

٦ ـ الملخصات:

أ ـ التقصي لمسند الموطأ، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر (ت٤٦٣).

ب ـ مسند الموطأ، لأبي القاسم الجوهري.

جـ ـ الملخص لما في الموطأ من الحديث المسند، لأبي الحسن علي بن محمد القابسي (ت٤٠٣).

٧ ـ كتب الأطراف:

أ ـ أطراف الصحيحين، لأبي مسعود إبراهيم بن محمد الدمشقي (ت٤٠١).

ب ـ أطراف الموطأ، لأحمد بن طاهر بن شبرين.

٨ ـ كتب الشمائل:

أ ـ جزء فيه خطبة عائشة رضي الله عنها في أبيها، للخطيب البغدادي (ت٤٦٣).

ب ـ الشمائل لأبي عيسى الترمذي (ت٢٩٧).

٩ ـ الأجزاء الحديثية:

أ ـ الأربعون حديثاً، للآجري.

ب ـ الأربعون حديثاً، لأبي صالح أحمد بن عبد الملك.

جـ ـ الأربعون حديثاً، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم (ت٤٠٥).

د ـ الأربعون حديثاً، للحسن بن سفيان.

هـ ـ الأربعون حديثاً، لأبي نعيم الأصبهاني (ت٤٣٠).

و ـ جزآن من حديث أبي علي الصدفي.

ز ـ جزء حديث ابن الخاضبة.

ح ـ جزء عوالي الشريف أبي الفوارس.

ط ـ الرباعيات، لعبد الغني بن سعيد الأزدي (ت٤٠٩).

ي ـ الزهريات، لأبي الطاهر محمد بن أحمد الذهلي (ت٣٦٧).

ك ـ صحيفة هشام بن عروة بن الزبير.

ل ـ عوالي السفاقصي.

م ـ كتاب الإلزامات للحافظ علي بن عمر الدارقطني (ت٣٨٥).

(ب) كتب علوم الحديث:

(١) كتب مصطلح الحديث:

أ ـ المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، للحسن بن عبد الرحمن ابن خلاد الرامهرمزي (ت٣٦٠).

ب ـ المدخل إلى الصحيح، لأبي عبد الله الحاكم (ت٤٠٥).

جـ ـ المدخل إلى كتاب الإكليل، لأبي عبد الله الحاكم.

د ـ معرفة علوم الحديث للحاكم.

هـ ـ مقدمة التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر (ت٤٦٣).

و ـ مقدمة معالم السنن، لأبي سليمان حمد بن محمد الخطابي (ت٣٨٨).

ز ـ الوجازة في صحة القول بالإجازة، لأبي العباس الوليد بن بكر بن مخلد الأندلسي (ت٣٩٢).

ح ـ كما أفاد القاضي رحمه الله في هذا الباب من كتاب إحكام الفصول في أحكام الأصول لأبي الوليد الباجي (ت٤٧٤)، وذلك في المباحث المشتركة بين علوم الحديث وأصول الفقه.

(٢) ـ كتب العلل:

أ ـ التتبع والاستدراكات على البخاري ومسلم، للدارقطني (ت٣٨٥).

ب ـ جواب أبي مسعود الدمشقي لأبي الحسن الدارقطني عما

بيَّن فيه غلط أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري.

جـ ـ العلل للإمام أحمد بن محمد بن حنبل (ت٢٤١).

د ـ العلل لعلي بن عبد الله ابن المديني (ت٢٣٤).

هـ ـ العلل الكبير للدارقطني.

و ـ العلل الواقعة في أسانيد كتاب مسلم لأبي علي الجياني.

(٣) ـ كتب الأفراد والمراسيل:

أ ـ كتاب التفرد، لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت٢٧٥).

ب ـ كتاب المراسيل، لأبي داود أيضاً.

(٤) ـ كتب المؤتلف والمختلف:

أ ـ الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف من الأسماء والكنى والأنساب، لأبي نصر علي بن هبة الله، ابن ماكولا (ت٤٧٥).

ب ـ تقييد المهمل وتمييز المشكل من الأسماء والكنى والأنساب، لأبي علي الحسين بن محمد الجياني (ت٤٩٨).

جـ ـ مشتبه النسبة، لعبد الغني بن سعيد الأزدي (ت٤٠٩).

د ـ المؤتلف والمختلف، لعبد الغني بن سعيد أيضاً.

هـ ـ المؤتلف والمختلف، لعبد الله بن محمد بن يوسف بن الفرضي (ت٤٠٣).

و ـ المؤتلف والمختلف للدارقطني.

ز ـ المؤتنف في تكملة المؤتلف والمختلف، للخطيب البغدادي.

(٥) ـ كتب الصحابة:

أ ـ الاستيعاب في أسماء الأصحاب، لابن عبد البر.

ب ـ التنبيه في أسماء الصحابة، لمحمد بن خلف الأريولي.

جـ ـ الذيل على كتاب الاستيعاب، للأريولي أيضاً.

(٦) ـ كتب رجال الصحيحين:

أ ـ أسامي شيوخ البخاري الذين أخرج عنهم في الصحيح، لأحمد بن عدي الجرجاني.

ب ـ تسمية من أخرجهم البخاري ومسلم، لأبي عبد الله الحاكم.

جـ ـ التعديل والتجريح لمن خرَّج له البخاري في الجامع الصحيح، لأبي الوليد الباجي.

د ـ رجال صحيح مسلم، لأحمد بن طاهر بن شبرين.

هـ ـ الهداية والإرشاد في معرفة أهل الثقة والسداد الذين خرج لهم أبـو عبد الله البخاري في صحيحـه، لأبي نصر أحمد بن محمد الكلاباذي (ت٣٩٨).

(٧) ـ كتب تواريخ الرجال وأحوالهم:

أ ـ تاريخ ابن أبي خيثمة، زهير بن حرب النسائي (ت٢٧٩).

ب ـ تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي.

جـ ـ تاريخ الرجال، ليحيى بن معين (ت٢٣٣).

د ـ التاريخ الكبير للإمام البخاري.

هـ ـ التاريخ الكبير لمسلمة بن قاسم القرطبي (ت٣٥٣).

و ـ تاريخ مصر، لأبي سـعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس المصري (ت٣٤٧).

ز ـ تاريخ نيسابور، لأبي عبد الله الحاكم.

حـ ـ تعليقـات في تراجم الرواة وأحوالهم، لأبي عمران موسـى ابن عيسى الفاسي نزيل القيروان (ت٤٣٠).

ط ـ الجـرح والتعديـل، لعبد الـرحمن بـن أبـي حـاتم الـرازي (ت٣٢٧).

ي ـ المنتقى في أخبار الأئمة الفقهاء، لابن عبد البر.

(٨) ـ كتب الثقات:

أ ـ كتاب الثقات، لمحمد بن حبان البستي (ت٣٥٤).

ب ـ كتاب المزكين لرواة الأخبار، لأبي عبد الله الحاكم (ت٤٠٥).

(٩) ـ كتب الضعفاء:

أ ـ الضعفاء والمتروكون، لأحمد بن علي بن شعيب النسائي (ت٣٠٣).

ب ـ الضعفاء، لعلي بن عمر الدارقطني (ت٣٨٥).

جـ ـ الضعفاء، لمحمد بن عمرو العقيلي (ت٣٢٢).

(١٠) ـ كتب الطبقات:

أ ـ طبقات القراء لأبي عمر المقرئ.

ب ـ طبقات علماء إفريقية، لأبي بكر عبد الله بن محمد المالكي.

جـ ـ طبقات علماء الأندلس، لأبي الوليد عبد الله بن محمد الأزدي، ابن الفرضي (ت٤٠٣).

د ـ الطبقات، لخليفة بن خياط (ت٢٤٠).

هـ ـ الطبقات، لمسلم بن الحجاج (ت٢٦١).

و ـ الطبقات، للنسائي (ت٣٠٣).

ز ـ الطبقات الكبرى، لمحمد بن سعد البصري (ت٢٣٠).

(١١) ـ كتب معرفة الكنى:

أ ـ الاستغناء في معرفة المشهورين من حملة العلم بالكنى، لابن عبد البر.

ب ـ الكنى، لأبي محمد عبد الله بن علي بن الجارود (ت٣٠٧).

جـ ـ الكنى، للإمام البخاري (ت٢٥٦).

د ـ الكنى، للإمام النسائي (ت٣٠٣).

هـ ـ الكنى والأسماء، للإمام مسلم (ت٢٦١).

و ـ المقتنى في سرد الكنى، لأبي أحمد محمد بن محمد النيسابوري الكرابيسي، المعروف بالحاكم الكبير (ت٣٧٨).

(١٢) ـ كتب معرفة القبائل والأنساب:

أ ـ مختلف القبائل ومؤتلفها، لمحمد بن حبيب البغدادي (ت٢٤٥).

ب ـ نسب قريش، للزبير بن بكار (ت٢٥٦).

كما نقل في هذا الباب عن النسَّابة أبي الحسن علي بن محمد الجرجاني (ت٤٦٨).

(١٣) ـ كتب التاريخ والمغازي والسير:

أ ـ تاريخ أحمد بن سعيد الصدفي.

ب ـ تاريخ خليفة بن خياط (ت٢٤٠).

جـ ـ تاريخ الأمم والملوك، لمحمد بن جرير الطبري (ت٣١٠).

د ـ تاريخ عرب البيرة، لمطرف بن عيسى الغساني (ت٣٧٧).

هـ ـ السيرة النبوية، لعبد الملك بن هشام الحميري (ت٢١٨).

و ـ شرف المصطفى ﷺ، لعبد الملك بن محمد النيسابوري (ت٣٠٦).

ز ـ المشاهد، لابن هشام (ت٢١٨).

حـ ـ المغازي، لمحمد بن إسحاق بن يسار المطّلبي (ت١٥٠).

ط ـ المغازي، لمحمد بن عمر الواقدي (ت٢٠٧).

ي ـ المغازي، لموسى بن عقبة الأسدي (ت١٤١).

كما نقل في هذه الأبواب عن هشام بن محمد بن السائب الكلبي (ت٢٠٤).

(١٤) - كتب الشروح الحديثية:

أ - شروح الصحيحين وسنن أبي داود:

١ - أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري)، لأبي سليمان حَمْد ابن محمد الخطابي (ت٣٨٨).

٢ - الإيجاز والبيان لشرح خطبة مسلم مع كتاب الإيمان، لأبي عبد الله محمد بن أحمد التجيبي (ت٥٢٩)، شيخ القاضي عياض.

٣ - شرح صحيح البخاري، لأبي الحسن علي بن خلف بن بطال القرطبي (ت٤٤٤).

٤ - شرح صحيح البخاري، لأبي القاسم المهلّب بن أحمد بن أبي صفرة (ت٤٣٦).

٥ - شرح صحيح البخاري، لمحمد بن علي بن المرابط (ت٤٨٥).

٦ - معالم السنن (شرح سنن أبي داود) للخطابي.

٧ - المعلم بفوائد صحيح مسلم، لمحمد بن علي المازري (ت٥٣٦).

٨ ـ النصيحة في شرح البخاري، لأبي جعفر أحمد بن نصر الداودي (ت٤٠٢).

ب ـ شروح الموطأ:

١ ـ الاستذكار لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار، لابن عبد البر (ت٤٦٣).

٢ ـ التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لابن عبد البر أيضاً.

٣ ـ شرح الملخص لما في الموطأ من الحديث المسند للقابسي، تأليف محمد بن أحمد بن أبي صفرة (ت٤١٦).

٤ ـ شرح الموطأ، لأبي محمد عبد الله بن إبراهيم الأصيلي (ت٣٩٢).

٥ ـ شرح الموطأ، لأبي الحسن علي بن محمد القابسي (ت٤٠٣).

٦ ـ المقتبس في شرح الموطأ، لعبد الله بن محمد النحوي.

٧ ـ المنتقى في شرح الموطأ، لأبي الوليد سليمان بن خلف الباجي (ت٤٧٤).

٨ ـ الموعب في شرح الموطأ، لأبي الوليد يونس بن محمد بن مغيث القرطبي، المعروف بابن الصفار (ت٤٢٩).

جـ ـ شروح أخرى:

١ ـ الإخبار عن فوائد الأخبار، لأبي بكر محمد بن أبي إسحاق.

٢ ـ تهذيب الآثار، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠).

٣ ـ التحبير عما في حديث جابر في حجة الوداع من السنن والفوائد، تأليف أبي بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر (ت٣١٨).

٤ ـ شرح شهاب الأخبار، لأبي القاسم الوراق.

٥ ـ كتاب في شرح أحاديث حج النبي ﷺ لأبي جعفر أحمد بن محمد الطحاوي (ت٣٢١).

(١٥) ـ كتب تأويل مشكل الحديث:

أ ـ مشكل الآثار للطحاوي (ت٣٢١).

ب ـ مشكل الحديث وبيانه، لمحمد بن الحسن بن فورك (ت٤٠٦).

(١٦) ـ كتب غريب الحديث:

أ ـ الدلائل في شرح ما أغفله أبو عبيد وابن قتيبة من غريب

الحديث، لثابت بن حزم السرقسطي (ت٣١٣)، وابنه قاسم (ت٣٠٢).

ب - شرح غريب صحيح البخاري، لهشام بن عبد الرحمن القرطبي، المعروف بابن الصابوني (ت٤٢٣).

جـ- غريب الحديث، لإبراهيم بن إسحاق الحربي (ت٢٨٥).

د- غريب الحديث، لأبي سليمان الخطابي (ت٣٨٨).

هـ- غريب الحديث، لابن قتيبة (ت٢٧٦).

و- غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت٢٢٤).

ز- غريب الحديث، لأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت٢٠٩).

حـ- الغريب المصنف، للقاسم بن سلام.

ط- كتاب الغريبين، لأبي عبيد أحمد بن محمد الهروي (ت٤٠١).

ي- كتاب في نصرة أبي عبيد، لعبد المجيد بن عبدون الفهري.

(١٧) - كتب تصحيفات المحدثين:

أ- إصلاح الغلط، لابن قتيبة (ت٢٧٦).

ب- إصلاح غلط المحدثين، لأبي سليمان الخطابي (ت٣٨٨).

جـ- تصحيف المحدثين، لأبي الحسن الدارقطني (ت٣٨٥).

د - تصحيفات المحدثين، لأبي أحمد الحسن بن عبد الله العسكري (ت٣٨٢).

كما أكثر من النقل في هذا الباب عن أبي الوليد هشام بن أحمد الكناني، المعروف بالوقشي (ت٤٨٩)، وهو معروف بجسارته في إصلاح الخطأ وتقويم اللحن، لكثرة مطالعته وتفننه، غير أنه ربما وهم في ذلك.

النوع الرابع: كتب الفقه وأصوله:

لقد كثرت نقول القاضي عياض في مجال الفقه وأصوله، غير أنه لم يصرح بأسماء جميعها، كما هو مسلكه العام في ذكر موارده، وقد قسمتُ ما وجدته منها إلى ستة أقسام:

- كتب الفقه المالكي.
- كتب فقه المذاهب الأخرى.
- كتب الإجماع.
- كتب الخلاف الفقهي.
- كتب أصول الفقه.
- كتب المسائل الفقهية.

أولاً ـ مصادره في الفقه المالكي:

١ ـ اختصار الكتب المبسوطة، لأبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد (ت٥٢٠).

٢ ـ البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل في مسائل المستخرجة، لابن رشد أيضاً.

٣ ـ تلقين المبتدئ، لعبد الوهاب بن علي بن نصر (ت٤٢٢).

٤ ـ الجامع لنكت الأحكام، لأبي القاسم زيدون بن علي.

٥ ـ الرسالة، لعبد الله بن أبي زيد القيرواني (ت٣٨٦).

٦ ـ العتبية، لمحمد بن أحمد بن عتبة القرطبي (ت٢٥٤).

٧ ـ المبسوطة، لإسحاق بن يحيى بن يحيى الليثي (ت٢٦١).

٨ ـ المختصر، لمحمد بن القاسم بن شعبان (ت٣٥٥).

٩ ـ مختصر المدونة، لابن أبي زيد.

١٠ ـ مختصر في قول مالك، لأبي مصعب أحمد بن أبي بكر الزهري (ت٢٤٢).

١١ ـ المختلطة، لأسد بن الفرات (ت ٢١٣)، وسحنون بن سعيد (ت٢٤٠).

١٢ ـ المدونة، للإمام سحنون بن سعيد التنوخي القيرواني (ت٢٤٠).

١٣ ـ المقدمات على المدونة، لابن رشد (ت٥٢٠).

١٤ ـ الموازية، لأبي عبد الله محمد بن إبراهيم الإسكندري،

المعروف بابن المواز (ت٢٦٩ وقيل بعدها).

١٥ ـ النوادر لابن أبي زيد (ت٣٨٦).

ومن نقل عنهم القاضي عياض من الفقهاء المالكية من أصحاب المصنفات، ولم يصرح بأسماء كتبهم:

١ ـ إسماعيل بن إسحاق الأزدي، القاضي (ت ٢٨٢)، له المبسوط في الفقه.

٢ ـ الحارث بن مسكين المصري (ت٢٥٠)، من مصنفاته في الفقه: ما اتفق فيه رأي ابن القاسم وابن وهب وأشهب.

٣ ـ عبد الملك بن حبيب السلمي (ت٢٣٨)، من مؤلفاته: الواضحة في السنن والفقه.

٤ ـ محمد بن سحنون التنوخي (ت٢٥٦)، من مصنفاته الفقهية: كتاب الأجوبة، شرح أربعة كتب من المدونة، كتاب نوازل الصلاة.

٥ ـ يحيى بن عمر الكناني (ت٢٨٩)، من كتبه في الفقه: الحجة في الرد على الشافعي فيما أغفل من كتاب الله تبارك وتعالى وسنة نبيه ﷺ، المنتخبة، اختلاف ابن القاسم وأشهب.

٦ ـ يوسف بن عبد الله بن عبد البر، أبو عمر (ت٤٦٣)، من مصنفاته الفقهية: الكافي في فقه أهل المدينة، كما أن كتبه في شروح الموطأ قد اشتملت على فقه كثير أفاد منه عياض.

ثانياً ـ مصادره في فقه المذاهب الأخرى:

لم يصرح القاضي رحمه الله باسم أي مصدر من المصادر التي نقل عنها في فقه بقية المذاهب، ويبدو أن كثيراً من ذلك قد نقله من كتب الخلاف الآتي ذكرها في القسم الرابع.

وممن نقل عنهم من فقهاء المذاهب الأخرى ممن لهم مصنفات في الفقه من يلي:

١ ـ إبراهيم بن علي الشيرازي، الشافعي، أبو إسحاق (ت٤٧٦)، ومن مصنفاته في الفقه الشافعي: المهذب في المذهب، التنبيه في الفقه.

٢ ـ أحمد بن علي الرازي الحنفي، أبو بكر، المعروف بالجصاص (ت٣٧٠)، من مصنفاته: شرح الجامع الكبير لمحمد بن الحسن.

٣ـ الحسن بن محمد الاصطخري، الشافعي، أبو سعيد (ت٣٢٨).

٤ ـ علي بن محمد الماوردي، الشافعي، أبو الحسن (ت٤٥٠)، له الحاوي في فقه الشافعية.

٥ ـ محمد بن علي الأدفوي، أبو بكر.

٦ ـ محمد بن محمد الغزالي، الشافعي، أبو حامد (ت٥٠٥)، من مصنفاته: الوجيز في فقه الشافعية، البسيط في الفقه.

ثالثاً ـ كتب الإجماع:

أكثر القاضي رحمه الله من نقل الإجماعات الفقهية، وقد عرفتُ من مصادره في ذلك:

كتاب الإجماع لمحمد بن إبراهيم بن المنذر (ت٣١٨).

رابعاً ـ كتب الخلاف الفقهي:

١ ـ الآثار والدلائل في الخلاف، لأبي محمد عبد الله بن إبراهيم الأصيلي (ت٣٩٢).

٢ ـ اختلاف الأئمة، لمحمد بن نصر المروزي (ت٢٩٤).

٣ ـ اختلاف الفقهاء، لأحمد بن محمد الطحاوي (ت٣٢١).

٤ ـ اختلاف الفقهاء، لزكريا بن يحيى السّاجي البصري (ت٢٠٧).

٥ ـ اختلاف الفقهاء، لمحمد بن جرير الطبري (ت٣١٠).

٦ ـ الإشراف على ما في أصول الفرائض من الاختلاف، لابن عبد البر (ت٤٦٣).

٧ ـ الإشراف على مذاهب أهل العلم، لابن المنذر (ت٣١٨).

٨ ـ رد الأصيلي على أصحابه الأندلسيين، لأبي محمد الأصيلي (ت٣٩٢).

٩ ـ سبب اختلاف الفقهاء، لعبد الله بن محمد النحوي.

١٠ ـ كتاب اختلاف العلماء، لابن المنذر.

١١ ـ كتاب في الخلاف، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن خويز منداذ البغدادي المالكي.

١٢ ـ مسائل الخلاف، لعبد الرحمن بن عبيد الله بن الجلاب.

١٣ ـ مسائل الخلاف، لأبي الحسن علي بن عمر البغدادي، المعروف بابن القصار (ت٣٩٨).

١٤ ـ النكت لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي (ت٤٧٦).

خامساً ـ كتب أصول الفقه:

١ ـ إحكام الفصول في أحكام الأصول، لأبي الوليد سليمان بن خلف الباجي (ت٤٧٤).

٢ ـ الإشارة في أصول المالكية، لأبي الوليد الباجي أيضاً.

٣ ـ الانتصار لحديث رسول الله ﷺ، للأصيلي (ت٣٩٢).

٤ ـ الأوسط، لأبي المظفر شاهفور بن طاهر الإسفراييني.

٥ ـ البرهان في أصول الفقه، عبد الملك بن عبد الله الجويني، إمام الحرمين، أبو المعالي (ت٤٧٨).

٦ ـ البيان لشرح البرهان، لمحمد بن مسلم الصقلي.

٧ ـ تأييد التمهيد وتقييد التجريد، لمحمد بن مسلم الصقلي أيضاً.

٨ ـ التبصرة في أصول الفقه، لأبي إسحاق الشيرازي (ت٤٧٦).

سادساً ـ كتب المسائل الفقهية:

١ ـ تحريم الغناء للطرطوشي.

٢ ـ مسألة الأيمان اللازمة، لأبي بكر ابن العربي.

النوع الخامس: كتب اللغة والأدب والشعر:

١ ـ الإخوان، لمحمد بن زياد بن الأعرابي (ت٢٣١).

٢ ـ أدب الكاتب، لابن قتيبة، عبد الله بن مسلم الدينوري (ت٢٧٦).

٣ ـ إصلاح المنطق، ليعقوب بن إسحاق بن السكيت (ت٢٤٣).

٤ ـ الإفصاح للفارسي.

٥ ـ الأفعال، لمحمد بن عمر بن القوطية (ت٣٦٧).

٦ ـ الألفاظ، لابن السكيت (ت٢٤٣).

٧ ـ الأمثال، لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت٢٢٤).

٨ ـ الأمالي، لأبي علي إسماعيل بن القاسم القالي (ت٣٥٦).

٩ ـ البارع، لأبي علي القالي أيضاً.

١٠ ـ البديع، لعبد الله بن المعتز (ت٢٥٦).

١١ ـ تتمة كتاب العين، لليث بن نصر الخراساني.

١٢ ـ تثقيف اللسان وتلقيح الجنان، لعمر بن خلف بن مكي (ت٥٠١).

١٣ ـ الجامع في اللغة، لمحمد بن جعفر التميمي، المعروف بالقزاز (ت٤١٢).

١٤ ـ الجمل للزّجاجي.

١٥ ـ جمهرة اللغة، لمحمد بن الحسن بن دريد (ت٣٢١).

١٦ ـ الحماسة، لأبي الفتوح ثابت بن محمد الجرجاني.

١٧ ـ الرد على ثعلب، لعلي بن حمزة البصري (ت٣٧٥).

١٨ ـ الزاهر في معاني كلمات الناس، لمحمد بن القاسم بن الأنباري (ت٣٢٨).

١٩ ـ شرح أدب الكاتب، لعبد الله بن محمد النحوي.

٢٠ ـ شرح الجمل، لابن باب شاذ.

٢١ ـ شرح الجمل، لابن فضال.

٢٢ ـ شرح الحماسة، لعلي بن عبد الرحمن التنوخي.

٢٣ ـ شرح شعر حبيب، لعلي بن عبد الرحمن التنوخي.

٢٤ ـ شرح شعر المعري، لعبد الله بن محمد النحوي.

٢٥ ـ شرح المقدمة، لابن باب شاذ.

٢٦ ـ العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٠).

٢٧ ـ الفصيح، لأبي العباس أحمد بن يحيى، الملقب بـ: ثعلب (ت٢٩١).

٢٨ ـ فقه اللغة وسر العربية، لأبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي (ت٤٢٩).

٢٩ ـ الكافي، للنحاس.

٣٠ ـ الكامل في اللغة والأدب، لمحمد بن يزيد المبرد (ت٢٨٥).

٣١ ـ الكتاب، لسيبويه، عمرو بن عثمان (ت١٨٠).

٣٢ ـ مختصر العين، لأبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي (ت٣٧٩).

٣٣ ـ المقتضب، للمبرد (ت٢٨٥).

٣٤ ـ المنقذ، لمحمد بن أحمد البصري الشيعي، المعروف بالمفجّع اللغوي (ت٣٢٠).

٣٥ ـ الواضح لأبي بكر الزبيدي (ت٣٧٩).

٣٦ ـ اليواقيت، لأبي عمر محمد بن عبد الواحد المطرّز اللغوي، غلام ثعلب (ت٣٤٥).

وقد نقل القاضي رحمه الله في مجال اللغة عن جماعة كثيرين دون ذكر أسماء مصنفاتهم، منهم:

١ ـ إبراهيم بن محمد بن عرفة، المعروف بـ: نفطويه (ت٢٤٠).

٢ ـ أحمد بن إسحاق بن بهلول الأنباري (ت٣١٨).

٣ ـ أحمد بن خالد البغدادي، أبو سعيد الضرير (ت في حدود ٣٠٠).

٤ ـ أحمد بن داود الدينوري، أبو حنيفة (ت٢٨٦).

٥ ـ أحمد بن فارس القزويني (ت٣٩٥).

٦ ـ أحمد بن محمد بن ولاد (ت٣٣٢).

٧ ـ إسماعيل بن محمد الجوهري (ت٣٩٨).

٨ ـ زبان بن العلاء، أبو عمرو (ت١٥٤).

٩ ـ سعيد بن أوس بن ثابت الأنصاري، أبو زيد.

١٠ ـ سعيد بن مسعدة المجاشعي، الأخفش الأوسط (ت٢١٥).

١١ ـ سهل بن محمد السجستاني، أبو هاشم (ت٢٥٥).

١٢ ـ شمر بن حمدويه الهروي (ت٢٢٥).

١٣ ـ عبد الملك بن حبيب السلمي (ت٢٣٨).

١٤ ـ عبد الملك بن قريب الأصمعي (ت٢١٠).

١٥ ـ علي بن حمزة الكسائي (ت١٨٩).

١٦ ـ عيسى بن دينار بن واقد القرطبي (ت٢١٢).

١٧ ـ محمد بن أحمد الأزهري (ت٣٧٠).

١٨ ـ محمد بن المستنير، المعروف بـ: قطرب (ت٢٠٦).

١٩ ـ محمد بن يوسف المازني السرقسطي (ت٥٣٨).

٢٠ ـ النضر بن شميل (ت٢٠٤).

٢١ ـ الهيثم بن عدي الطائي (ت٢٠٦).

٢٢ ـ يونس بن حبيب الضبي (ت١٨٢).

النوع السادس: كتب الزهد والمواعظ والوصايا:

١ ـ آداب الصحبة، لأبي عبد الرحمن السلماني.

٢ ـ أدب النفوس لمحمد بن جرير الطبري.

٣ ـ بهجة المجالس لابن عبد البر.

٤ ـ تنبيه الغافلين، لنصر بن محمد السمرقندي.

٥ ـ الخصال، لأبي بكر أحمد بن عمر الخفاف الصوفي (ت٣٥٠).

٦ ـ الرعاية، للحارث المحاسبي.

٧ ـ شفاء الصدور، لعبد الرحمن بن محمد الجذامي.

٨ ـ موعظة داود بن جهور.

٩ ـ المنتقى من كلام أهل التقى، لمحمد بن خميس الصوفي.

١٠ ـ النّصائح لإسحاق بن إبراهيم.

١١ ـ نظم السلوك في وعظ الملوك، لأبي بكر محمد بن الوليد الطرطوشي (ت٥٢٠).

١٢ ـ وصية مالك بن أنس لطلبة العلم.

١٣ ـ وصية يحيى بن يحيى لطلبة العلم.

النوع السابع: كتب فهارس الشيوخ:

١ ـ فهرست أبي عمر بن عبد البر.

٢ ـ فهرست الدلائي.

٣ ـ فهرست أبي الوليد الباجي.

٤ ـ فهرست ابن سعدون.

٥ ـ فهرست الخطيب البغدادي.

٦ ـ فهرست عبد الحق الصقلي.

٧ ـ فهرست أبي عمران الفاسي .

٨ ـ فهرست القاضي عبد الوهاب .

٩ ـ فهرست محمد بن غلبون الخولاني .

١٠ ـ فهرست أبي علي الصدفي .

١١ ـ فهرست أبي علي الغساني .

١٢ ـ فهرست أبي عبد الله ابن عتاب .

١٣ ـ فهرست أبي مروان الطبني .

١٤ ـ فهرست مكي بن أبي طالب .

١٥ ـ فهرست محمد بن أحمد الرازي .

١٦ ـ فهرست أبي الأصبغ بن سهل .

١٧ ـ فهرست أبي الحجاج الأعلم .

١٨ ـ فهرست أبي محمد ابن الوليد .

١٩ ـ فهرست أبي عبد الله ابن الحذاء .

٢٠ ـ فهرست أبي مروان ابن سراج .

٢١ ـ فهرست أبي عمر السفاقسي .

٢٢ ـ فهرست أبي عبد الله ابن أخت غانم .

٢٣ ـ فهرست أبي عمرو المقرئ .

٢٤ ـ فهرست أبي عمر الطلمنكي .

٢٥ ـ فهرست أبي الليث نصر بن محمد السمرقندي.

٢٦ ـ فهرست أحمد بن محمد بن سلفة الأصبهاني.

٢٧ ـ فهرست أبي بكر الطرطوشي.

٢٨ ـ فهرست أبي عبد الله الحميدي.

٢٩ ـ فهرست أبي بكر الشاشي.

٣٠ ـ فهرست أبي إسحاق الشيرازي.

٣١ ـ فهرست أبي محمد ابن فرج.

٣٢ ـ فهرست أبي جعفر ابن بشتغير.

٣٣ ـ فهرست أبي الحسين الطيوري.

٣٤ ـ معجم رجال أبي ذر الهروي.

النوع الثامن: مصنفات ذات موضوعات متنوعة:

هذا عنوان جامع لبعض ما تبقى من مصادر عياض من الكتب ذات الفنون والموضوعات المتنوعة، وإن كان يمكن إلحاق بعضها مع بعض التقسيمات السابقة، إلا أن إفرادها أكثر فائدة لإبرازها:

١ ـ الأحكام السلطانية، لعلي بن محمد الماوردي (ت٤٥٠).

٢ ـ الأموال، لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت٢٢٤).

٣ ـ خلق الإنسان، لأبي مالك عمرو بن كركرة الأعرابي البصري.

٤ ـ الرد على الدينوري في كتاب النبات، لعلي بن حمزة البصري (ت٣٧٥).

٥ ـ القطعان، لمحمد بن وضاح القرطبي (ت٢٨٦).

٦ ـ كتاب الحيوان، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري (ت٢٥٥).

٧ ـ المعارف، لعبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت٢٧٦).

٨ ـ النبات، لأبي حنيفة أحمد بن داود الدينوري (ت٢٨٢).

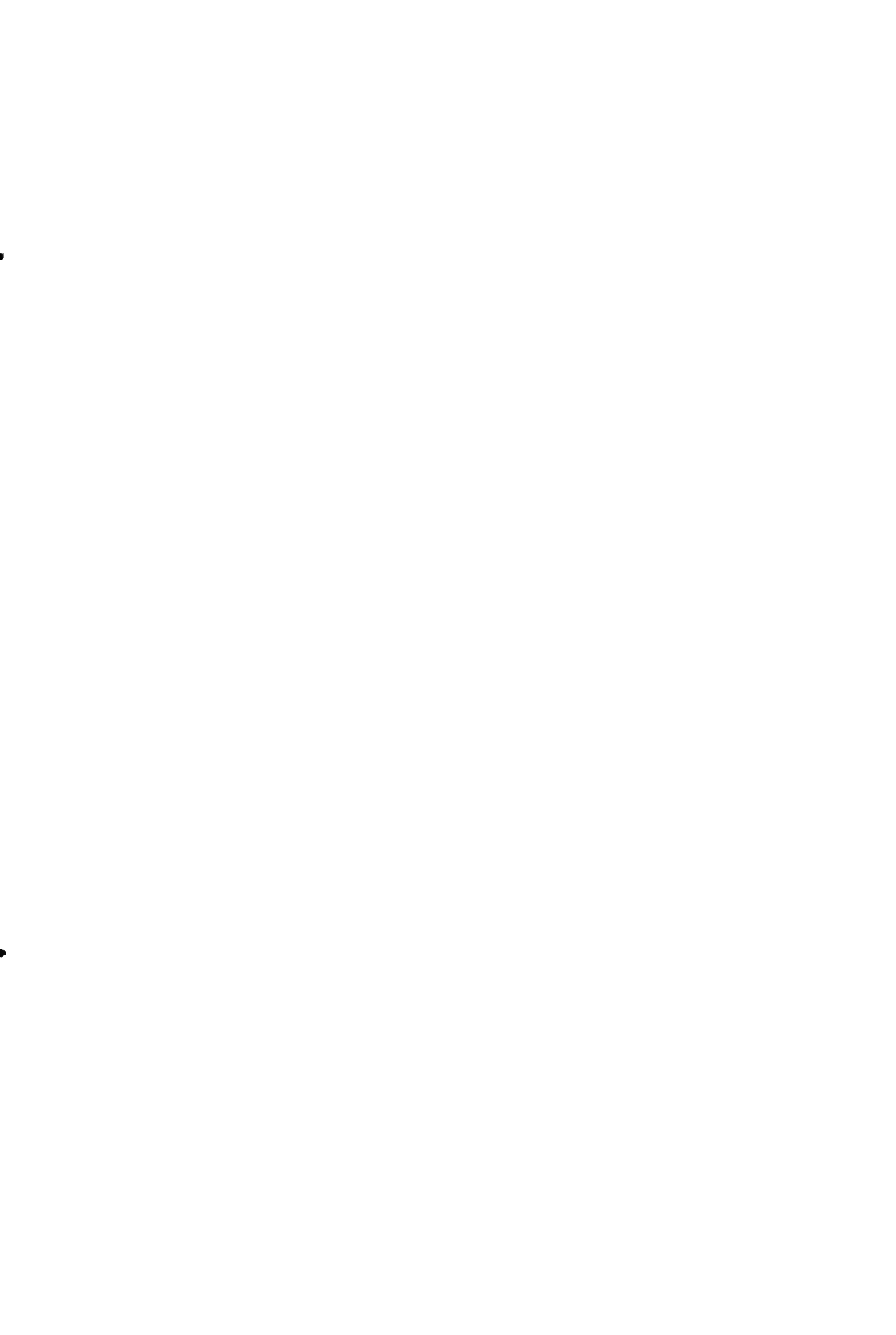
إن هذه المصادر القيمة، ذات الفنون المتنوعة، دالة على سعة اطلاع القاضي رحمه الله، وأهمية ما اشتملت عليه مصنفاته من العلوم والمعارف في مختلف الفنون، وأن كتبه قد احتفظت لنا بمادة علمية من كثير من المصادر المفقودة.

* * *

الباب الثاني

القاضي عياض في مرحلة الأستاذية والعطاء

بتلك الحصيلة العلمية الواسعة، وعلى يد أولئك الشيوخ المتميزين، وبذلك التحصيل الجاد المتواصل في سبتة والأندلس تخرج القاضي عياض وبرع في مختلف العلوم، وجاء وقت الأستاذية والعطاء، والوقوف على ثغرة، بل ثغرات تحتاج الأمة في زمنه إلى من يقف عليها، فإذا به يتصدّر علماء وقته في مجالات الحديث والفقه والتفسير واللغة وغيرها، ويقوم بوظائف التدريس والقضاء والإفتاء والتأليف بكل جدارة، بالإضافة إلى حضوره السياسي والاجتماعي الذي جعله بحق أنموذجاً فريداً للعلماء العاملين والعبَّاد المجاهدين.



الفصل الأول

عطاءات القاضي عياض العلميّة والعمليّة

تمثل عودة القاضي عياض إلى سبتة ليلة السابع من جمادى الآخرة سنة ٥٠٨هـ بداية عهد جديد في تاريخ هذه المدينة، حيث عاد موفدها الذي تحرك لرحلته الساسة والعلماء والعامة على السواء، لما يؤملونه بعد عودته من الإفادة والإثراء، وكان عياض رحمه الله عند حسن ظن الجميع به، فما إن وصل حتى بدأ سلسلة عطاء فياض غامر، شمل كل المجالات الحيوية، ولم ينته إلا بتوقف نبضات قلبه.

أولاً: التدريس[1]:

لقد أغفلت المصادر جهود عياض في التّدريس قبل رحلته إلى الأندلس، وقد تقدم في مبحث رحلته إلى الأندلس أنه حدَّث أثناءها، أما عطاؤه الزاخر فقد تكثّف فور عودته من رحلته، حيث أجلسه أهل

---

(١) انظر: التعريف بالقاضي عياض، ص ١٠ ـ ١٢؛ الإحاطة: ٤/ ٢٢٣؛ أزهار الرياض: ٣/ ١٠؛ الإعلام بمن حلّ مراكش: ٩/ ٣٥١؛ الصلة: ٢/ ٤٢٩.

سبتة للمناظرة عليه في المدونة، وهو ابن اثنين وثلاثين عاماً ـ مع توافر شيوخه ـ مما يدل على نبوغه وسمو مكانته العلمية، حيث إن تدريس المدونة والمناظرة فيها في تلك الأيام يعد من المهام العلمية الخطيرة، التي لا يرشح لها إلا من تمكَّن من علوم الشريعة عامة، وعلوم فقه المذهب المالكي وأصوله خاصة.

وكان رحمه الله مداوماً على إسماع الحديث وتدريس الفقه وقراءة مصنفاته على الطلاب، لا يفارق ذلك حتى في أحلك الظروف التي مرت بها سبتة، ولا ينقطع عنه حتى في أيام الفتن والحروب، قال ابنه محمد[١]: «. . . إلى أن ثارت الفتنة وقام البلد. . . وهو مع ذلك يُسمع حديث رسول الله، ويدرّس الفقه»، أي إن ذلك ديدنه الذي لا ينفك عنه مهما كانت الظروف.

ولم يصرفه عن التدريس أيضاً انشغاله بوظيفة القضاء التي قُلِّدها ابتداء من سنة ٥١٥هـ، واعتبرها من أسباب شغل البدن والبال ومحنة ابتلي بها كادت تشغل عن كل فرض ونفل[٢].

ولما عُيِّن قاضياً في غرناطة سنة ٥٣١هـ رتب بها مجلساً لإسماع الحديث، وقرأ الطلبة عليه بعض مصنفاته، مثل كتاب الشفاء، وكان

---

(١) التعريف بالقاضي عياض، ص ١٢.
(٢) مقدمة إكمال المعلم، ص ٧٨؛ الشفا: ١/٦.

هذا الدرس محط رحال طلبة العلم من مختلف بلاد الأندلس، كما كان يحضره الكبراء والأعيان، وقد أفاد منه طلبة العلم بتلك الديار كثيراً، وأظهروا إعجابهم به، قال تلميذه عبد الرحمن بن أحمد الغرناطي، المعروف بابن القصير (ت٥٧٦)[1]:

«لما ورد علينا القاضي عياض غرناطة خرج الناس للقائه، وبرّزوا تبريزاً ما رأيت لأمير مؤمّر مثله، وحزرت أعيان البلد الذين خرجوا إليه ركّاباً نيّفاً على مئتي راكب، ومن سواد العامة ما لا يحصى كثرة. . . ولما استقر عندنا كان مثل التمرة: كلما ليكت زادت حلاوة، ولفظه عذب في كل ما صرّف من الكلام، للنفس إليه تتوّق وله طلاوة، وكان براً بلسانه جواداً ببنانه، كثير التخشع في صلاته، مواصلاً لصِلاته. . . ».

كما أنه حدّث بجامع قرطبة، أكبر حواضر بلاد الأندلس ومجتمع علمائها، وتتلمذ عليه بها جماعة من كبارها، وذلك من خلال حلقة الدرس التي عقدها سنة ٥٣١هـ.

وإذا أردنا أن نأخذ فكرة عن مجالات الفوائد الغزيرة التي يبذلها عياض في مجالسه العلمية فلنتأمل النص التالي الذي يصف فيه ما يثيره من فوائد علمية في مجلسه المتعلق بتدريس صحيح مسلم، حيث قال:

«. . . فإني عند اجتماع طلبة العلم لديّ في التفقه في صحيح

---

(١) أزهار الرياض: ٣/ ١٢.

الإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج رحمه الله، والوقوف على معاني أخباره، والبحث عن أغواره، والكشف عن أسراره، وإثارة الفقه ودقائق العلم من آثاره، والاقتباس للهدي وحقائق الدين من حلاه وأنواره، وتقصي ألفاظه عن حِكمه واعتباره، وبيان غامضه ومشكله، وتقييد مبهمه ومهمله، والتنبيه على ما وقع من اختلال لبعض رواته في أسانيده ومتونه، والبسط لما أشار إليه رحمه الله في مقدمته من أصول علم الأثر وفنونه، ولم يكن في ذلك كتاب مختص بهذه الأمور... فكثرت الرغبات في تعليق لما يمضي من تلك الزيادات والتنبيهات، يضم نشرها ويجمع...»[1].

وقد عرف مجلسه ـ إضافة إلى الفوائد العلمية ـ بالإيناس والإمتاع كما تقدم قريباً من كلام تلميذه ابن القصير، وفي ذلك يقوله ابنه أيضاً[2]: «كان حسن المجلس، كثير الحكاية والخبر، ممتع المحضر، عذب الكلام، مليح المنطق، نبيل النادرة، حلو الدعابة...».

بهذه المداومة على التدريس والإسماع والإقراء، وتلك المنهجية الناجحة الجامعة في عملية التعليم بين الفائدة والمتعة، قوي أثر عياض العلمي، وذاع صيته شرقاً وغرباً، وكثر الآخذون عنه والراحلون إليه.

---

(١) مقدمة إكمال المعلم، ص ٧٢.

(٢) التعريف بالقاضي عياض، ص ٥.

ثانياً: القضاء[1]:

إن أكثر الألقاب التصاقاً بعياض رحمه الله هو لقب (القاضي)، برغم تفننه في العلوم وتحليته بكثير من الألقاب الأخرى، مما يدلّ على أن وظيفة القضاء كان لها بعدٌ خاص في حياة عياض وعطائه وأثره في حياة الناس من حوله حتى التصق به لقب (القاضي).

ومما يجدر التنبيه إليه أن خطة القضاء في ذلك الزمان كانت لها منزلة كبرى، وبخاصة خطة كبير القضاة، التي تقلدها القاضي، وذلك لسعة صلاحيات القاضي حينها، وتأثيره في واقع الحياة السياسية والاجتماعية، فلا يعيَّن فيها إلا من جمع بين سعة العلم والفقه، وبين النزاهة والورع ومحاسن الأخلاق والشِّيَم، وبين الحكمة والحنكة وحسن التصرف والتدبير.

وقد تولى عياض القضاء في ثلاثة أماكن، هي: سبتة وغرناطة في عهد المرابطين، ثم في قرية داي ببادية تادلة مُغَرَّباً مُعَاقَباً في عهد المُوَحِّدين.

ففي آخر صفر سنة ٥١٥هـ ولي قضاء سبتة، فاستبشر الناس

---

(١) انظر دورة القاضي عياض: ١/ ١٤٠، ١٦٨، ١٨١، ٢/ ١٠، ٢٨، ٢٣٩، ٣/ ١٥٢؛ التعريف بالقاضي عياض، ص ١٠، ١١، ١١٢؛ المرقبة العليا، ص ١٠١.

بذلك وفرحوا له، فسار فيها بالعدل، ودعّم أركان الحق، لا تأخذه في الله لومة لائم، يقيم الحدود، وينصف المظلوم، ويأخذ على يد الظالم مهما كان جاهه ومنصبه، حازماً، جاداً في إقامة حدود الله، لا يسمح بالتهاون فيها، وكان يقدم التلطف ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فإذا لم يؤدِّ ذلك إلى إقامة الحق والعدل تقوّى، قال ابنه[1]: «كان هيناً ليناً من غير ضعف، صلباً في الحق، لا تأخذه في الله لومة لائم، وكان يأخذ أموره بالملاطفة والسياسة ما أمكنه، ويحلّ الأمور كذلك ما استطاع، وإلا تقوّى، وكان يلاطف الأمراء، فإن امتنعوا من الحق تقوى عليهم، غير هيوب لهم، مقداماً عليهم في صدهم عن الباطل، واستقضاء حوائج الرعية عندهم».

وبهذه السيرة القضائية العطرة، طار صيت عياض في مجال القضاء، وبلغت شهرته الآفاق، وتحدّثت الركبان بعدله وحزمه ونزاهته وقوته في الحق، ولطفه مع أهل الاستقامة والاستجابة لحدود الله.

ولذلك فقد أحبه العامة وأجلّه الخاصة وهابه السلطان، فلم يكن أحد يجترئ على مخالفة الشرع وتجاوز حدوده، فشاع في عهده العدل، واستتبَّ الأمن، ونشطت الحياة العلمية، وكثرت الإنجازات الاجتماعية من الأوقاف والرُّبَط ونحوها.

---

(١) في التعريف، ص ٥.

ومما ساعد على هذه الإنجازات طول مدة بقائه في قضاء سبتة، حيث امتدت إلى المحرم من عام ٥٣١هـ، أي إنه بقي في هذه الخطة أكثر من خمس عشرة سنة.

قال ابنه[١]: «... ثم ولي القضاء... فسار فيها أحسن سيرة، محمود الطريقة، مشكور الخلة، أقام جميع الحدود على ضروبها واختلاف أنواعها، وبنى الزيادة الغربية في جامع سبتة، الذي كمل بها جماله، وبنى بجبل الميناء الرابطة المشهورة، إلى غير ذلك من الآثار المحمودة، والمساعي المرضية، فعظم جاهه، وبعد صيته».

وفي صفر سنة ٥٣١هـ نقل إلى قضاء غرناطة من بلاد الأندلس، وفي ذلك اعتراف بما بلغ إليه من المكانة السامية في مجال القضاء والعلم وحسن السياسة والتدبير، فإن غرناطة آنذاك كانت زاخرة بكبار العلماء وجهابذة الفقهاء، كما أن في هذا الإجراء خرقاً للعادة المتَّبعة من إرسال القضاة من الأندلس إلى المغرب، ولا يمكن خرق العادة وتسليم الناس لها إلا لسبب قوي يقتضي ذلك، وهو كمال أهلية هذا القاضي القادم من سبتة إلى إحدى حواضر الأندلس الكبرى.

وقد تقدم معنا النقل عن ابن القصير في وصف كيفية استقبال أهل غرناطة لعياض والحفاوة التي أظهروها، وأنهم برّزوا تبريزاً لم

---

(١) في التعريف، ص ١٠.

يعرف مثله للأمراء، فلما استقرّ عندهم ازداد إكبارهم له وتقديرهم لشأنه، وقد سار فيهم سيرته المعهودة من إقامة الحق والعدل، غير هيّاب لأحد، ومن ذلك أنه أقام حد الخمر على الفتح بن خاقان مسامر الأمراء والسلاطين، قال ولده محمد[1]:

«ومن نوادر أخباره التي اضطره الشرع إليها إقامته حدّ الخمر على الفتح بن خاقان، وذلك أنـه قصد إلى مجلـس قضائـه مخمراً، فتنسم بعض شهود المجلس منه رائحة الخمر، فأعلم القاضي بذلك، فـأمر بـه، فاسـتثبت في اسـتنكاهه، وحدّه حدّاً تاماً.

وأخبرني بعض أصحابنـا قال لي: بعث أبـوك إلى الفتح بن خاقـان، بعد أن أقـام عليه الحد، صحبتي ثمانيـة دنـانير وعمامـة، وأخبرني بعض أصحابنا أنه أخبره بعض أصحاب الفتح بن خاقان أن الفتح قال له بعد إقامة الحد عليه: عزمت على إسقاط اسم أبي الفضل من كتابي الموسوم بقلائد العقيان، قال: فقلت له: لا تفعل، وهي نصيحة، فقال لي: وكيف ذلك؟ قال: فقلت له: قصتك معه من الجائز أن تنسى وأنت تريد أن تخلدها مؤرخة، فقال لي: وكيف؟ قلت له: كلّ من نظر في كتابك يجدك قد ذكرت من هو مثلـه ودونه في العلم والصيت، فيسأل عن السبب، فيقال له، فيتوارث العلم بذلك الأصاغر

---

(١) في التعريف، ص ١١٢.

عن الأكابر، قال: فتبين ذلك وعلم صحته».

وقد لاحظ القاضي عياض على أصحاب الأمير تاشفين بغرناطة انحرافاً عن الجادة، فصدّهم عن الباطل وحجزهم عن الظلم وشرّدهم عن الأعمال، وضيق عليهم وأطرهم على الحق أطراً، فنقموا عليه وكادوا له لدى السلطان، فصرفه عن قضاء غرناطة فيما ذكره ابنه، وقيل: بل عاد إلى سبتة زائراً وترك ابن أخيه نائباً عنه في خطة القضاء، فلما لم يعزم عليه في العودة آثر البقاء بسبتة. والأول أظهر، وكان ذلك في شهر رمضان سنة ٥٣٢هـ، أي إنه لم يقم بغرناطة إلا سنة وسبعة أشهر.

وفي هذه الفترة واصل عياض جهوده في التدريس ونشر العلم، وازداد تفرغه للتأليف، وهي المدة التي ألف فيها وأكمل معظم كتبه.

وفي آخر سنة ٥٣٩هـ، أي بعد حوالي سبع سنوات ولي قضاء سبتة ثانية، فابتهج بذلك أهل بلده، وسار فيهم سيرته المحمودة المعهودة.

أما آخر صلة لعياض بخطة القضاء فقد كانت بعد أن استولى الموحدون على سبتة بعد ثورتها عليهم مرات بقيادته، ولم يستطيعوا الخلاص المباشر منه تحسّباً لشعبيته الواسعة وتجنباً لآثار ذلك السلبية على حكمهم، فعينوه للقضاء مغرَّباً في قرية صغيرة من قرى بادية تادلة هي قرية داي.

ولا يخفى أن منزلة عياض العلمية وسنه كانت لا تتناسب إطلاقاً مع هذا التعيين، ولكنه ظلم الساسة حين يريدون إبعاد مخالفيهم، وهم بهذا قد خدموا غرضين، أولهما: إبعاد عياض عن موقع التأثير والتغيير بسبتة وعزله عن أنصاره، والثاني: الأثر النفسي الذي يتعرض له عياض بسبب هذا الإجراء، ولذلك فإن عياضاً قد مرض في داي، وأحس بالغربة القاتلة، وبث ذلك في شعر حزين جاء فيه[1]:

أقمرية الأدواح بالله طارحي	أخا شجن بالنوح أو بغناء
فقد أرقتني من هديلك رنة	تهيج من برحي ومن برحاء
لعلك مثلي يا حمام فإنني	غريب بداي قد بليت بداء
فكم من فلاة بين داي وسبتة	وخرق بعيد الخافقين قواء
تصفق فيها للرياح لواقح	كما ضعضعتني زفرة الصعداء
يذكرني سحّ المياه بأرضها	دموعاً أريقت يوم بنت ورائي
ويعجبني في سهلها وحزونها	خمائل أشجار ترفّ رواء
لعل الذي كان التفرق حكمه	سيجمع منا الشمل بعد تنائي

وقد تفاوتت المصادر في تحديد تاريخ تولي عياض قضاء داي، والجمع بينها يقتضي القول بأن ذلك كان حوالي سنة ٥٤١هـ، كما

---

(١) التعريف بالقاضي، ص ٩٨.

صرح به صاحب أزهار الرياض، وأنه مر بها بعد ذلك سنة ٥٤٣هـ في طريقه إلى مراكش بدعوة من أمير الموحدين، حيث أمره بملازمته إلى حين وفاته.

وقد تسلسل القضاء في هذه الأسرة الكريمة، حيث تولاه بعد عياض ثلاثة من نسله، هم:

١ ـ ولده أبو عبد الله محمد (ت٥٧٥).

٢ ـ حفيده عياض بن محمد بن عياض (ت٦٣٠).

٣ ـ ابن حفيده: محمد بن عياض بن محمد بن عياض (ت٦٥٥).

ثالثاً: الشورى والإفتاء والخطابة[1]:

هذه نماذج أخرى من عطاء عياض وخدمته لدينه وأمته، فبعد عودته من رحلته الأندلسية أُجلس للشورى، وقد أغفلت المصادر تحديد نوعية هذه الشورى، والأظهر أن المقصود بها شورى الأحكام، وقد تكون شورى السلطان لما تقدم من وجاهته لدى المرابطين وعنايتهم بأمره.

وكان رحمه الله من مقدّمي المفتين بسبتة، يقصده في ذلك الخاصة فضلاً عن العامة، وكان سريع البديهة مستحضراً للأدلة حافظاً

---

(١) دورة القاضي عياض: ١/ ١٨١؛ التعريف بالقاضي، ص ٤، ٥، ١٠.

للمسائل، بزَّ أقرانه في فتاوى النوازل، وله في ذلك كتاب، وقد عده النباهي في متقدمي أهل الفتيا، وقال ابنه: «كان عاقداً للشروط، بصيراً بالفتيا والأحكام والنوازل».

وكان قد تولى خطبة الجمعة والعيدين، ووصفت خطبه بالجودة والفصاحة والتأثير، فقد كان «خطيباً فصيحاً، حسن الإيراد، لا يخطب إلا بما يصنع، خطبته فصيحة ذات رونق، عذبة الألفاظ، سهلة المأخذ»[1].

وقد أورد ابنه نماذج لخطبه[2]، من ذلك قوله: «الحمد لله مبدي الحقائق، ومبدئ الخلائق، ومبدع السبع الطرائق، ومزينها بالكواكب الشوارق، أحمده على نعمه التوالي والسوابق، حمداً يطبق ما بين المغارب والمشارق، وأستعيذه كما أمر من كل حاسد وغاسق...».

رابعاً: التأليف[3]:

يعتبر التأليف من أهم أعمال القاضي عياض وإنجازاته في خدمة الأمة، حيث أسهم في إثراء المكتبة الإسلامية بمؤلفات قيمة في فنون

---

(١) التعريف بالقاضي، ص ٥.
(٢) في التعريف، ص ٨٤ ـ ٨٧.
(٣) وفيات الأعيان: ٣/ ٤٨٣؛ سِيَر أعلام النبلاء: ٢٠/ ٢١٤؛ البداية والنهاية: ١٢/ ٢٤١؛ منهجية فقه الحديث عند القاضي عياض، ص ١٨٤.

متعددة، أضحى كثير منها من المصادر الأساسية لطلبة العلم والمصنفين على مر العصور، وقد تناقلها أهل العلم شرقاً وغرباً، وأثنوا عليها وعلى مصنفها، ووصفوها بالجودة والإبداع:

ـ قال ابنه[1]: «كان مليح القلم من أكتب أهل زمانه».

ـ وقال ابن الأبار[2]: «له تواليف مفيدة، كتبها الناس وانتفعوا بها، وكثر استعمال كل طائفة لها».

ـ وقال الحافظ الذهبي[3]: «وجمع وألف، وسارت بتصانيفه الركبان، واشتهر اسمه في الآفاق... وتواليفه نفيسة».

ـ وقال محمد بن حمادة السبتي[4]: «لم يكن أحد بسبتة في عصر أكثر تواليف من تواليفه».

ـ وقال ابن كثير[5]: «صاحب المصنفات الكثيرة المفيدة».

وسوف أعقد فصلاً خاصاً للكلام على مصنفاته البديعة، وسأكتفي هنا بالإشارة إلى بعض الجوانب المتعلقة بصناعة التأليف عند القاضي

---

(١) التعريف، ص ٤.
(٢) المعجم، ص ٣٠٨.
(٣) سِيَر أعلام النبلاء: ٢٠/ ٢١٤.
(٤) المرجع السابق نفسه.
(٥) البداية والنهاية: ١٢/ ٢٤١.

عياض، مما يؤكد ما وصفت المصادر به كتبه من حسن التأليف وجودة التصنيف.

فمن خلال دراستي المتأنية لكامل كتاب إكمال المعلم بفوائد مسلم، وغيره من كتب عياض رحمه الله، وجدت جملة من الخصائص المنهجية التي ينبغي على كل كاتب أن يتأملها ويستفيد منها، من ذلك ما يلي:

١ ـ الحرص على الإخلاص وتحري الصواب:

الإخلاص والصواب هما شرطا قبول الأعمال، وقبول الله للعمل هو مطمح كل عامل يؤمن بالله واليوم الآخر، ومن إحسان التأليف أن يستحضر صاحبه نية التقرب به إلى الله تعالى، فيخلص فيه ويحرص على إتقان عمله، وقد وجدت ذلك متحقّقاً لدى القاضي رحمه الله، حيث ذكر ذلك في مقدمات كتبه.

٢ ـ تصدير كتبه بخطب منهجية يبين فيها سبب التأليف، وطريقته في ترتيب الكتاب.

٣ ـ ذكر أسانيده إلى المصنفات التي كثر اعتماده عليها واستفادته منها.

٤ ـ وضع يد القارئ على المواضع المختلفة لأطراف المبحث الواحد، وذلك عن طريق الإحالات، بحيث يشير إلى طرف المسألة

باختصار، ثم يحيل على مواضع البسط فيما تقدم أو فيما يأتي من الكتاب.

٥ ـ إرشاد القارئ إلى مواضع بسط بعض المباحث المهمة في مصنفاته الأخرى.

٦ ـ الأمانة العلمية، بحيث يعنى كثيراً بتوثيق نقوله، وعزو المادة العلمية إلى مصادرها.

٧ ـ الاعتراف بالفضل وإسناده إلى أهله من المصنفين والمحققين.

٨ ـ النقد والتمحيص والتحقيق وعدم التقليد، وهذه سمة بارزة في كتبه عامة، وفي (إكمال المعلم) و(الشفا) و(التنبيهات) و(النوازل) بصفة خاصة.

٩ ـ إيراد مباحثاته الشفوية مع شيوخه ومناقشاته معهم في المسائل المشكلة، مما يضفي على كتاباته حيوية خاصة.

١٠ ـ الموضوعية وتحري الحق، فهو يتعقب المخطئ بالتصويب والتصحيح، ويذكر للمحسن إحسانه وينبّه على إتقانه.

١١ ـ التوقف عند الأحاديث والمسائل المشكلة، والإجابة على الإشكالات بدقة وتحقيق وبراعة.

١٢ ـ التيقظ التام أثناء التأليف، ويظهر ذلك من خلال اكتشافه للسقط والتصحيف والاختلال والتعارض.

١٣ ـ بذل الفائدة لأدنى ملابسة، واغتنام الفرص لذكر معلومات مهمة، والتوقف عندها بالبسط لتكون أثبت في الذهن.

١٤ ـ البسط والتحرير للقضايا الخلافية، مع الاختيار والترجيح بالأدلة.

١٥ ـ البحث والتنقيب عما يشكل في بطون الكتب، ولا يتوقف إلا إذا حصل على جواب مقنع.

١٦ ـ استشعاره أن التأليف مسؤولية وأمانة ينبغي أداؤها شرعاً على الوجه الأكمل.

١٧ ـ عدم التعصب المذهبي، وحسن الأدب مع المخالفين.

١٨ ـ طول النفَس والصبر والمداومة على إتقان مباحثه في كتبه بالأسلوب نفسه، وبالمستوى نفسه من الإتقان، وإن طال الكتاب.

خامساً: الإصلاح السياسي[1]:

عاصر عياض (رحمه الله) حكم سلطتين سياسيتين، هما دولة المرابطين، ودولة الموحدين ـ كما تقدم في التمهيد ـ وقد كان للأولى

---

(١) انظر منهجية فقه الحديث عند القاضي عياض، ص ١٣٣؛ دورة القاضي عياض: ١/ ٤٠، ١٦٨، ١٨١، ٢/ ١٠، ٢٨، ٢٣٩، ٣/ ١٥٢؛ تاريخ ابن خلدون: ٦/ ٢٣٠؛ الاستقصا: ٣/ ١١١.

موالياً مطيعاً لوقوفها عند حدود الله تعالى من حيث الجملة، وكان للثانية معارضاً مجاهداً لمخالفاتها العقائدية والتشريعية.

وقد قام عياض في ظل السلطتين بواجب الإصلاح السياسي الذي يمليه عليه دينه بحكم علمه ووجاهته ومنصبه.

ولذلك فإن تأييده لدولة المرابطين لم يكن على إطلاقه بحيث تدخله المصانعة والمداهنة، وإنما كان مرتبطاً بمدى التزام حكامها لجانب الحق والعدل، وتنفيذهم وانصياعهم لأحكام الشرع، ولذلك نجد عياضاً يأمر هؤلاء الساسة وينهاهم، ويتوقف بلا تردد عن تنفيذ ما فيه مخالفة للشرع، مع بيان الحق فيه[١]، من ذلك ما فعله القاضي (رحمه الله) أيام قضائه بغرناطة من التضييق على عمال تاشفين بن علي، وصدهم عن الباطل وإيقافهم عن الظلم، بل وتشريدهم عن الأعمال أيضاً[٢].

أما دولة الموحدين فقد كان رفض عياض ومناهضته لها لأسباب عقيدية، حيث رفض الدخول في طاعتهم ابتداء، وكان يومئذ يترأس سبتة علماً وديناً ووجاهة ومنصباً.

ففي سنة ٥٣٤هـ وصلت جيوش الموحدين مدينة (سبتة)

---

(١) انظر الاستقصا: ٢/ ٥٧.

(٢) أزهار الرياض: ٣/ ١٠.

لاحتلالها، بقيادة رئيسهم عبد المؤمن بن علي (ت٥٥٨هـ) خليفة ابن تومرت، فتولى القاضي عياض قيادة أهل سبتة، وصدّ الموحدين عنها.

قال ابن خلدون[1]: «واستمر عبد المؤمن على حاله فنازل سبتة وامتنعت عليه، وتولى كبر دفاعه عنها القاضي عياض الشهير الذكر، كان رئيسها يومئذ بدينه وأبوته ومنصبه، ولذلك سخطته الدولة آخر الأيام حتى مات مغرباً عن سبتة».

ولما استولى الموحدون على مختلف مدن المغرب، واستتب لهم الأمر اضطر أهل سبتة لمبايعتهم، ودخلوا على مضض في طاعتهم، وعلى رأسهم عياض الذي لم يجد بداً من ذلك حقناً للدماء، بعد سيطرة الموحدين على البلاد، فإن الاستمرار في التمرد حينئذ يعني القضاء المحقق على أهل سبتة.

وبعد فترة وجيزة وجد أهل المغرب فرصة للانتقاض، فرجعوا عن البيعة التي قُهروا عليها، وثاروا على ولاة الموحدين، وكان في مقدمة هؤلاء أهل سبتة بقيادة القاضي عياض أيضاً، وذلك سنة ٥٤٢هـ، فقتلوا عامل الموحدين، وعمَّت الفوضى، وأفلت الزمام من يد القاضي (رحمه الله) فوصل الأمر إلى إحراق رجال الموحدين بالنار.

---

(١) تاريخ ابن خلدون: ٦/ ٢٣٠.

وبدأ عبد المؤمن حملته الانتقامية من المنتقضين عليه في مختلف بلاد المغرب، وبالغ في القتل والإيذاء والتشفي، فرأى أهل سبتة أن من الحكمة إرسال وفد ببيعتهم قبل وصول الشر إليهم، فترأس القاضي وفد بلده، وتحمل هذا الحرج من أجل حقن دماء أهل بلده أيضاً.

وتلطف في القول مع عبد المؤمن، فعفا هذا الأخير عن أهل سبتة، غير أنه اتخذ بعض الإجراءات الصارمة لمنع تكرر ثورتهم، من ذلك أمره بهدم سور سبتة، ومنع عياض من العودة إليها، وفرض عليه ملازمته حتى لا يقود أهل بلده ضد الموحدين مرة أخرى، ثم نفاه في قرية نائية ليتولى قضاءها، وانتهى الأمر بقتله على ما جاء في بعض المصادر، كما سيأتي في مبحث وفاته إن شاء الله تعالى.

أمّا ما ذكره ولده من أنه «بادر بالمسابقة إلى الدخول في نظام الموحدين والاعتصام بحبلهم المتين»[1] فلا يتفق مع ما أجمعت عليه بقية المصادر مما ذكرته آنفاً من تزعُّم عياض قيادة ثورات السبتيين ضد الموحدين، وسبب ما ذكر محمد بن عياض واضح، فإن الابن كتب هذا الكتاب في عهد الموحدين، وقد خشي بطشهم، فلم يكن بوسعه أن يصرح في هذه المسألة بحقيقة الحال، وبخاصة وأنَّ ما حصل

---

(١) في التعريف، ص ١٣.

لوالده لا يزال ماثلاً بين عينيه، بل لعله كان من أهداف دولة الموحدين لمواقف والده، خشية أن يقوم بتكرارها.

وقد علق صاحب الاستقصاء[1] على مواقف القاضي عياض من دولة الموحدين، وخرّجها تخريجاً حسناً، وبيّن موافقتها للحكم الشرعي حيث قال: «واعلم أنّ ما صدر من القاضي عياض (رحمه الله) في جانب الموحدين دليل على أنه كان يرى أن لا حق لهم في الأمر والإمامة، وإنما هم متغلبون، وهذا أمر لا خفاء به كما هو واضح، ولما كانت شوكة عبد المؤمن لا تزال ضعيفة، وتاشفين بن علي أمير الوقت لا زال قائم البيع امتنع القاضي عياض (رحمه الله) من مبايعة عبد المؤمن، ودافعه عن سبتة، إذ لا موجب لذلك، لأن بيعة تاشفين في أعناقهم، وهو لا زال حياً، فلا يعدل عن بيعته إلى غيره بلا موجب.

وأما ما غالط بـه (المهدي) من أن المرابطين مجسِّمة، وأن جهادهم أوجب من جهاد الكفار فضلاً عن أن تكون طاعتهم واجبة ـ فسفسطة منه.

ولما قتل تاشفين، وفُتحت تلمسان وفاس، وقويت شوكة عبد المؤمن، بايعه القاضي حينئذ؛ لأن من قويت شوكته وجبت طاعته.

---

(١) ٢/ ١١١، ١١٢.

ثم لما ضعف أمره ثانياً بسبب قيام بعض الثوار عليه رجع القاضي بأهل سبتة عن بيعته، ولم يأخذ بدعوة هذا الثائر لأنه ثائر أيضاً، هذا مع ما كان ينقل عن (المهدي) من أنه غلبت عليه نزعة خارجية، وأنه يقول بعصمة الإمام، وذلك بدعة كما لا يخفى، فتكون إمامته وإمامة أتباعه مقدوحاً فيها من هذه الحيثية، لكن حيث حصل التغلب والاستيلاء وجبت الطاعة.

فالحاصل أن ما فعله القاضي عياض أولاً وثانياً وثالثاً كله صواب موافق للحكم الشرعي.

فهكذا ينبغي أن تفهم أحوال أئمة الدين وأعلام المسلمين.

وأما القتل والتحريق الذي صدر من أهل سبتة، فالظن بالقاضي (رحمه الله) أنه لا يوافق على ذلك ولا يرضاه، لكن العامة تتسرع إلى مجاوزة الحد، لا سيما أيام الفتن، وذلك معروف من حالهم».

رحم الله هذا العالم المجاهد الذي ترجم علمه إلى عمل، ولم يؤثر الدعة والسلامة حين تطلّب الأمر الجهاد في سبيل الله.

سادساً: الإصلاح الاجتماعي[1]:

إن الإصلاح الاجتماعي مسؤولية وأمانة مناطة بعنق كل مسلم،

---

(١) انظر دورة القاضي عياض: ١/ ١٨٢، ٢/ ٢٣، ٢٣١.

ولكنها تتأكد في حق العلماء والأمراء.

وقد قام قاضينا (رحمه الله) بهذه الأمانة خير قيام، حيث ترجم علمه إلى عمل ظهرت ثماره يانعة في بـره بالفقراء وحبه للمسـاكين والسؤال عن أحوالهم وكثرة الصدقة عليهم، بالإضافة إلى سعيه في كل ما فيه الصالح العام وحقوق الرعية، وقيامه بجملة من الإنجازات التي ظلت آثارها بسبتة لعدة قرون.

من أجل ذلك حظي (رحمه الله) بمنزلة سامية من التقدير والاحترام لدى العامة والخاصة، ونال لديهم الذكر الحسن، وحاز الرئاسة الحقيقية لمدينة سبتة بعلمه وديانته وحسن أخلاقه وتواضعه وطيب معشره وسعيه في قضاء حوائج الناس وبره بهم.

ولا شك أن مكانة عياض الاجتماعية قد توطدت بمكانة أسرته العالية في سبتة، والتي حصلت عليها أيضاً بسبب خيريّة جده (عمرون) الذي بنى مسجداً ومقبرة ودوراً أوقفها على طلبة العلم والمحتاجين، ثم جاء الحفيد النبيه وأكمل تلك الأعمال الخيرية، وبنى مزيداً من الدعائم لمكانته الاجتماعية.

ولو تتبعنا سيرة هذا العلم الفذّ لوجدنا مظاهر الإصلاح وخدمة المجتمع بارزة في كل مجال من مجالات عمله واهتمامه.

ففي مجال العلم نجده «منصفـاً لأهل العلم، محبباً في طلبـة

العلم، محرضاً لهم على طلبه، مسهّلاً لهم الطرائق»[1]، فالقاضي (رحمه الله) يكرس لأهل مجتمعه مبدأ الإنصاف لأهل العلم، والاعتراف بفضلهم وحقوقهم، وتلك مزية لو شاعت في مجتمع لناله خير كثير بتقديم العُلماء وإشاعة ما يحملونه من العلم الذي تظهر ثماره يانعة على مستوى الأفراد والأسر والدول.

كما أن بره بطلبة العلم وحبه لهم ومساعدته لهم على طلبه يعد مزية من أعظم المزايا التي ينبغي توافرها في العالم الصالح المصلح، لأنه لا يكتفي بتحريض أبناء مجتمعه على طلب العلم بل يذلل أمامهم الصعوبات العملية، ويساعدهم ببذل الأسباب المادية والمعنوية.

وفي مجال القضاء نجد عياضاً «صلباً في الحق، لا تأخذه في الله لومة لائم، وكان يأخذ أموره بالملاطفة والسياسة ما أمكنه، ويحل الأمور كذلك ما استطاع وإلا تقوّى، وكان يلاطف الأمراء، فإن امتنعوا من الحق تقوى عليهم، غير هيوب لهم، مقداماً عليهم في صدهم عن الباطل، واستقصاء حوائج الرعية عندهم»[2].

إن القضاء بهذه المواصفات من أعظم أسباب صلاح المجتمع، فهو يحكم بالعدل، ويمنع الظلم من أن يستشري في المجتمع فيفتك به، ويوقف أهل الحكم عن تجاوز الحد في تعاملهم مع الرعية، مقدماً

---

(١) التعريف بالقاضي، ص ٥.

(٢) المرجع السابق نفسه.

الملاطفة تأليفاً وترغيباً في الحق فإن امتنعوا من الانصياع للحق، بهذه الطريقـة انتقل إلى الشـدّة والحزم لصدهم عن البـاطل، وأخذ منهم حقوق الرعيـة وألزمهم بقضـاء حوائجهم، لا يهـاب في ذلـك أحداً ولا يخشى لائمة، فيتقوى عنده الضعيف ما دام الحق معه، ويضعف أمامه القوي ما دام الحق خلافه.

وفي مجال العلاقات الاجتماعية نجد عياضاً «لين الجانب صبوراً حليماً موطأ الأكناف، جميل العشرة، حسن الأخلاق، بسّاماً، يكره الإطراء والإفراط في التصنع منه وله، ولا يستسهل التكليف للناس... مبادراً لقضاء الحوائج، صغير النفس غير متكبر، جواداً سمحاً، من أكرم أهل زمانـه، كثير الصدقـة والمواسـاة... محببـاً في قلـوب العامـة والخاصة»[1].

بهذه الخلال جمع عياض مواصفات العالم الذي يحب مجتمعه ويسعى في خيره وإصلاحه، حيث تحلَّى بخلال الحِلْم والتواضع وخفض الجناح والرحمة بالناس ومواساتهم بلفظه العذب وماله الكثير، مشِيعاً بينهم معاني التراحم والتوادّ والتكافل قولاً وعملاً، فكانت النتيجة أن أحبه الجميع، ولا شك أن كثيراً منهم قد تطبعوا بتلك الأخلاق الكريمة والشيم النبيلة.

---

(١) التعريف بالقاضي، ص ٥.

ومن إنجازات عياض في مجال خدمة المجتمع وإصلاحه أنه «بنى الزيادة الغربية في جامع سبتة التي كمل بها جماله، وبنى بجبل الميناء الرابطة المشهورة، إلى غير ذلك من الآثار الحميدة. . .»، فهو مهتم بمواضع العبادة ومواضع الجهاد، ولا شك أنه لمس الحاجة إلى هذين الأمرين، فبادر إلى بنائهما قربة إلى الله وخدمة لدينه ومجتمعه.

وقد تقدم معنا في مجال الإصلاح السياسي أن عياضاً قاد الجهاد ضد الموحدين ليجنب مجتمعه المسلم في سبتة الانحرافات العقيدية والسلوكية التي اتصف بها أولئك الغزاة، وأنه اضطر للدخول في طاعتهم بعد ذلك عندما تغلبوا وقويت شوكتهم؛ حقناً لدماء أهل سبتة، وجميع ذلك من أهم مظاهر حرص عياض على صلاح مجتمعه واستقامة أمره، رحمه الله رحمة واسعة، ورزق الأمة بأمثاله.

هذا وغيره من عطاءات عياض العلمية والعملية جعل منها رمزاً للمغرب كله، حتى قيل: «لولا عياض ما عُرف المغرب»، ورفع مقامه إلى درجة كبار العلماء المشهورين على مستوى الأمة قاطبة، فقد قال العلامة محمد الأمين الصحراوي نزيل مراكش[1]: «مقام القاضي عياض مثل مقام البخاري ومسلم والأئمة الأربعة، فهم حملة الشريعة، وعلومهم التي يبثونها في صدور الرجال بالتلقين أو التأليف هي

---

(١) نقله عنه صاحب فهرس الفهارس: ٢/ ١٨٨.

أورادهم والوسيلة التي بينهم وبين الله، وذلك أجلُّ الأوراد، وأجدرها نفعاً، وأبقى ثواباً، وأئمة العلم المذكورون لا زالوا بعلومهم كأنهم أحياء، وكل من استفاد مسألة علمية من كتبهم فهم من أشياخه إلى يوم القيامة.

وانظر إلى عياض فلا ترى تأليفاً معتبراً من تواليف أهل الحديث ولا أصحاب السير والفقهاء إلا وجدته مشحوناً بكلامه مع أنه لم يرحل إلى المشرق».

ونظراً لهذه الفضائل والشيم التصقت بعياض كنية (أبي الفضل) دون سواها رغم أنه لم يكن له ولد بذلك الاسم، وإنما كنّي بذلك نسبة لكثرة فضائله.

* * *

الفصل الثاني

العلوم التي برع فيها القاضي عياض

يعتبر القاضي عياض من الموسوعات المعرفية على مستوى تاريخ هذه الأمة، فقد كان بحق إماماً في كل فن، شهد له بذلك كبار العلماء، ونطقت به مصنفاته المتميزة، وما طفحت به المصادر من النقول الكثيرة عن كتبه.

وإن قارئ كتب عياض ليعجب من قوّة عارضته، وعلو كعبه في العلم، وسعة معارفه، ودقة تخريجاته وضبطه وتعليقاته واستدراكاته ونقده، فهو يتكلم في كل علم من العلوم كلام كبار أئمته، حتى كأنه متخصص فيه وحده، فلا عجب أن تشيع لدى المغاربة مقولة ضاربة القدم في التاريخ، تناقلتها الأجيال، جعلت من عياض الفرد علَماً على بلاد المغرب بأكملها وسبباً في شيوع ذكرها، ذلكم قولهم: «لولا عياض ما ذكر المغرب»[1].

---

(١) انظر: دورة القاضي عياض: ٢/ ١٣٣؛ مقدمة ترتيب المدارك: ١/ أ.

وقد نص المترجمون لعياض على موسوعيته المعرفية، من ذلك قول الحافظ ابن كثير[1]: «كان إماماً في علوم كثيرة، كالفقه واللغة والحديث والأدب وأيام الناس».

وقال ابن فرحون[2]: «كان القاضي أبو الفضل إمام وقته في الحديث وعلومه، عالماً بالتفسير وجميع علومه، فقيهاً، أصولياً، عالماً بالنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم، بصيراً بالأحكام، عاقداً للشروط، حافظاً لمذهب مالك، شاعراً مجيداً، ريّاناً من الأدب».

وقال ابنه[3]: «كان من حفَّاظ كتاب الله تعالى والقيام على معانيه وإعرابه وشواهده وأحكامه وجميع أنواع علومه، وكان من أئمة وقته في الحديث وفقهه وغريبه ومشكله ومختلفه، ومن صحيحه وسقيمه وعلله، وحفظ رجاله ومتونه، وجميع أنواع علومه، أصولياً متكلماً، فقيهاً حافظاً لمسائل المختصر والمدونة قائماً عليها، نحوياً، شاعراً مجيداً، حافظاً للغة والأغربة والشعر والمثل وأخبار الناس ومذاهب الأمم، عارفاً بأخبار الملوك وتنقل الدول، وأيام العرب وسيرها وحروبها ومقاتل فرسانها، ذاكراً لأخبار الصالحين وسيرهم وأخبار

---

(١) البداية والنهاية: ١٢/ ٢٢٥.

(٢) الديباج، ص ١٦٨.

(٣) في التعريف، ص ٥، (بتصرف يسير).

الصوفية ومذاهبهم، مشاركاً في جميع العلوم».

وسوف أذكر فيما يلي أهم العلوم التي برع فيها القاضي رحمه الله، مع التحرير والاختصار الذي يفي بالغرض إن شاء الله:

أولاً ـ العقيدة[1]:

كان عياض (رحمه الله) إماماً في أصول الدين والعلوم المتعلقة بها، متكلماً بارعاً، قويّ الحجة، واضح البرهان، ولكنه يكره الكلام والخوض في الجدل في العقائد لغير حاجة، وقد تلقى هذا العلم على كبار علماء عصره، ودرس فيه أهم مصادره، كما تقدم في مبحث شيوخه، وفي أول مبحث مصادره.

كما أنه ألف في ذلك، كما سيأتي في مبحث مؤلفاته، وزخرت مصنفاته بمباحث محررة تتعلق بهذا الباب، وتدل على إمامة القاضي فيه، وبخاصة في كتابيه (الشفاء) و(إكمال المعلم بفوائد صحيح مسلم)، فقد عني عياض رحمه الله عناية كبرى بإثارة الفوائد المتعلقة بمسائل الاعتقاد مع البسط والتحرير والتوسع والتحقيق، فهو يستفيد من كل مناسبة لعرض تلك المسائل، ومنهجه في ذلك دال على سعة اطلاعه في علوم العقيدة ومتعلقاتها، وهو على النحو التالي:

---

(١) انظر منهجية فقه الحديث عند القاضي عياض، ص ١٤٧، ٢٤٨.

١ ـ تقرير عقيدة أهل السنة والجماعة:

يقوم القاضي أولاً بتقرير عقيدة أهل السنة والجماعة وبسط مذاهبهم، والاستدلال لها من الكتاب والسنة ولسان العرب وأقوال السلف من الصحابة والتابعين فمن بعدهم، مع عناية خاصة بنقل أقوال المحققين من متكلمي الأشاعرة، مثل أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني، وأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني، كما نقل في بضعة مواضع عن الإمام أبي الحسن الأشعري، ولم يكثر من استخدام مصطلح الأشاعرة، ويستعمل بدل ذلك مصطلح أهل السنة.

وقد يورد أحياناً الخلافات داخل مذهب أهل السنة في المسائل الاعتقادية، مع الترجيح غالباً، والتوقف أحياناً.

٢ ـ الرد على مقالات الفرق المبتدعة:

تضمنت مصنفات عياض رحمه الله جملة وافرة من المباحث المتعلقة بعقائد أهل البدع والرد عليهم، وهو في الغالب لا يذكر ذلك ابتداء، وإنما يسوقه تبعاً لما يقرره من عقيدة أهل السنة، وهو يستفيد من كل مناسبة للرد على أهل الأهواء، وقد يضيف إلى ذلك فوائد أخرى عنهم؛ كالتعريف ووجه التسمية والمصادر التي تتضمن الكلام على معتقداتهم، ونحو ذلك.

وتعتبر كتب عياض رافداً مهماً لكتب مقالات الفرق والملل

والنحل، ويمكن أن نستخرج منها معلومات نادرة في هذا المجال، لنقله عن جملة من المصادر المفقودة، مثل مقالات زرقان.

وقد تناولت ردود القاضي مقالات معظم الفرق الكبرى المعروفة، غير أنه قد ركز بصفة خاصة على نقض مقالات المعتزلة في تحكيمهم العقل على الشرع، كما رد على الخوارج والشيعة والكرّامية والسالمية والمجسمة والجهمية والمتصوفة.

٣ ـ الرد على أهل الملل الأخرى:

عُني عياض رحمه الله في مصنفاته بنقض معتقدات اليهود والنصارى والمجوس، من ذلك نقضه لتجسيم اليهود، وقول النصارى بالحلول وإضافة الصاحبة والولد، وشرك المجوس والثنوية. تعالى الله عما يقول الكافرون علواً كبيراً.

٤ ـ الرد على الفلاسفة:

قام عياض بنقض بعض مقولات الفلاسفة في المناسبات التي تقتضي ذلك، مثل الرد على قولهم بأن الموت والحياة وسائر الأشياء لها شروط وأسباب لا يكونون إلا معها، وإنكارهم أن ذلك من فعل الله تعالى وخلقه محضاً.

ومن نماذج كلامه في العقيدة ما ذكره عند شرحه للأحاديث

الدالة على تحريم أهل التوحيد على النار، حيث قال[1]: «وهذه الأحاديث كلها قد سردها مسلم في كتابه، فحكي عن جماعة من السلف منهم ابن المسيب والزهري، أن هذا كان قبل أن تُنَزّل الفرائض والأمر والنهي.

وذهب بعضهم إلى أنها مجملة تحتاج إلى شرح، ومعناه: من قال الكلمة فأدى حقها وفريضتها، وهو قول الحسن البصري.

وذهب بعضهم إلى أن ذلك لمن قالها عند التوبة والندم ومات على ذلك، وهو قول البخاري.

وهذه التأويلات كلها إذا حُملت الأحاديث على ظاهرها، وأمّا إذا نُزّلت تنزيلها لم يشكل تأويلها على ما بينه المحققون:

فنقرّر أولاً أن مذهب أهل السنة بأجمعهم من السلف الصالح، وأهل الحديث، والفقهاء، والمتكلمين على مذهبهم من الأشعريين أنّ أهل الذنوب في مشيئة الله تعالى، وأنّ كل من مات على الإيمان ويشهد مخلصاً من قلبه بالشهادتين فإنه يدخل الجنة.

فإن كان تائباً أو سليماً من المعاصي والتّباعات دخل الجنة برحمة ربه تعالى، وحرم على النار بالجملة، فإن حملنا اللفظين الواردين على هذا فيمن هذه صفته كان بيّناً، وهو التفات الحسن والبخاري في تأويلهما.

---

(١) كتاب الإيمان من (إكمال المعلم): ١/ ١٢٢.

وإن كـان من المخلِّطين بتضييع ما أوجب الله عليـه، أو فعل ما حرم عليه فهو في المشيئة، لا يقطع في أَمْرِه بتحريمه على النار ولا باستحقاقه لأول حاله الجنة، بل يقطع أنه لا بد له من دخول الجنة آخراً، ولكنْ حاله قبلُ في خطر المشيئة وبرزخ الرجاء والخوف، إن شاء ربّه عذّبه بذنبه أو غفر له بفضله، وإلى هذا التفت من قُدّم قوله من السلف.

لكن قد يصح اسـتقلال ألفاظ هذه الأحاديث بأنفسـها على هذا التنزيل، فيكون المراد باستحقاق الجنة ما قدّمناه من إجماع أهل السنة من أنه لا بدّ من دخول كل موحد لها، إما معجّلاً معافى، أو مؤخراً بعد عقابه.

والمراد بتحريم النار تحريم الخلود، خلافاً للخوارج والمعتزلة في الوجهين».

ثانياً ـ التفسير وعلوم القرآن[1]:

إن قارئ (إكمال المعلم) و(الشفاء) للقاضي عياض لا يتردد في الجزم بأنه من أئمة هذا الشأن، فقد حفظ القرآن الكريم صغيراً، وختمه

---

(١) راجع: الغنية، ص ٦١، ٩١، ١١٧، ١٣٢؛ الشفا: ١/ ١٣، ٤٨، ٥٢، ٥٣؛ كتاب الإيمان من (إكمال المعلم): ١/ ٩١٣ ـ ٩٣٠؛ منهجية فقه الحديث، ص ١٤٥، ٢٥٦؛ دورة القاضي عياض: ١/ ٣٧٥، ٢/ ١٤٧.

عدة مرات بالقراءات المشهورة على أيدي كبار المقرئين في سبتة والأندلس، وتحمل عن مشايخه جملة كبيرة من كتب التفسير والقراءات وسائر علوم القرآن ومعانيه وغريبه، كما نجده يبدع في تفسير الآيات معتمداً طريقة التفسير بالمأثور، جامعاً قدراً كبيراً من أقوال السلف في التفسير، ذاكراً سبب نزول الآية عند الحاجة، حريصاً على تفسير القرآن بالقرآن نفسه وبالسنة ما أمكن ذلك.

وقد ضمَّن المؤلفون في طبقات المفسرين ترجمة عياض في كتبهم[1]، وعدوه من أئمة هذا الفن، كما نوّهت مصادر ترجمته بتقدمه في التفسير وعلوم القرآن، فقد وصفه ابنه بأنه «من حفاظ كتاب الله تعالى، والقيام عليه، لا يترك التلاوة له على كل حال، مع القراءة المستعذبة، والصوت الجهير، والحظ الوافر من تفسيره، والقيام على معانيه، وإعرابه، وشواهده، وأحكامه، وجميع أنواع علومه»[2].

وقال ابن فرحون[3]: «كان عالماً بالتفسير وجميع علومه».

وقد عني عياض رحمه الله بإيراد الآيات القرآنية الكريمة شرحاً واستدلالاً واحتجاجاً على الخصوم، ويكفي للدلالة على ذلك أن أذكر

---

(١) طبقات المفسّرين: ٢/ ٢١.
(٢) التعريف بالقاضي، ص ٤.
(٣) الديباج، ص ١٦٨.

أن كتابه الشفاء قد اشتمل على أكثر من خمسمئة وخمسين آية، كما اشتملت المقدمة وكتاب الإيمان من إكمال المعلم على تسع وثلاثمئة آية، موزعة على اثنتين وسبعين سورة، وأعتقد أنه لو انبرى بعض المتخصصين في التفسير لجمع ما فسره عياض من الآيات لأخرج لنا تفسيراً متميزاً يكون إضافة حقيقية لمصادر التفسير بالمأثور.

ويعتمد عياض (رحمه الله) في شرح الآيات على تفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالسنة، وتفسير القرآن بالمأثور عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم من علماء السلف، وتفسير القرآن بلغة العرب، مستفيداً من النحو والإعراب وأساليب البلاغة في إثراء المعاني وإثارة الفوائد، بالإضافة إلى ذكر اختلافات القُرّاء، مع توجيه كل قراءة من القراءات المتواترة.

وقد وجدت أنه أحياناً يتوسع في تفسير بعض الآيات بما لم أجده مجتمعاً لدى غيره من المفسرين القدامى والمحدَثين ممن اطلعت على مصنفاتهم.

كما استفاد (رحمه الله) من مناسبات مباحثه ليضمِّن كتبه جملة وافرة من مسائل علوم القرآن، وبسطها وتقريرها بكل دقة وتحرير، كالكلام على أول ما نزل، والمكي والمدني، والأحرف السبعة، وترتيب السور، وإعجاز القرآن، والناسخ والمنسوخ، وغير ذلك.

وقد دل مسلكه في البابين على إمامته في التفسير وعلوم القرآن، ويعتبر (إكمال المعلم) و(الشفاء) من المصادر الأساسية في هذا المجال.

ومن نماذج تفسيره في (إكمال المعلم) قوله عند تفسير قول الله تعالى: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ۝٨١ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٧٥ ـ ٨٢]: «وقد اختلف المفسرون في معنى الآية، ومعنى النجوم فيها، ومعنى الرزق، فذهب الحسن ومجاهد وقتادة أن النجوم فيها: نجوم السماء، ومواقعها: إما مغاربها وإما مطالعها، أو انكدارها وانتثارها يوم القيامة على اختلاف تأويلاتهم في ذلك.

وقيل مواقع النجوم في ذلك: منازل القرآن، أُنزل نجوماً، وعن مجاهد: مواقع النجوم محكم القرآن.

وعن ابن عباس (رضي الله عنهما): «وتجعلون رزقكم...» الآية، أي شكركم، فيقولون: مطرنا بنوء كذا ونجم كذا.

قال قطرب: الرّزق هنا الشكر، وقيل: تجعلون شكر رزقكم

وتحقيقه وتجعلون عوض شكر رزق ربكم ونعمه قولكم هذا، وإضافة رحمته لكم لغيره.

وعن الهيثم بن عدي في لغة أزد شنوءة: ما رزق فلان فلاناً، أي: ما شكره»[1].

ومن نماذج تفسيره في كتاب (الشفاء)، قوله عند تفسير سورة الضحى: «اختلف في سبب نزول هذه السورة، فقيل: كان ترك النبي ﷺ قيام الليل لعذر نزل به، فتكلمت امرأة في ذلك بكلام.

وقيل: بل تكلم به المشركون عند فترة الوحي، فنزلت السورة.

قال الفقيه القاضي: تضمنت هذه السورة من كرامة الله تعالى وتنويهه به، وتعظيمه إياه ستة وجوه:

الأول: القسم له عما أخبره به من حاله بقوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾، أي ورب الضحى، وهذا من أعظم درجات المبرَّة.

الثاني: بيان مكانته عنده وحظوته لديه بقوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾، أي ما تركك وما أبغضك، وقيل: ما أهملك بعد أن اصطفاك.

---

(١) كتاب الإيمان من (إكمال المعلم): ١/ ٣٧٤.

الثالث: قوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾، قال ابن إسحاق: أي ما لك في مرجعك عند الله أعظم مما أعطاك من كرامة الدنيا.

وقال سهل: أي ما ادخرتُ لك من الشفاعة والمقام المحمود خير لك مما أعطيتك في الدنيا.

الرابع: قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾، وهذه آية جامعة لوجوه الكرامة، وأنواع السعادة، وشتات الإنعام في الدارين والزيادة.

قال ابن إسحاق: يرضيه بالفَلْج في الدنيا والثواب في الآخرة.

وقيل: يعطيه الحوض والشفاعة.

وروي عن بعض آل النبي ﷺ أنه قال: ليس في القرآن أرجى منها، ولا يرضى رسول الله ﷺ أن يدخل أحد من أمته النار.

الخامس: ما عدّ تعالى عليه من نعمه وقرّره من آلائه قِبَله في بقية السورة من هدايته إلى ما هداه له، أو هداية الناس به ـ على اختلاف التفاسير ـ ولا مال له فأغناه بما آتاه، أو بما جعله في قلبه من القناعة والغنى، ويتيماً فحدب عليه عمه وآواه إليه، وقيل: آواه إلى الله، وقيل: «يتيماً» لا مثال لك فآواك إليه.

وقيل: المعنى ألم يجدك فهدى بك ضالاً، وأغنى بك عائلاً وآوى بك يتيماً؛ ذكّره بهذه المنن، وأنه على المعلوم من التفاسير لم يهمله في حال صغره وعَيْلته ويتمه، وقبل معرفته به، ولا ودّعه ولا قلاه، فكيف بعد اختصاصه واصطفائه.

السادس: أمره بإظهار نعمته عليه، وشكر ما شرفه بنشره، وإشادة ذكره بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، فإنّ من شُكْرِ النعمةِ التَّحَدُّث بها، وهذا خاص له، عام لأمته»[1].

ثالثاً ـ السنة وعلومها[2]:

إن التخصص الأول لعياض ـ مع إمامته في علوم الشريعة بأنواعها ـ هو الحديث وعلومه، يظهر ذلك من خلال أمور منها:

١ ـ تتلمذه على كبار محدثي عصره، واستجازة من لم يلقه منهم، كما تقدم في مبحث شيوخه.

٢ ـ الارتحال في طلب الحديث، حيث كان الشيوخ الذين انتقاهم في رحلته وتتبعهم في مدنهم هم حفَّاظ الأندلس في وقته.

---

(١) الشفاء: ١/ ٩٥.
(٢) انظر: منهجية فقه الحديث، ص ١٤٨، ١٩٠، ٢٢٥؛ دورة القاضي عياض: ١/ ١١٧، ١٣١، ٢٠٣.

٣ ـ تحمله لعدد وافر من مصنفات الحديث وعلومه، كما تقدم في مصادره.

٤ ـ تصنيفه في الحديث رواية ودراية، ويكفي تصديه لشرح صحيح مسلم دليلاً على إمامته في الحديث، بالإضافة إلى الإلماع وغيره كما سيأتي في مبحث مؤلفاته.

٥ ـ اهتمامه بالسنة رواية ودراية ومنهجاً، ومعرفته بالحديث ورجاله وعلله.

٦ ـ ما طفحت به مصادر ترجمته من التنويه بإمامته في هذا الباب، من ذلك:

ـ قال ابنه[1]: «كان من أئمة وقته في الحديث وفقهه وغريبه ومشكله ومختلفه وصحيحه وسقيمه وعلله، وحفظ رجاله ومتونه وجميع أنواع علومه».

ـ وقال تلميذه ابن بشكوال[2]: «عني بلقاء الشيوخ والأخذ عنهم، وجمع الحديث كثيراً، وله عناية كبيرة به، واهتمام بجمعه وتقييده، وهو من أهل التفنن في العلم والذكاء واليقظة».

---

(١) في التعريف، ص ٤.
(٢) في الصلة: ٢/ ٤٢٩.

ـ وقال ابن الأبار[1]: «أبو الفضل القاضي المحدث الحافل... كان لا يُدرك شأوه ولا يبلغ مداه في العناية بصناعة الحديث وتقييد الآثار وخدمة العلم، مع حسن التفنن فيه، والتصرف الكامل في فهم معانيه».

ـ وقال السيوطي[2]: «وكان إمام أهل الحديث في وقته، وأعلم الناس بعلومه».

ـ وقال الأتابكي[3]: «كان إماماً حافظاً محدثاً فقيهاً متبحراً».

وعند النظر في كتب القاضي عياض (رحمه الله) وبخاصة (إكمال المعلم) و(الإلماع) و(بغية الرائد) و(مشارق الأنوار) فإننا نجد الترجمة العملية لما وصفه به هؤلاء العلماء من الإبداع في هذا الباب، فقد احتوت هذه المصنفات على بسط دقيق وتناول متميز لعلوم الحديث رواية ودراية لم يُسْبَق إلى جمعه وتحريره، ويُعدّ بحق واسطة العقد وحلقة الوصل بين الحافظَين عَلَمَيْ هذا الفن: الخطيب البغدادي (ت٤٦٣) وابن الصلاح (ت٦٤٣).

ففي مجال علم رواية الحديث نجده يعنى بتحرير ألفاظ متون

---

(١) في المعجم، ص ٣٠٦.
(٢) في طبقات الحفّاظ، ص ٤٧٠.
(٣) النجوم الزاهرة: ٥/ ٢٨٤.

الأحاديث، واختلاف ألفاظ الرواة، ومخارج الأحاديث، وسياق الطرق المختلفة، والعناية التامة بضبط الألفاظ، سواء كان ذلك في الأسانيد كضبط الأسماء والأنساب والكنى أو كان ذلك في المتون، مع التنبيه على الإدراج والاضطراب وغير ذلك من علوم المتن.

وفي مجال علم دراية الحديث نجده يعنى بتخريج الأحاديث والحكم عليها، والتنبيه على الرفع والوقف والإرسال، والحكم على الرواة والترجمة لهم، وتقييد المهمل، وتمييز المشكل، وتبيين المبهم، وبيان اسم المكنّى، وكنية المسمى، والتنبيه على علل الأسانيد.

وفي مجال مصطلح الحديث خاصة نجده قد أتقن جمع وعرض وتحرير المسائل مع إضافات مهمة في مباحث علوم الحديث من حيث القبول والرد، وعلوم رواة الحديث، وعلوم رواية الحديث، وعلوم المتن، وعلوم السند.

وفي مجال فقه الحديث نجده يثري بحوثه ليتحفنا بفوائد جمة في أبواب العقيدة والتفسير والحديث والفقه والأصول والتاريخ واللغة، بأسلوب يشد القارئ متعة وفائدة.

وقد فصلت القول في كل هذا في كتابي (منهجية فقه الحديث عند القاضي عياض)، ويمكن لمن أراد التوسع والأمثلة أن يعود إليه، وإلى تحقيقي لمقدمة إكمال المعلم.

رابعاً ـ الفقه وأصوله[1]:

إن إمامة القاضي عياض في الفقه وأصوله ظاهرة لا تحتاج إلى كبير تقرير، فقد أجمعت عليها المصادر، ونص بعضها على بلوغه درجة الاجتهاد، وقد تتلمذ على كبار فقهاء عصره، وأكثر مجالستهم ومذاكرتهم والمناظرة عليهم، وتحمّل عنهم أمهات كتب الفقه، ثم تصدّر لتدريس الفقه، والتأليف فيه، كما ضمن في مؤلفاته مباحث محرّرة تتعلق بأصول الفقه تفرّد بالسبق إلى تحريرها.

وقد اشتملت كتب عياض، وبخاصة (التنبيهات) و(إكمال المعلم) على ثروة فقهية هائلة، وليس ذلك في الفقه المالكي فحسب، وإنما تناول سائر المذاهب المشتهرة من لدن عهد الصحابة رضوان الله عليهم إلى زمن عياض.

ويعتبر الكتابان المذكوران من المصادر المهمة في علم اختلاف الفقهاء لكثرة ما أورده من ذلك، ولنقله عن مصادر مفقودة أو مخطوطة في هذا الباب، مثل كتاب اختلاف الفقهاء للطحاوي، وكتاب مسائل الخلاف لابن القصار.

وقد امتاز مسلك القاضي عياض في إثارة الفوائد الفقهية بتأسيس

---

(١) راجع: منهجية فقه الحديث، ص ١٤٦، ٢٦١، ٢٧٩؛ دورة القاضي عياض: ١/ ٦، ١٤٩، ٢/ ٣٥، ٣/ ١٣، ١٧٩.

الفقه على الحديث والآثار، وإيراد فقه السلف من الصحابة والتابعين، وبسط فقه أهل المذاهب الأربعة، مع ذكر الخلاف بينها، والخلاف داخل كل مذهب أحياناً، واختلاف أقوال الأئمة في المسألة الواحدة، وذكر إجماعاتهم وتفرداتهم، كما أورد كثيراً من فقه الظاهرية، وأهل الرأي، وفقه الأئمة الآخرين من أهل الفتوى ومشاهير علماء الأنصار، من أمثال: سفيان الثوري (ت١٦١)، والليث بن سعد (ت١٧٥)، وعبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي (ت١٥٧)، ونحوهم، بالإضافة إلى فقه واختيارات بعض المتأخرين عن هؤلاء من أئمة العلم، مثل: الطحاوي وابن القصار والطبري، كما أورد كثيراً من اختيارات شيوخه، بل إنه أورد جملة من فقه أهل الفرق المبتدعة، مثل الخوارج والشيعة والمعتزلة.

كما يلاحظ أنه كثيراً ما ينبه على أسباب اختلاف الفقهاء، ويذكر علل الأحكام، ويهتم بالتعريفات الفقهية، وقواعد وأصول بعض المذاهب، وينبه على الأحكام المنسوخة وما تُرك العمل به.

وعُني (رحمه الله) كذلك بذكر اختياراته وترجيحاته بكل أدب وإنصاف، وهو وإن كان من حيث الجملة يختار مذهب مالك ويستدل له، إلا أنه لا يتعصب في ذلك، ولا يردّ قول المخالف إذا كان مدعماً بدليل بيّن لا يمكن تضعيفه ولا تأويله، وقد يخالف مالكاً ويعتذر له في عدم أخذه بالحديث بأنه لم يبلغه، كما أنه قد يردّ أقوال بعض

المالكية ويحتج عليهم بالدليل السمعي والعقلي.

وقد ذكرت في كتاب منهجية فقه الحديث عند القاضي عياض أمثلة لكل ما ذكرته هنا، وهي كافية لمن أراد الرجوع إليها.

كما تناول القاضي بالبحث قدراً كبيراً من مسائل أصول الفقه، لو جمعها بعض أهل التخصص وأفردها بالنشر لكانت رافداً في غاية الأهمية لمصادر هذا الفن، فقد تناول مباحث الأمر، والنهي، والعموم، والعلة، ودليل الخطاب، والاجتهاد، والاستصحاب، وسدّ الذرائع وغيرها.

خامساً ـ علوم اللغة[1]:

أجمعت المصادر على إمامة عياض في اللغة وعلومها، ونصت على تقدمه في معرفة النحو والأدب والبلاغة، وحفظ اللغة والغريب والأمثال والأشعار، وقد تتلمذ على جهابذة علماء اللغة في عصره، وتحمل عنهم عدداً ضخماً من كتب اللغة والنحو والغريب، كما تقدم في مصادره، ولهذا نجد ترجمته مضمَّنة في كتب طبقات النحاة واللغويين، مثل قلائد العقيان، وخريدة القصر، وإنباه الرواة، وقد أبلغوا في بيان تقدمه في هذا الباب، وأوردوا نماذج من نظمه ونثره،

---

(١) راجع: منهجية فقه الحديث، ص ٤٧، ٢٨٤؛ دورة القاضي عياض: ١/ ٢٣١؛ أزهار الرياض: ٤/ ١ ـ ٢٧٠.

وخصص صاحب أزهار الرياض فصْلاً لهذا الغرض سماه: (روضة المنثور فيما له من منظوم ومنثور).

وكتب عياض شاهدة على تقدمه في اللغة، وبخاصة (مشارق الأنوار)، و(بغية الرائد)، كما أنه ألف في هذا الباب كما سيأتي في مصادره.

وإذا تأملنا الصناعة اللغوية في كتب عياض نجد أنه قد أخذ بزمام هذا الباب وملك ناصية البلاغة بلا تكلف، كما قال الفتح بن خاقان[1]: «وهو على اعتنائه بعلوم الشريعة، واختصاصه بهذه الرتبة الرفيعة، يُعنى بإقامة أوَد الأدب، وينسل إليه أربابه من كل حدب...» وقال ابنه[2]: «كان نحوياً، ريانـاً من الأدب، خطيبـاً فصيحاً، خطبته عذبة الألفاظ، سهلة المأخذ».

فعياض حلو العبـارة، جزل الألفاظ، شـيق الأسـلوب، قوي التراكيب.

ونجده يتوسع في تفسير الغريب وبيان معاني الألفاظ من عنده، ونقلاً عن عدد وافر من مصادر هذا الفن، ويذكر أصول اشتقاق الألفاظ وتصريفاتها، واختلاف النحاة واللغويين مع الترجيح، ويذكر اللغات

---

(١) قلائد العقيان، ص ٢٣٢.
(٢) في التعريف، ص ٤، ٥ (بتصرف يسير).

المختلفة في اللفظ الواحد، ويقوم بالإعراب، وضبط الألفاظ، وينبه على القواعد اللغوية، وضروب البلاغة، ويسوق الأمثال، ويستشهد بالأشعار، وله في باب اللغة اختيارات رصينة وترجيحات قوية وتعقبات وانتقادات وجيهة.

سادساً ـ الشعر[1]:

لقد أثنت المصادر على عياض في هذا الباب، ووصفته بالإجادة في الشعر، وقد أورد ابنه في التعريف به جملة من شعره، وقال:

«وفيما أثبته من نظمه دليل على حذقه في صناعة الشعر وعلمه، كان شعره (رحمه الله) في شبيبته كثيراً، لكني لم أجد منه بخطه إلا يسيراً، وإني لأروم جمع ما اجتمع لي من نظم ينسب إليه في ديوان يشتمل عليه، وأكثر ما عندي إنما اتخذته عن أصحابه لا عنه؛ لأنه لم يدونه ولا قيده، ولا رأى أن يؤثر عنه ولا اعتقده، ومع ذلك فأكثر شعره إنما كان في مذاكرة الأدباء، ومراسلة الشعراء والزعماء، فلم يكن منهم إلا معترف بالعجز عن مداه ومنصف».

وقد تناول شعر عياض أغراضاً متعددة، منها مدح الرسول ﷺ،

---

(١) انظر: التعريف بالقاضي، ص ٩٧ ـ ١٠٥؛ دورة القاضي عياض: ١/ ٦٥، ١٩٩؛ أزهار الرياض: ٤/ ١ ـ ٧٠.

وتوجيه طلبة العلم، والحنين، والغزل، ووصف الطبيعة. . . وفيما يلي نماذج من شعره دالة على ما سواها:

١ـ مناجاة ربه عز وجل:

إليك بُؤْتُ بذنبي ... فاغفر خطاياي ربِّي
وامْنُنْ عليّ بلطف ... تَجْبُرْ به صَدْعَ قلبي
فقد ركبت ذنوباً ... سوّدت منهن كتبي
وطال تقصير سعيي ... في كل فرض ونَدْب
وقد أسأتُ فأحسن ... فلم تزل محسناً بي
وجئت أطلب توباً ... إذ ضاق بالذنب رَحْبي
فاقبل بفضلك توبي ... واغفر برحماك ذنبي
وعافني واعف عني ... فأنت يا ربّ حَسْبي

٢ ـ مدح النبي ﷺ:

يا دار خير المرسلين ومن به ... هدي الأنام وخص بالآيات
عندي لأجلك لوعة وصبابة ... وتشوُّق متوقد الجمرات
وعليّ عهد إن ملأت محاجري ... من تلكم الجدران والعرصات
لأعفرن مصون شيبي بَيْنَها ... من كثرة التقبيل والرشفات

لولا العوادي والأعادي زرتها   أبداً ولو سحباً على الوجنات
لكن سأهدي من حفيل تحيتي   لقطين تلك الدار والحجرات
أزكى من المسك المفتق نفحة   تغشاه بالآصال والبكرات
وتخصه بزواكي الصلوات   ونواصي التسليم والبركات

٣ ـ نصح طالب العلم:

يا طالب العلم استمع قول امرئ   محض النصيحة للمريد الراغب
العلم في أصلين لا يعدوهما   إلا المضل عن الطريق اللاحب
علم الكتاب وعلم الآثار التي   قد أسندت عن تابع عن صاحب

٤ ـ قصيدته عندما غُرِّب في داي:

أقمرية الأدواح بالله طارحي   أخا شجن بالنوح أو بغناء
فقد أرّقتني من هديلك رنة   تهيج من برحي ومن برحاء
لعلك مثلي يا حمام فإنني   غريب بداي قد بليت بداء
فكم من فلاة بين داي وسبتة   وخرق بعيد الخافقين قواء
تصفق فيها للرياح لواقح   كما ضعضعتني زفرة الصعداء
يذكرني سحّ المياه بأرضها   دموعاً أريقت يوم بنت ورائي
ويعجبني في سهلها وحزونها   خمائل أشجار ترف رواء

لعل الذي كان التفرق حكمه سيجمع منّا الشمل بعد تنائي

٥ ـ ومن شعره في الحنين:

يا راحلين وبالفؤاد تحملوا أيرى لكم قبل الممات قفول

أما الفُؤَاد فعندكم أنباؤه ولواعج تنتابه وغليل

فيرى لكم علم بمنتزح الكرى عن جفن صب ليله موصول

أودى بعزمة صبره وإبائه طرف أحمّ ومبسم مصقول

ما ضركم أو ضنّكم بتحية يحيا بها عند الوداع قتيل

إن البخيل بلحظة أو لفظة أو عطفة أو وقفة لبخيل

سابعاً ـ السِّيَر والمغازي والتاريخ:

لقد أثنت مصادر ترجمة عياض على علمه بهذا الباب وتقدمه فيه، من ذلك قول ابنه[1]: «كان حافظاً لأخبار الناس ومذاهب الأمم، عارفاً بأخبار الملوك وتنقُّل الدول، وأيام العرب وسِيَرها وحروبها، ومقاتل فرسانها، ذاكراً لأخبار الصالحين وسيرهم».

وقد تَحَمَّل عن شيوخه جملة صالحة من مصادر هذا الفن، وألف فيه (الشفاء) و(الجامع في التاريخ) و(الفنون الستة في أخبار

---

(١) في التعريف، ص ٥.

سبتة) و(تاريخ المرابطين) و(ترتيب المدارك).

كما أننا نجده أورد في (إكمال المعلم) معلومات متنوعة من متعلقات هذا الباب، فقد ساق جملة صالحة من أخبار الأنبياء مع أقوامهم، وأحوال العرب وأيامهم في الجاهلية ونبذٍ من أخبارهم، وخصّ سيرة المصطفى ﷺ بالنصيب الأوفر من كلامه في هذه الجوانب، فذكر طرفاً من أخبار نشأته، وبعثته، والإسراء به، ونبّه على كريم شمائله وسجاياه، وخصائصه ومعجزاته ودلائل نبوته، وذكر الغزوات وتواريخها ووجوه تسمية بعضها، ونحو ذلك من متعلقات هذا الباب.

وبهذه اللمحات المختصرة يتأكد لدينا ما ذكرته المصادر من إمامة عياض في علوم الشريعة، وعلوّ كعبه في فنونها، أجزل الله مثوبته، وفسح لنا وله في الفردوس الأعلى من جنته.

* * *



الفصل الثالث

مؤلفات القاضي عياض

أسهم القاضي عياض (رحمه الله) في إثراء المكتبة الإسلامية بمؤلفات قيمة في فنون متعددة، أضحى كثير منها من المصادر الأساسية لطلبة العلم والمصنفين على مرّ الأجيال، وقد تناقلها أهل العلم شرقاً وغرباً، وأثنوا عليها وعلى مصنفها، ووصفوها بالجودة والإبداع:

ـ قال ابنه[1]: «كان مليح القلم، من أكتب أهل زمانه».

ـ وقال ابن الأبار[2]: «له تواليف مفيدة، كتبها الناس، وانتفعوا بها، وكثر استعمال كل طائفة لها».

ـ وقال الحافظ الذهبي[3]: «وجمع وألف، وسارت بتصانيفه الركبان، واشتهر اسمه في الآفاق... وتواليفه نفيسة».

---

(١) في التعريف، ص ٤.
(٢) في معجمه، ص ٣٠٨.
(٣) في سير الأعلام: ٢٠/ ٢١٤.

ـ وقال ابن خلكان[1]: «وصنف التصانيف المفيدة».

ـ وقال ابن فرحون[2]: «له التصانيف المفيدة البديعة».

وقد قاربت مصنفات عياض الثلاثين، اهتم المترجمون له بذكرها، على تفاوت بينهم في ذلك، وأكثرهم عناية بها ابنه محمد في كتاب التعريف بوالده، وشهاب الدين المقري الذي خصّها بفصل في أزهار الرياض سماه[3]: «روضة النسرين في تآليفه العديمة النظير والقرين».

وسوف أورد فيما يلي أسماء هذه المؤلفات، مع تعريف مختصر بما يمكن التعريف به منها، وقد رأيت من المفيد تصنيفها بحسب موضوعاتها، مقدماً مصنفاته في الحديث وعلومه لأنها الأكثر، ولأن هذا هو تخصصه الأشهر:

القسم الأول: مصنفاته في الحديث وعلومه:

لقد تنوعت كتب عياض في هذا الباب، مع التحرير والإبداع، ويمكن تقسيمها إلى أربعة فروع:

---

(١) في وفيات الأعيان: ٣/ ٤٨٣.

(٢) في الديباج، ص ١٧٠.

(٣) أزهار الرياض: ٤/ ٢٧١.

أولاً ـ الشروح الحديثية: وله في ذلك كتابان:

١ ـ **(إكمال المعلم بفوائد صحيح مسلم)**، وموضوعه شرح كتاب (الجامع الصحيح) للإمام مسلم بن الحجاج، وذلك من خلال تكميل كتاب (المعلم بفوائد مسلم) للمازري، وكتاب (تقييد المهمل، جزء العلل الواقعة في أسانيد كتاب مسلم)، وليس معنى التكميل هنا أنه ابتدأ من حيث انتهيا، وإنما هو بدأ الشرح من بدايته وضمنه كامل الكتابين، وزاد عليهما أضعافاً كثيرة، وذلك لأن المازري لم يقصد إلى شرح صحيح مسلم، وإنما كتابه عبارة عن تعليقات كتبها الطلبة من الفوائد التي كان يثيرها عند قراءتهم الصحيح عليه، فلما أجازه لعياض ونظر فيه نشط لتكميله بعد أن سأله طلبته ذلك، وقد تعددت مجالات التكميل لتشمل:

ـ شرح مقدمة صحيح مسلم شرحاً وافياً.

ـ شرح ما لم يتعرض إليه المازري، وهو أكثر الكتاب.

ـ إكمال الكلام على الرجال والأسانيد والعلل غير القادحة مما أغفله الجياني.

ـ التوضيح والبيان لكلام المازري والجياني، والاستدراك والتعقيب والتصحيح عند الحاجة.

والكتاب في غاية الأهمية، وله مميزات عديدة، منها:

ـ ميزة السبق مع الشمول والتوسع، فهو أول شرح موسّع ومكتمل لصحيح مسلم.

ـ تعلقه بشرح ثاني أصح كتابين بعد كتاب الله عز وجل، ولا يخفى عظم مكانة هذا الصحيح في نفوس المسلمين، وحرصهم على فهم معاني أحاديثه، والوقوف على ما فيها من مسائل العقيدة والأحكام الفقهية والفوائد والآداب الشرعية.

ـ اعتماد مؤلفه طريقة الشرح بالمأثور والنقل، دون إهمال طريقة الشرح بالمعقول والنظر.

ـ أنه المصدر الأساس لكل من جاء بعده من شراح صحيح مسلم، وعلى رأسهم الإمام النووي.

وقد نلت بحمد الله وتوفيقه شرف البدء بتحقيق هذا الكتاب، وطبع منه المقدمة وكتاب الإيمان في ثلاث مجلدات، ووزّع باقيه على مجموعة من طلاب قسم الكتاب والسنة بجامعة أم القرى بمكة المكرمة في إطار إعدادهم لرسائل الدكتوراه.

قال القاضي عياض في مقدمة هذا الكتاب[1]: «الحمد لله المستفتح بحمده كل أمر ذي بال، والصلاة والسلام على محمد

---

(١) مقدمة إكمال المعلم، ٧٢.

المصطفى نبيه وعلى آله خير آل، والضراعة إليه جل اسمه في توفيقي لما أدبّره وأحبّره من مقال، وأن يخلصه عن التصنع لغير وجهه ذي الجلال، وبعد:

فإني عند اجتماع طلبة العلم لدي في التفقه في صحيح الإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج (رحمه الله)، والوقوف على معاني أخباره، والبحث عن أغواره، والكشف عن أسراره، وإثارة الفقه ودقائق العلم من آثاره، والاقتباس للهدي وحقائق الدين من حلاه وأنواره، وتقصِّي ألفاظه عن حِكمه واعتباره، وبيان غامضه ومشكله، وتقييد مبهمه ومهمله، والتنبيه على ما وقع من اختلال لبعض رواته في أسانيده ومتونه، والبسط لما أشار إليه (رحمه الله) في مقدمته من أصول علم الأثر وفنونه.

ولم يكن في ذلك كتاب مختص بهذه الأم، ولا تأليف اعتنى به كالاعتناء بغيره ممن تقدم إلا كتاب شيخنا الحافظ أبي علي الحسين بن محمد الغساني الجياني في الكلام على مشكل أسانيده... وكتاب الإمام أبي عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم المازري التميمي في شـرح معانيه المسـمى بـ: (المُعْلِم)... وكلا الكتابين نهاية في فنه، بالغ في بابه، مودع في فنون المعارف وفوائدها، وغرائب علوم الأثر وشواردها ـ ما تلقي كل واحد منهما بالقبول، وبلغ الطالب بهما من رغبته بهما المأمول...

لكنّ الإحاطة على البشر ممتنعة، ومطارح الألباب والأذهان للبحث متسعة، وكثيراً ما وقفنا في الكتاب المذكور على أحاديث مشكلة لم يقع لها هناك تفسير، وفصول محتملة تحتاج معانيها إلى تحقيق وتقرير، ونكت مجملة لا بد لها من تفصيل وتحرير، وألفاظ مهملة تضطر إلى الإتقان والتقييد، وكلمات غيّرها النقلة؛ من حقها أن يخرج صوابها إلى الوجود. . .

فكثرت الرغبات في تعليق لما يمضي من تلك الزيادات والتنبيهات، يضم نشرها ويجمع، والقواطع عن الإجابة تقطع، وشغل المحنة التي طوقت عنق الإنسان تمنع، والرجاء لوقت فراغ ذلك يسوّف ويطمع، إلى أن منَّ الله تعالى بإحسانه بحل تلك القلادة وزوالها، وفرغ البال من عُهَدِها القادحة وأشغالها، فتوجّه الأمر وانقطع العذر، وانبعثت همة العبد الفقير بمعونة مولاه وتوفيقه إلى الإجابة، راغبة لمولاها جل اسمه في المعونة وتوخي الإصابة. . . ».

٢ ـ **(بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد)**: وقد خصصه عياض لشرح حديث أم زرع الطويل، حيث ساق جميع روايات الحديث بأسانيده، منبهاً على اختلاف ألفاظ الرواة، ثم شرح الألفاظ الغريبة شرحاً وافياً، وبين الأحكام الفقهية وغيرها من الفوائد المستنبطة من الحديث والمتعلقة به، ونبه على ما فيه من فنون البلاغة.

وهو أفضل شروح هذا الحديث، وقد أفاد منه من جاء بعده، فقد قال الحافظ ابن حجر، بعد أن ذكر جماعة ممّن شرحوا هذا الحديث[1]: «... ثم القاضي عياض، وهو أجمعها وأوسعها، وأخذ منه غالب الشراح بعده».

وقد طبع الكتاب في المغرب بعناية وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

ثانياً: كتب مصطلح الحديث:

صنف القاضي في هذا الباب كتابين غاية في الأهمية، أحدهما على سبيل الاستقلال، والآخر تبعاً لكتاب آخر، هما:

١ ـ **(الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع)**، والكتاب مشهور بين طلبة العلم، وقد ضمَّنه القاضي (رحمه الله) تسعة عشر باباً حرّر في معظمها قواعد دقيقة لم يسبق إلى كثير منها حول سماع الحديث وروايته، وأنواع التحمل والأداء وصيغ التعبير عن ذلك، وكتابة الحديث وضبطه وتقييده، وحكم الرواية بالمعنى، وإصلاح الخطأ في كتب الحديث، وضبط اختلاف الروايات، ونحو ذلك من مهمات هذا الباب.

---

(١) فتح الباري: ٩/٢٥٦.

وقد نقل عن الكتاب وأفاد منه مشاهير المصنفين في مصطلح الحديث، وعلى رأسهم الحافظ ابن الصلاح في مقدمته، والعراقي في شرح منظومته في علوم الحديث، والسيوطي في تدريب الراوي، والسخاوي في فتح المغيث.

٢ ـ **(مقدمة إكمال المعلم)**: بيّن فيه ما في مقدمة مسلم من مسائل علوم الحديث، فقد ذكر القاضي في خطبة إكماله أنه قام بـ «البسط لما أشار إليه [مسلم] رحمه الله في مقدمته من أصول علم الأثر وفنونه»[١]، وقال في نهاية شرح المقدمة[٢]: «والكلام في هذا الباب كثير، يحتاج إلى بسط، وقد ذكرنا منه ما يحتاج إليه من له تهمّم بهذا الباب وعلمه، وبسطنا الكلام في هذه الفصول في كتاب (الإلماع لمعرفة أصول الرواية)، وأشرنا منه إلى نكت غريبة، لعلك لا تجدها مجموعة في غير هذين الكتابين».

ثالثاً: كتب السيرة النبوية:

وقد صنف فيها كتابين، هما:

١ ـ **(اختصار كتاب شرف المصطفى ﷺ)**: تناول فيه بالاختصار المفيد كتاب (شرف المصطفى) لعبد الملك بن محمد النيسابوري

---

(١) مقدمة إكمال المعلم، ص ٧٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٨٣.

الواعظ (ت٤٠٦)، وقد شاع هذا الكتاب عن القاضي عياض، وكان يحدث به طلبة العلم، ورواه عنه الناس[(١)].

٢ ـ **(الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ﷺ)**: وهو أشهر كتب القاضي (رحمه الله) وأجلّها، وأعظمها قدراً، وأكثرها فائدة، وأوسعها انتشاراً[(٢)]، وقد قرئ على مؤلفه عشرات المرات، حيث إنه أتمه في وقت مبكّر، وكان يُقرأ عليه في حدود سنة ٥٣١هـ[(٣)].

والكتاب وإن كان موضوعه العام هو سيرة النبي ﷺ، إلا أنه تناول ذلك من جوانب عقيدية أصولية فقهية، بلغة بليغة، وأسلوب بديع، وحجج قوية، وبراهين ساطعة نقية، فجاء فريداً معنى ومبنى، ولا عجب أن تلقته الأمة بالقبول شرقاً وغرباً، وامتدحه فطاحلة العلماء نظماً ونثراً، وأقبلوا عليه مدارسة واختصاراً وشرحاً، فقد زادت شروحه على العشرين، أفضلها: نسيم الرياض لشهاب الدين الخفاجي.

قال ابن فرحون[(٤)]: «أبدع فيه كل الإبداع، وسلّم له أكفاؤه فيه،

---

(١) فهرسة ابن خير، ص ٢٨٩.

(٢) انظر: القاضي عياض اللغوي، ص ٧٩؛ دورة القاضي عياض: ٢/ ١١٣، ٣/ ٣، ٢٩٣، ٣٩١.

(٣) أزهار الرياض: ٣/ ١٣، ٤/ ٣٤٢.

(٤) الديباج، ص ١٧٠.

ولم ينازعه أحد في الانفراد بـه، ولا أنكروا مزيته في السـبق إليه، بل تشوقوا للوقوف عليه، وجدّوا في الاستفادة منه، وحمله الناس، وطارت نسخه شرقاً وغرباً».

وقال أبو العباس أحمد بن عبد المنان[1]:

علمـاء الحـديـث كـم خلصـت ... فـي مـدح خيـر الـورى لهـم

بمعاني الرسول تجلى وتتلى ... عندها تنعش القلوب المراض

كلهـم عـالـج السقـام ولكـن ... مـا أتـى بـالشفـاء إلا عيـاض

وقال آخر[2]:

عوضت جنات عدن يا عياض ... عـن الشفـا الـذي ألفتـه عـوض

جمعت فيه أحاديث مصححة ... فهو الشفا لمن في قلبه مرض

وعوتب عياض على كثرة محبته لهذا الكتاب، فرد عليهم بهذين البيتين:

فقـالـوا: أراك تحـب الشفـا ... وتخبـر فيـه عـن المصطفـى

فقلـت: لأنـي عليـل الفـؤاد ... وكـل عليـل يحـب الشفـا

---

(١) أزهار الرياض: ٤/ ٢٨٨.

(٢) مقدمة تحقيق الشفاء: ١/ ٢٤.

قال عياض في مقدمة هذا الكتاب[1] :

« . . . فإنك كررت عليّ السؤال في مجموع يتضمن التعريف بقدر المصطفى عليه الصلاة والسلام، وما يجب له من توقير وإكرام، وما حكم من لم يوفّ واجب عظيم ذلك القدر، أو قصّر في حق منصبه الجليل قلامة ظفر، وأن أجمع لك ما لأسلافنا وأئمتنا في ذلك من مقال، وأبينه بتنزيل صور وأمثال.

فاعلم أكرمك الله أنك حمّلتني من ذلك أَمْراً إِمْراً، وأرهقتني فيما ندبتني إليه عسراً، وأرقيتني بما كلفتني مرتقى صعباً، ملأ قلبي رعباً.

فإن الكلام في ذلك يستدعي تقرير أصول، وتحرير فصول، والكشف عن غوامض، ودقائق من علم الحقائق، مما يجب للنبي ﷺ ويضاف إليه، أو يمتنع أو يجوز عليه، ومعرفة النبي والرسول والرسالة، والنبوة والمحبة والخلة، وخصائص هذه الدرجة العلية.

وههنا مهامه فيح تحار فيها القطا، وتقصر بها الخطى، ومجاهل تضل فيها الأحلام إن لم تهتد بعَلَم عِلْم ونظر سَديد، ومداحض تزل بها الأقدام إن لم تعتمد على توفيق من الله وتأييد.

لكني لما رجوته لي ولك في هذا السؤال والجواب من نوال

---

(١) مقدمة تحقيق الشفاء: ١/ ٢٨.

وثواب. . . ولما أخذ الله على الذين أوتوا الكتاب ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾. . . فبادرت إلى نكت سافرة عن وجه الغرض، مؤدياً من ذلك الحق المفترض. . . ».

وقد نصّ الأئمة على أن الكتاب قد بلغ النهاية في بابه، وأنه لم يصنف مثله متقدم ولا متأخر، ومع هذا فقد انتقده بعض العلماء، وهذا شأن كل جهد بشري، فإن الكمال لله وحده، والعصمة لمن عصمه الله، ومن ذلك قول الذهبي[1]: «تواليفه نفيسة، وأجلّها وأشرفها كتاب الشفاء، لولا ما قد حشاه بالأحاديث المفتعلة، عمل إمام لا نقد له في فن الحديث ولا ذوق، والله يثيبه على حسن قصده، وينفع بشفائه، وقد فعل، وكذا فيه التأويلات البعيدة ألوان».

قلت: هذا الذي ذكره الذهبي فيه مبالغة، ولا ينقص من قيمة الكتاب، ولا يحط من قدر مؤلفه، بل هو دليل على ما يلازم الأعمال البشرية من النقص، فلا يكون سبيلاً إلى التنقص، أما المبالغة فلأن عدة أحاديث كتاب الشفاء زادت على ١٣٦٠ حديث، وقد تتبعتها في تخريج السيوطي لها، المسمى: (مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا)، فوجدت ثلاثة أحاديث فقط موضوعة، وخمسة أحاديث لم يعرفها السيوطي، وتسعة أحاديث لم يجدها، وثلاثة أحاديث منكرة،

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٢٠/٢١٦.

وحديثين ضعيفين جداً، واثنين وثلاثين حديثاً ضعيفاً بما في ذلك المراسيل، والبقية كلها أحاديث مقبولة، منها الصحيح ومنها الحسن.

وكذا التأويلات البعيدة فقد تبين لي من خلال قراءاتي المتكررة في كتاب الشفا أنها محدودة جداً، كما أن القاضي قد يوردها بعد أن يثبت الأقوال القويّة والراجحة في المسألة.

ومما أخذ على كتاب الشفا الغلو في مسألة عصمة النبي ﷺ، وهو رأي شيخ الإسلام ابن تيمية، وقد ردّ عليه الإمام ابن عرفة وأيده المقّريّ[1].

وقد طبع الكتاب مرات عديدة، وأرى أنه لا يزال بحاجة إلى تحقيق علمي جاد، وتقويم موضوعي رصين.

رابعاً: كتب شرح غريب الحديث:

صنف عياض في هذا الفن كتابين هما:

١ ـ **(مشارق الأنوار على صحاح الآثار)**: وموضوعه تقويم الألفاظ الغريبة والمشكلة، الواردة في أحاديث الصحيحين والموطأ، وشرحها، وضبطها، وضبط الأسماء والكنى والأنساب، وأسماء الأماكن والبلدان، مع التنبيه على ما يقع في ذلك من وهم أو تصحيف

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى: ٤/ ٣١٩، ١٥/ ١٤٨؛ أزهار الرياض: ٤/ ٣٤٢.

أو لبس أو اختلال، مع التنبيه على فروق الروايات، واختلاف ألفاظ الرواة.

وقد رتبه على حروف المعجم وفق طريقة المغاربة، وهو يجعل لكل حرف باباً، ويقسم الباب إلى أربعة فصول:

الأول: في ضبط ألفاظ المتون وشرحها، وذكر اختلاف الروايات، وبيان ما فيها من الوهم.

الثاني: في ضبط أسماء المواضع والبقاع من الأرض، وبيان ما يقع فيها من الاختلاف والوهم.

الثالث: في ضبط المشكل من الأسماء والكنى، وبيان ما فيها من الاختلاف والوهم.

الرابع: في ضبط الأنساب، والتنبيه على ما يقع فيها من الاختلاف والوهم.

وختم الكتاب بثلاثة أبواب ضمنها فوائد متناثرة مما لا يدخل في الأبواب المتقدمة.

وهذا الكتاب أيضاً فريد في بابه، عظيم الفائدة لمطالعه، مدحه العلماء بالمنظوم والمنثور، وأفاد منه المشارقة والمغاربة، فقد أثنى

عليه الحافظ ابن الصلاح، واعتمد عليه في كثير من مباحثه في مقدمة علوم الحديث، وأكثر ذلك ما وقع في النوع الثالث والخمسين: (معرفة المؤتلف والمختلف من الأسماء والأنساب وما يلتحق بها)، فقد قال في نهايته[1]: «وأنا في بعضها مقلّد كتاب القاضي عياض»، ولمّا وقف ابن الصلاح على كتاب المشارق وطالعه أعجب به، وقال[2]:

مشـارق أنـوار تجلـت بسبتـة ... من عجب كون المشارق بالغرب

وأفاد منه ابن حجر في فتح الباري في شرح الغريب وضبط الأسماء والكنى والأنساب[3].

وقال فيه ابن فرحون[4]: «وكتاب مشارق الأنوار في تفسير غريب الموطأ والبخاري ومسلم، وضبط الألفاظ، والتنبيه على مواضع الأوهام والتصحيفات، وضبط أسماء الرجال، وهو كتاب لو كتب بالذهب أو وُزن بالجوهر لكان قليلاً في حقه».

---

(١) مقدمة ابن الصلاح (مع التقييد والإيضاح، ص٤٠٤).
(٢) المعجم في أصحاب الصدفي، ص ٣٠٨؛ أزهار الرياض: ٤/ ٣٤٣.
(٣) انظر مثلاً: فتح الباري: ١/ ٤٣٢.
(٤) الديباج، ص ١٧٠.

وقد طبع الكتاب مرتين، ولا يزال بحاجة إلى تحقيق.

٢ ـ (غريب الشهاب)[١]: وهو شرح لغريب ألفاظ أحاديث كتاب (شهاب الأخبار في الحكم والأمثال والآداب) لأبي عبد الله محمد بن سلامة القضاعي (ت٤٥٤)، وهو مفقود.

خامساً: كتب التراجم والرجال:

صنف القاضي في هذا الفن أربعة كتب، هي:

١ ـ (أخبار القرطبيين)[٢]، ذكر فيه علماء قرطبة، حاضرة البلاد الأندلسية، وهو مفقود.

٢ ـ (ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك): وهو كتاب في طبقات المالكية لا يوجد لهم مثله، صدَّره بترجمة موسعة للإمام مالك مع التعريف بمذهبه، ثم ذكر تلاميذ مالك في مختلف البلاد، ثم ذكر من بعدهم إلى طبقة شيوخه، يبدأ في كل طبقة بأهل المدينة ثم أهل العراق والمشرق عامة، ثم أهل مصر، ثم أهل إفريقية، ثم أهل الأندلس والمغرب.

ويبدو أنَّ عياضاً (رحمه الله) قد أتم تأليف الكتاب آخر حياته،

---

(١) انظر: كشف الظنون: ٢/ ١٠٦٧؛ هدية العارفين: ٥/ ٨٠٥.

(٢) كشف الظنون: ١/ ٢٨.

لأنه لم يجد فرصة لإسماعه للطلبة[1].

ويعتبر هذا الكتاب أضخم موسوعة في طبقات علماء المالكية، وكل من جاء بعده وصنف في هذا الغرض فتعويله عليه، مثل ابن فرحون في كتاب الديباج المذهب، والتنبكتي في توشيح الديباج، ومخلوف في شجرة النور الزكية.

وقد ضم الكتاب أكثر من ألف وخمسمئة ترجمة، واحتوى على معلومات مفيدة ومعارف متنوعة، في الجرح والتعديل، والتاريخ، والعقيدة، والفقه، والأصول، والأدب، والشعر، والتصوف، والزهد، وأخبار القضاة، وغير ذلك.

طبع الكتاب مرتين: الأولى في بيروت، وهي طبعة رديئة، بها تصحيف كثير جداً، وسقط في مواضع متعددة، أطولها سقوط ٢٩٩ صفحة بعد ترجمة محمد بن زرقون[2]، وهي موجودة في الطبعة المغربية[3]، وهي الطبعة الثانية، ولا يزال الكتاب بحاجة إلى عناية، فقد اشتملت طبعة المغرب أيضاً على جملة من التصحيفات.

٣ ـ (الغنية)، وهي فهرسة شيوخ القاضي عياض، ولم تحتوِ

---

(١) التعريف بالقاضي، ص ١١٦؛ أزهار الرياض: ٤/ ٣٤٨.
(٢) ٣/ ٢٧٥ (ط. بيروت).
(٣) من ٤/ ٤٠٢ إلى ٥/ ٢٥٤.

على جميع شيوخه، وإنما اشتملت على مئة شيخ، انتقاهم القاضي (رحمه الله) من مجموع شيوخه الذين أفاد منهم، فقد قال القاضي آخر هذا الكتاب[1]: «هذه مئة ترجمة، وقد تركنا جماعة ممن لقيناهم وذاكرناهم وحضرنا مجالس نظرهم من الفقهاء والرواة، ممن لم نحمل عنهم الكتب ولا الحديث اقتصاراً على ما ذكرناه، وبالله تعالى التوفيق، وهو تعالى يرحم الجميع برحمته».

غير أن النسخة الموجودة من (الغنية) لم تشتمل إلا على ٩٨ ترجمة.

وعدد الكتب التي ذكرها عياض في هذه الفهرسة مما تَحَمَّلَه عن شيوخه ٢٢١ كتاباً، في مختلف فنون العلم.

وفي الكتاب نكت علمية متنوعة، وفوائد منثورة، بثها في ثناياها التراجم، وفيه طرائف لم أعثر عليها في غيره، كما أنه يعتبر مصدراً أساسياً لكثير من التراجم التي نقلها المؤلفون في الرجال عنه[2].

طبع الكتاب مرتين: الأولى في الدار العربية للكتاب، سنة ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨، والثانية في دار الغرب الإسلامي، سنة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، وهي أجود تحقيقاً وأكثر فائدة.

---

(١) ص ٢٢٧.
(٢) انظر مثلاً: الغنية، ص ٨٦، ٨٧، ٩١.

القسم الثاني: مصنفاته في علم الفقه:

ألف القاضي (رحمه الله) في هذا المجال سبعة كتب، أكثرها مفقودة، هي:

١ ـ (أجوبة القرطبيين)[١]، ويبدو من عنوانه أنه أجاب فيه على أسئلة وردت إليه من أهل قرطبة، أو أنه رد على علماء قرطبة في مسائل تفرّدوا بها في المذهب، والكتاب مفقود حسب المادة العلمية المتوافرة.

٢ ـ (الأجوبة المحبّرة عن المسائل المتخيرة)، وهما مما لم يتمه من كتبه[٢]، ولا يعرف له وجود الآن.

٣ ـ (الإعلام بحدود قواعد الإسلام)، وهو كتيب صغير، ألفه استجابة لطلب أحد معلمي الأطفال أن يجمع له فصولاً سهلة المأخذ، قريبة المرام، تفسّر حدود قواعد الإسلام ليدرّسها لصغار الطلبة.

وقد طبعته وزارة الأوقاف المغربية، وأوله بعد المقدمة: «فاعلم ـ وفقنا الله وإياك ـ أن مباني الإسلام خمسة، كما قال نبينا عليه السلام...»، ثم أتى على شرح هذه القواعد بأسلوب ميسّر، وختم

---

(١) أزهار الرياض: ٥/٦.

(٢) التعريف بالقاضي، ص ١١٨.

الكتاب ببيان حكم تارك هذه القواعد جحوداً ونكراناً، أو تهاوناً وكسلاً واستخفافاً مع اعترافه بوجوبها.

وهو كتاب مفيد، سهل التناول، سلس الأسلوب، يستفاد منه كثيراً في المقررات الدراسية للمراحل الابتدائية.

٤ ـ **(التنبيهات المستنبطة على الكتب المدونة والمختلطة)**، وعلى هذا الكتاب معوّل المغاربة في حلّ مشكلات المدونة، وضبط ألفاظها، مع الاهتمام بما فيها من الأحاديث والآثار والرجال، بالإضافة إلى إثراء وتحرير وتحقيق الجوانب الفقهية.

ولا يزال الكتاب مخطوطاً، وقد وجدت له في خزائن المخطوطات المغربية نسخاً عديدة صالحة في مجموعها للاستعمال في تحقيق الكتاب، وبخاصة نسخ الخزانة الحسنية بالرباط رقم ٥٣٤، ورقم ٩٨١٨، ونسخ خزانة القرويين بفاس، رقم ١٠/ ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٦، ٨٠/ ١١٩١، وقد قمت بتصوير نسخة الخزانة العامة بالرباط رقم ٣٣٥.

قال القاضي رحمه الله أول هذا الكتاب: «... فإن أصحابنا المتفقّهة ـ أسعدني الله وإياهم بتقواه ـ رغبوا في الاعتناء بمجموع يشتمل على شرح كلمات مشكلة، وألفاظ مغلقة، مما اشتملت عليه كتب المدونة والمختلطة، واختلفت الروايات في بعضها، ومنها

ما أرتج على أهل درسها وحفظها، وربما اختلف المعنى لذلك الاختلاف... وحروف مشكلة على من لم يعتنِ بعلم العربية والغريب، وأسماء رجال مهملة لا يقيم تقييدها إلا كل من تهمّم بعلم الرجال والحديث...».

٥ ـ **(مسألة الأهل المشترط بينهم التزاور)**[١]، وهو مفقود.

٦ ـ **(المقاصد الحسان فيما يلزم الإنسان)**[٢]، وهو مفقود، وقد بين القاضي (رحمه الله) هذه المقاصد من خلال شرح موسع لحديث جبريل عليه السلام في الإيمان والإسلام والإحسان، فقد قال في (إكمال المعلم) عند شرح الحديث المذكور[٣]: «وعلى هذا الحديث وأقسامه الثلاث ألفنا كتابنا الذي سميناه بـ(المقاصد الحسان فيما يلزم الإنسان)؛ إذ لا يشذ شيء من الواجبات، والسنن، والرغائب، والمحظورات، والمكروهات، عن أقسامه الثلاث».

٧ ـ **(نظم البرهان على صحّة جزم الأذان)**[٤]، وهو مفقود.

---

(١) التعريف بالقاضي، ص ١١٧.

(٢) أزهار الرياض: ٤/ ٣٤٩.

(٣) كتاب الإيمان من (إكمال المعلم): ١/ ١٠٢.

(٤) هدية العارفين: ٥/ ٨٠٥.

القسم الثالث: مصنفاته في القضاء والسياسة الشرعية:

للقاضي في هذا المجال ثلاثة كتب، هي:

١ ـ (أجوبته فيما نزل في أيام قضائه من نوازل الأحكام)[١]، والكتاب الأصلي مفقود، غير أنّ ابنه محمد قد ضم إليه أجوبة أخرى للقاضي، وأجوبة من عنده، واختار للجميع اسم: (مذاهب الحكام في نوازل الأحكام)، وهو مطبوع في دار الغرب الإسلامي ببيروت، وتوجد منه نسخة بالخزانة الحسنية في الرباط تحت رقم ٤٦٤٢، وهي صالحة للتحقيق.

٢ ـ (سرّ السراة في آداب القضاة)[٢]، وهو مفقود، ويظهر من عنوانه أنه يتعلق بشروط القاضي ومسلكه في القضاء، من حيث الاستماع للخصوم، والشهود، ووسائل الإثبات، ونحو ذلك من متعلقات مهنة القضاء.

٣ ـ (مطامح الأفهام في شرح الأحكام)[٣]، وهو مفقود.

---

(١) التعريف بالقاضي، ص ١١٨.

(٢) الديباج، ص ١٧١.

(٣) هدية العارفين: ٥/ ٨٠٥.

القسم الرابع: مصنفاته في العقيدة:

للقاضي في هذا الباب كتابان:

١ ـ (السيف المسلول على من سب أصحاب الرسول ﷺ)[١]، وهو مفقود، ويظهر أنه يتناول فيه حكم من لم يؤد حق الصحابة من التقدير والتوقير، وزلّ وضلّ بالتنقص منهم، كالرافضة ونحوهم.

٢ ـ (كتاب العقيدة)[٢]، وقد تناول فيه مباحث أصول العقيدة ومتعلقاتها، وتوجد منه نسخة مع شرح له بالقول في دار الكتب المصرية، قسم المجاميع، رقم ٢٥٠ خاص، ورقم ٤٧٠ عام، فن التوحيد، وحبذا لو ينبري بعض أهل الاختصاص لتحقيقها، وتيسير اطلاع القراء على هذه الإضافة إلى المكتبة الإسلامية في هذا الفن المهم.

القسم الخامس: مصنفاته في اللغة والأدب:

للقاضي في هذا المجال ثلاثة كتب، هي:

---

(١) هدية العارفين: ٥/ ٨٠٥.
(٢) سير أعلام النبلاء: ٢٠/ ٢١٤.

١ ـ **(سؤالات وترسيل)**[١]، وهو مفقود.

٢ ـ **(غنية الكاتب وبغية الطالب في الصدر والترسيل)**[٢]، وهو مفقود.

٣ ـ **(كتاب خطبه)**، اشتمل على خمسين خطبة مختارة من خطبه البليغة، جاءت في سفر كامل[٣]، وكان القاضي «لا يخطب إلا بما يصنع، خطبته فصيحة ذات رونق، عذبة الألفاظ، سهلة المأخذ»[٤].

القسم السادس: مصنفاته في التاريخ:

له (رحمه الله) في هذا الباب ثلاثة كتب:

١ ـ **(تاريخ المرابطين)**، انتهى فيه إلى سنة ٥٤٠هـ[٥]، وهو مفقود.

٢ ـ **(الجامع في التاريخ)**، ذكر فيه أخبار الدول والأمراء

---

(١) أزهار الرياض: ٥/ ٥.
(٢) التعريف بالقاضي، ص ١١٧.
(٣) أزهار الرياض: ٤/ ٣٤٩.
(٤) التعريف بالقاضي، ص ٥.
(٥) أزهار الرياض: ٥/ ٥.

والملوك بالأندلس والمغرب منذ دخول الإسلام، واستوعب فيه أخبار سبتة وقضاتها وفقهائها، وقد أربى على جميع المؤلفات في بابه[1]، وهو مفقود.

٣ ـ (الفنون الستة في أخبار سبتة)، وبعضهم يسميه (العيون الستة)، ذكر فيه أخباراً مفصلة عن مدينته (سبتة)، وترجم لعلمائها، مع الاستيعاب والتوسع[2]، وهو مفقود.

*** زمن تأليف عياض رحمه الله لكتبه:**

يظهر أن معظم كتبه قد ألفت في الفترة التي كانت بين إعفائه من قضاء غرناطة ببلاد الأندلس سنة ٥٣٢هـ، وبين إعادته إلى قضاء سبتة سنة ٥٣٩هـ، حيث استمر فراغه من مهمة القضاء لمدة سبع سنوات، فقد أشار في مقدمة كتاب الإكمال إلى أن محنة القضاء التي أثقلت كاهله قد شغلت باله ومنعته من تحقيق رغبة تلاميذه أن يؤلف لهم هذا الكتاب، ثم قال[3]:

«... إلى أن منّ الله تعالى بإحسانه بحل تلك القلادة وزوالها، وفرغ البال من عهدها القادحة وأشغالها، فتوجه الأمر وانقطع العذر،

---

(١) أزهار الرياض: ٥/ ٦.
(٢) الإحاطة: ١/ ٨٣.
(٣) مقدمة إكمال المعلم، ص ٧٨.

وانبعثت همة العبد الفقير بمعونة مولاه وتوفيقه إلى الإجابة، راغبة لمولاها جل اسمه في المعونة وتوخي الإصابة».

وعند التأمل وجدت أنه يمكن أن يكون الترتيب الزمني لأهم كتب القاضي عياض على النحو التالي:

١ ـ أولها: (كتاب الشفاء)، الذي ألفه أثناء قضائه، بحيث كان يختلس من أوقاته لهذا الغرض، فقد قال في مقدمته[١]:

«. . . فبادرت إلى نكت سافرة عن وجه الغرض، مؤدياً من ذلك الحق المفترض، اختلستها على استعجال، لما المرء بصدده من شغل البدن والبال، بما قلّده من مقاليد المحنة التي ابتلي بها، فكادت تشغل عن كل فرض ونفل، وتردُّ بعد حُسن التقويم إلى أسفل سفل. . .»، كما أنه كان يُقرأ عليه أيام قضائه بغرناطة سنة ٥٣١هـ[٢]، وكثيراً ما يحيل على كتاب الشفاء في مباحث إكمال المعلم، مما يدل على أنّ الإكمال ألف بعد الفراغ من تأليف كتاب الشفاء.

٢ ـ ثم ألف كتاب (الإلماع)، فإنه ذكر في نهاية شرحه لمقدمة صحيح مسلم ما يفيد أنه قد أنهى تأليف (الإلماع) قبل ذلك، حيث

---

(١) الشفاء: ١/٦، ٧.
(٢) أزهار الرياض: ١/١٣.

قال[1]: «... وبسطنا الكلام في هذه الفصول في كتاب (الإلماع لمعرفة أصول الرواية)، وأشرنا منه إلى نكت غريبة لعلك لا تجدها مجموعة في غير هذين الكتابين».

أما إحالته الوحيدة التي في (الإلماع)[2] على (الإكمال) فأرى أنها كانت بعد تأليفه كتاب (الإلماع) بفترة، وعند نظره فيه في مرة من المرات، أو باعتبار ما يتوقعه ويؤمّله، ويمكن أن يستأنس للتوجيه الثاني بأنه ذكر اسم شرحه بسمة غير التي نص عليها وحرّرها في مقدمة هذا الشرح.

ويمكن أن يكون الكتابان بين يديه، يؤلف هذا وهذا في الوقت نفسه، إذ يبعد أن يكون قد ألف (إكمال المعلم) بهذا الحجم الكبير في وقت قصير، ودون أن يتخلل ذلك تأليف كتاب آخر أو أكثر، وهذا الاحتمال الأخير له وجاهته.

٣ ـ ثم ألف كتاب (إكمال المعلم)، وقت إعفائه من قضاء مدينة غرناطة، كما تقدم في النقل عنه من مقدمة إكمال المعلم.

٤ ـ ثم ألف كتاب (مشارق الأنوار)، والذي يدل على أنه ألفه بعد (إكمال المعلم) ما ورد في مقدمة المشارق من توجيه عدم توسعه

---

(١) مقدمة إكمال المعلم، ص ٣٨٣.

(٢) الإلماع، ص ١٨١.

في شرح معاني الكلمات فيه، حيث قال[1]:

«. . . إذ لم نضع كتابنا هذا لشرح لغة وتفسير معان، بل لتقويم ألفاظ وإتقان، وإذ قد اتسعنا بمقدار ما تفضل الله به وأعان عليه في شرحنا لكتاب صحيح مسلم المسمى بالإكمال».

كما أشار في مقدمة الإكمال التي وضعها بعد انتهائه من تأليفه، أن كتاب (المشارق) كان حينئذ بين يديه، أي إنه كان آنذاك بصدد تأليفه[2].

٥ ـ أما كتاب (ترتيب المدارك) فيبدو أنه من آخر هذه الكتب، لأنه قد أتم تأليفه، ولكن لم يجد الفرصة لإسماعه للطلبة[3].

٦ ـ وكذلك كتاب (الغنية)، فقد ترجم فيه لبعض شيوخه الذين قاربت تواريخ وفياتهم تاريخ وفاته، مثل أبي بكر ابن العربي المتوفى سنة ٥٤٣هـ[4]، ومعلوم أن وفاة القاضي عياض (رحمه الله) كانت سنة ٥٤٤هـ.

---

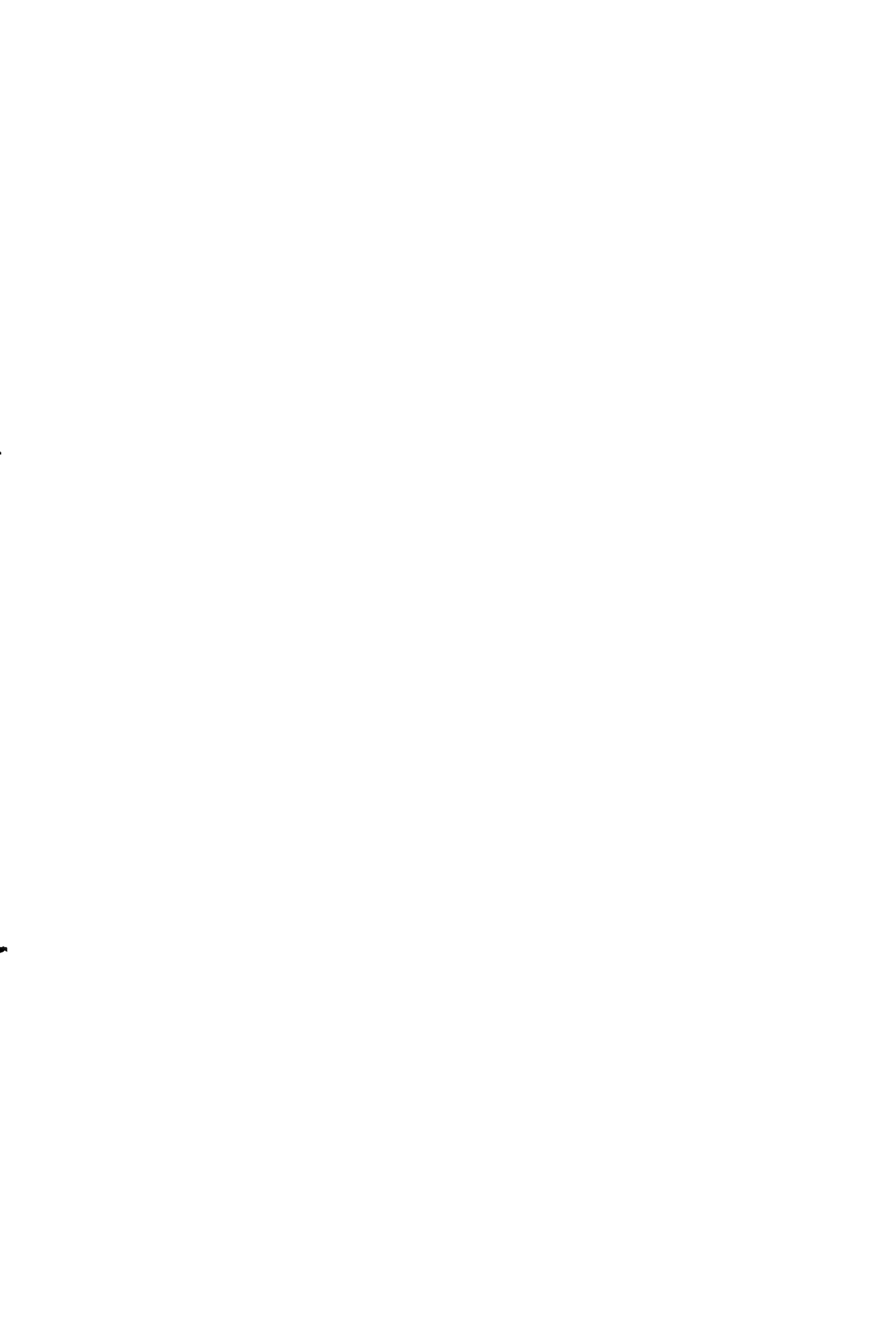
(١) مشارق الأنوار، ١ / ٣٠.
(٢) مقدمة إكمال المعلم، ص ٧٦.
(٣) التعريف بالقاضي، ص ١١٦.
(٤) الغنية، ص ٦٨.

بهذه المؤلفات القيمة والكتب المحرّرة، أسهم القاضي (رحمه الله) في إثراء المكتبة الإسلامية، وغدت مصنفاته منهلاً عذباً للواردين، ومصدراً أساساً للمصنفين في مختلف فنون العلم.

قال العلامة الصحراوي[1]: «وانظر إلى عياض فلا ترى تأليفاً معتبراً من تواليف أهل الحديث ولا أصحاب السير والفقهاء إلا وجدته مشحوناً بكلامه مع أنه لم يرحل إلى المشرق».



(١) نقله عن صاحب فهرس الفهارس: ٢/ ١٨٨.



الفصل الرابع

تلاميذ القاضي عياض

من أعظم آثار عياض (رحمه الله) كثرة تلاميذه من الأندلسيين والمغاربة، بحيث لا نكاد نجد أحداً من أهل الطبقة التي تلت طبقة عياض في تلك الديار إلا وقد تتلمذ عليه وأخذ عنه العلم، وكفاه بذلك شرفاً وفخراً، فإن ذلك من أعظم القربات، كما قال العلامة الصحراوي[1]:

«مقام القاضي عياض مقام البخاري ومسلم والأئمة الأربعة، فهم حملة الشريعة، وعلومهم التي يبثونها في صدور الرجال بالتلقين أو التأليف هي أورادهم والوسيلة التي بينهم وبين الله، وذلك أجلّ الأوراد، وأجدرها نفعاً، وأبقى ثواباً، وأئمة العلم المذكورون لا زالوا بعلومهم كأنهم أحياء، وكل من استفاد مسألة علمية من كتبهم فهم أشياخه إلى يوم القيامة».

---

(١) نقله عنه الكتاني في فهرس الفهارس: ٢/ ١٨٨.

ونظراً لكثرة عدد تلاميذ عياض وصعوبة استقصائهم فأنا أذكر عشرة من مشاهيرهم استغناء بهم عمن عداهم، وتنبيهاً على فضل عياض حيث تخرج على يديه أمثال هؤلاء الأئمة الذين نفع الله بهم هذه الأمة:

١ ـ إبراهيم بن يوسف المَرّي، المعروف بابن قرقول (ت٥٦٩)[١]:

محدث واسع الرؤية، فقيه، لغوي، أصله من الأندلس، ثم انتقل إلى فاس، وبها كانت وفاته، ومن مظاهر تأثره بشيخه عياض وحبّه له أنه ألف على المشارق كتاباً سماه: (مطالع الأنوار).

٢ ـ أحمد بن عبد الرحمن الصقر، الأنصاري الخزرجي (ت٥٦٩)[٢]:

محدث حافظ، فقيه بارع، أصولي متمكن، لغوي، أديب، شاعر، أصله من الأندلس، وانتقل إلى مَرَّاكُش، وبها كانت وفاته، له مصنفات مفيدة، منها: شرح الشهاب.

---

(١) شجرة النور الزكية: ١/ ١٤٦؛ كشف الظنون: ٢/ ١٧١٥.
(٢) شجرة النور: ١/ ١٥١؛ الديباج المذهب، ص ٤٨.

٣ ـ خلف بن عبد الملك بن بشكوال (ت٥٧٩)[١]: إمام، حافظ، محدث، فقيه، أصولي، مؤرخ، جمع بين علوم الرواية والدراية، سمع من القاضي بقرطبة، ثم كتب إليه القاضي من سبتة مجيزاً بمروياته ومؤلفاته، له تصانيف بديعة، منها: (كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وقضاتهم وأدبائهم)، وكتاب معجم شيوخه، و(الغوامض والمبهمات)، و(رواة الموطأ عن مالك)، وغيرها.

٤ ـ عبد الرحمن بن أحمد الأزدي، المعروف بابن القصير (ت٥٧٥)[٢]:

محدث واسع الرواية، فقيه، أديب، أصله من الأندلس، ثم ارتحل إلى المغرب، واستقر بإفريقية، له مصنفات كثيرة، منها: (اختصار الموطأ) و(اختصار سنن الترمذي) و(استخراج الدرر وعيون الفوائد والخبر).

٥ ـ عبد الرحمن بن محمد الأنصاري، المعروف بابن خبيش (ت٥٨٤)[٣]:

---

(١) المعجم في أصحاب الصدفي، ص ٨٥؛ تذكرة الحفّاظ: ٤/ ١٣٣٩.
(٢) الديباج المذهب، ص ١٥٢؛ أزهار الرياض: ٣/ ١٦.
(٣) شجرة النور: ١/ ١٥٧.

أحد أئمة العلم في وقته بالأندلس، عالم بالقراءات وعلوم القرآن، بصير بالحديث وعلله ورجاله، لغوي، متفنن في العلوم، أجاز له عياض رواياته ومؤلفاته، صنف كتباً بديعة، منها (كتاب المغازي) في مجلدات كثيرة.

٦ ـ عبد الرحيم بن عيسى الأزدي (ت٦٠٦)[١]:

فقيه، محدث، متفنن في سائر العلوم، قوي أثره العلمي في مدينة فاس، ومختلف مدن المغرب، واستجازه طلبة العلم من أقاصي البلاد.

٧ ـ عبد الله بن أحمد العَبْدَريّ، المعروف بابن أبي الرجال (ت٥٦٦):

محدث، حافظ، مقرئ، فقيه، من كبار علماء الأندلس، له تآليف مفيدة، منها: (شرح صحيح مسلم)، وقد توفي قبل إتمامه، و(شرح على رسالة ابن أبي زيد القيرواني) في الفقه المالكي.

٨ ـ محمد بن حسن بن عطية، المعروف بابن غازي (ت بعد ٥٦٠)[٢]:

---

(١) شجرة النور: ١/ ١٦٥.

(٢) المرجع السابق: ١/ ١٦٣.

فقيه محقق متقن، شاعر، أديب، من أهل سبتة، وكان له اختصاص بعياض، حيث لازمه كثيراً، وسمع منه، وقرأ عليه، وتحمل عنه معظم روايته ومؤلفاته، ثم تصدّر بعد ذلك للتدريس، وانتفع به أهل سبتة.

٩ ـ محمد بن خير الأموي، أبو بكر الإشبيلي (ت٥٧٥)[(١)]:

إمام فاضل، مقرئ متقن، محدث واسع الرواية، أديب لغوي، مشارك في سائر العلوم، وهو أحد أئمة وقته ببلاد الأندلس، أخذ عن القاضي سماعاً وإجازة، له مؤلفات بديعة، منها فهرسة شيوخه.

١٠ ـ محمد بن سعيد الأنصاري الإشبيلي، المعروف بابن زرقون (ت٥٨٦):

أحد مبرزي فقهاء وقته، لغوي، أديب، شاعر، مشارك في سائر العلوم، وقد لازم عياضاً كثيراً، واختص به، وكتب له أيام قضائه بغرناطة، له مصنفات بديعة، منها: (كتاب الأنوار) جمع فيه بين المنتقى للباجي والاستذكار لابن عبد البر، و(الجمع بين سنن الترمذي وسنن أبي داود).

---

(١) تذكرة الحفّاظ: ٤/١٣٦٦؛ فهرسة ابن خير، ص ١٩٦، ١٩٧.

فهؤلاء العشرة عنوان على من عداهم من تلاميذ هذا الإمام، ومما زاد في كثرة تلاميذ عياض أن الأوضاع في الأندلس بدأت تتغير، وبدأ كثير من أهل العلم وعامة الناس يرتحلون من الأندلس إلى المغرب، ليمروا في طريقهم بسبتة فيلتقوا بالقاضي عياض ويأخذوا عنه العلم، ثم يقومون بدورهم في إثراء الحياة العلمية بالمغرب وإفريقية.

* * *

الفَصل الخامِس

صِفات القاضي عيّاض، أبي الفَضل

امتاز أبو الفضل عياض بفضائل كثيرة وخصال نبيلة، وشمائل كريمة، شاعت عنه في الآفاق، وعرفها الخاص والعام، وظهر في مجتمعه أثرها البديع، فأحبّه الجميع، وعدُّوه في مصاف كبار العلماء الربانيين، الذين ترجموا علمهم إلى عمل، وجمعوا بين حلاوة القول وجمال الفعل، فلا عجب أن طار ذكره بالثناء في الآفاق، وارتبط اسمه وكتبه بالبهاء والإشراق، وكنّي بأبي الفضل دون أن يكون له ولد بهذا الاسم، تنبيهاً على سموّ المكانة وعلوّ الكعب في العلم والديانة، ووفرة الحظ من العفة والصيانة، فكان بذلك جمال عصره، ومفخرة دهره، ورئيس بلده بدينه وعلمه وأبوّته، حتى صار عنواناً وعَلَماً على بلاد المغرب فقيل: «لولا عياض ما عرف المغرب».

وقد أبلغ في الثناء عليه بذلك العدوُّ قبل الصديق نثراً ونظماً، فهذا الفتح بن خاقان، الذي أقام عليه أبو الفضل عياض حدّ الخمر

فوجد من ذلك موجدة عظيمة، يقول في حقه[1]: «جاء على قدر، وسبق إلى نيل المعالي وابتدر، واستيقظ لها والناس نيام، وورد ماءها وهم حِيَام، وتلا من المعارف ما أشكل، وأقدم على ما أحجم عنه سواه ونكل، فتجلت به للعلوم نحور، وتجلّت له منها حور ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾، ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾، قد ألحفته الأصالة رداءها، وسقته أنداءها، وألقت إليه الرياسة أقاليدها، وملكته طريفها وتليدها، فبزَّ على فتائه الكهول سكوناً وحلماً، وسبقهم معرفة وعلماً، وأزرت محاسنه بالبدر اللياح، وسرت فضائله مسرى الرياح، فتشوفت لعلاه الأقطار، ووكفت تحكي نداه الأمطار.

وهو على اعتنائه بعلوم الشريعة، واختصاصه بهذه الرتبة الرفيعة، يعنى بإقامة أود الأدب، وينسل إليه أربابه من كل حدب، إلى سكون ووقار كما رسا الطَّوْدُ، وجمال مجلس كما حليت الخَوْدُ، وعفاف وصون ما عَلِمَا فَسَاداً بعد الكون، وبهاء لو رأته الشمس ما باهت بأضواء، وخفر لو كان للصبح ما لاح ولا أسفر، وقد أثبت من كلامه البديع الألفاظ والأغراض ما هو أسحر من العيون النجل والجفون المراض».

وإذا كان هذا كلام من له على القاضي عياض موجدة، فماذا يقول المحب له؟.

---

(١) قلائد العقيان: ٣/ ٦٨٣، ٦٨٤ (مكتبة المنار).

ولذلك فقد وجدنا في مدحه أحياناً بعض المبالغات، كقول أبي الحسن بن هارون المالقي (ت٦٢١)[1]:

ظلموا عياضاً وهو يحلم عنهم	والظلم بين العالمين قديم
جعلوا مكان الراء عيناً في اسمه	كي يكتموه وإنه معلوم
لولاه ما فاحت أباطح سبتة	والروض حول فنائها معدوم

وقال صاحب أزهار الرياض:

فهو الإمام الذي سارت مآثره
في الشرق والغرب سير الشمس والقمر
وكم له من تآليف قد اشتهرت
بكل قطر، فَسَلْ تنبئك بالخبر

ولا شك أن مُطالع هذا الكتاب قد وقف في مواضع كثيرة عما ينطق بهذه الفضائل وتلك المآثر، وسوف أذكر هنا أهمها، وهو دال على ما سواه، وجلّه مستفاد من القطعة الأدبية الرائعة التي وصفه بها ابنه القاضي محمد[2]، بالإضافة إلى أهم مصادر ترجمته.

---

(١) أزهار الرياض: ٥/ ٨١.
(٢) التعريف بالقاضي، ص ٤ ـ ١٣.

١ ـ الموسوعية المعرفية:

إن موارد عياض ومصنفاته دالة بحق على أنّه من كبار علماء الأمة الموسوعيين، وإن قارئ كتبه ليعجب من تفننه، وسعة معارفه، وتشعب الفنون التي يتكلم فيها، مع البسط والتحرير وقوة العارضة، فهو يتكلم في كل علم من علوم الشريعة ومتعلقاتها كلام كبار أئمته، حتى كأنه متخصص فيه وحده، ولذلك نجد النقول عنه في كتب العقيدة والتفسير والحديث والفقه والأصول واللغة والسيرة والمغازي والتاريخ، ويحرص أهل كل علم أن يستأثروا به ويضمِّنوه في تراجم أهل علمهم.

وقد أثنى عليه المترجمون له بهذه الموسوعية المعرفية، قال الداودي[1]: «كان القاضي أبو الفضل إمام وقته في الحديث وعلومه، عالماً بالتفسير وجميع علومه، فقيهاً، أصولياً، عالماً بالنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم، بصيراً بالأحكام، عاقداً للشروط، حافظاً لمذهب مالك. . .».

وقال ابن كثير[2]: «كان إماماً في علوم كثيرة، كالفقه، واللغة، والحديث، والأدب، وأيام الناس». وجاء في إجازة الحافظ ابن عتّاب

---

(١) طبقات المفسّرين: ٢/ ١٩.
(٢) البداية والنهاية: ١٢/ ٢٢٥.

لعياض: «ولمّا رأيت ما هو عليه الفقيه أبو الفضل حفظه الله من الفضل، والخير، والديانة، والفهم، والعلم، وأخذه من كل العلوم بأوفر نصيب، أجزت له جميع ما رويته»[1].

٢ ـ الفطنة وقوة الحفظ والفهم:

اتفقت مصادر ترجمة عياض على تميزه بذكاء وقّاد، وحافظة قويّة وفهم سريع، وهي صفات ظهرت عليه بوادرها منذ الصغر، وكانت من أعظم أسباب نبوغه وتفوقه، قال ابن بشكوال[2]: «وهو من أهل التفنن في العلم والذكاء واليقظة والفهم»، وقال ابنه[3]: «... فنشأ على عفة وصيانة، مرضي الخلال، محمود الأقوال والأفعال، موصوفاً بالنبل والفهم والحذق».

وقد حفظ عياض القرآن وهو في سن التمييز، وحفظ مسائل المدونة، ومختصر ابن أبي زيد القيرواني، كما أن طريقته في التصنيف تدل على قوة استحضار وحفظ لمتون السنة، وظهرت قوة فهمه جلية في استنباطاته الفقهية، وفي إجلاسه للمناظرة عليه في المدونة فور عودته من الأندلس، مع توافر شيوخه وكبار علماء بلده.

---

(١) التعريف بالقاضي، ص ١٠٧.
(٢) الصلة، ص ٤٢٩.
(٣) التعريف بالقاضي، ص ٤.

وكتب الراوية أبو بحر سفيان ابن العاصي ضمن إجازته لعياض: «وكان تولى الله رعايته من السّرو، والنبل، والذكاء، والفضل، بحيث يتلقى بالإسعاف ما يسأل»[1].

٣ ـ سرعة القراءة والاستيعاب:

إن سرعة الاستيعاب من أقوى الملكات المساعدة للعالم، وهي من ثمرات الذكاء وقوة الحفظ والفهم، وكانت من الخصال المعروفة لدى عياض، قال ابنه: «أخبرني ابن عمي أبو عبد الله الزاهد (رحمه الله) أنه وصل إلى بلدنا رجل غريب، أوصل معه كتاباً غريباً في سفرين ـ لا أدري من أي نوع من العلوم ـ فاستعاره منه الفقيه أبو إسحاق بن الفاسي، فكان يغرب عليهم في المجلس بما يورد منه، قال لي (رحمه الله): وكان أبوك يحضر عنده فكان يستغرب ما يورده الشيخ، فوقع على خبر الكتاب، وحان على صاحبه السفر، فأخذه من الشيخ، قال لي: فاجتمع أبوك بصاحب الكتاب، ورغب إليه في تركه عنده تلك الليلة فقط، فدفع له الكتاب، قال لي: قال أبوك: فلما صليت العشاء الآخرة وضعتُ الكتاب بين يدي، فجعلت أتثبّت فيما يُستغرب منه، وأتساهل في غير ذلك، فما طلع الفجر إلا وأنا على آخره، وصرفت الكتاب على صاحبه، وأتيت مجلس الفقيه أبي إسحاق، فمن حيث

---

(١) التعريف بالقاضي، ص ١٠٧.

أراد إيراد شيء منه سبقته إليه مرة وثانية، إلى أن قال لي: من أين لك هذا؟ فقلت: من ذلك، قال: فقال: وكيف وفي عشية أمس أخذه مني؟ فأعلمته الخبر فبرّك علي، وكان لا يورد شيئاً منه حتى يقول لي: وهذا من ذاك أو نحو هذا.

وأخبرني (رحمة الله عليه) أنه كان جالساً مع أبي (رحمة الله عليه) في عشية يوم على دُكان مسجده، بقرية بليونش، إذ أتى بعض طلبته بجزء لا أثبت أنا قدر جرمه، فأخذه أبي (رضي الله عنه) من يده، وجعل يستغربه ويورّق فيه، وينظر تارة، ويتحدّث معهم تارة، فلما حان موعد انصرافهم دفعه لصاحبه، فقال له: يا سيدي، أمسكه حتى تقضي منه أربك، فقال له: لا حاجة لي به، فما بقيت فيه فائدة إلا أخذتها، أو نحو هذا.

وأخبرني بعض أصحابنا أنه سمعه يقول: لما وصل إلى بلدنا كتاب المقامات للحريري ـ وكنت لم أرها قبل ـ لم أنم ليلة طالعتها حتى أكملت جميعها بالمطالعة».

٤ ـ العقلية النقدية:

إن النقد والتمحيص والتحقيق وإعمال الذهن وعدم النقل دون فهم سمة بارزة في جميع مصنفات عياض، حيث إنا نجده يُعْمِلُ حدّة ذهنه وثاقب فكره في فهم النصوص ونقد النقول، وعدم التقيُّد بتقليد

ما يجده في الكتب، ومن الأمثلة على ذلك مخالفتُه لمن سبقه من أهل العلم في مذهبهم حول مقصد مسلم وهل حقق غرضه من الكتاب أم توفي قبل إتمامه، حيث قال بعد أن نقل كلام أبي عبد الله الحاكم النيسابوري:

«هذا الذي تأوَّله أبو عبد الله الحاكم على مسلم من اخترام المنية له قبل استيفاء غرضه من الكتاب مما قبِله الشيوخ وتابعه عليه الناس في أنه لم يكمل غرضه إلا من الطبقة الأولى، ولا أدخل في تأليفه سواها. وأنا أقول: إن هذا غير مسلم لمن حقق نظره، ولم يتقيد بتقليد ما سمعه»[1].

وقال بعد أن قرّر مذهبه في قضية أصولية خالف فيها كثيراً من أهل الأصول: «... فالحق أحق أن يتبع لا سيما بخلاف ليس في قاعدة دين، ومقالة تلوح بالحق واليقين»[2].

وكان يناقش مشايخه، ويحاورهم، ويفاوضهم، ولا يسلم إلا إذا تبين له الحق، من ذلك قوله: «وقد فاوضت في تأويلي هذا ورأيي فيه من يفهم هذا الباب، فما وجدت منصفاً إلا صوّبه وبان له ما ذكرت، وهو ظاهر لمن تأمَّل الكتاب، وطالع مجموع الأبواب»[3].

---

(١) مقدمة إكمال المعلم، ص ١٢٣.
(٢) إكمال المعلم، ص ١٣٤.
(٣) مقدمة إكمال المعلم، ص ١٣٢.

٥ ـ المداومة على النظر في كتب العلم مطالعة وتدريساً:

إنّ مواكبة ما يستجدُّ في مجال التخصص ومداومة الصلة بما يكتبُ حوله من أهم أسباب التفوق ومن أبرز وسائل الإنجاز والإبداع، ولم يغب هذا الأمر على عالمنا أبي الفضل، فقد كان مداوماً على مطالعة كتب العلم، حريصاً على الاطلاع على الجديد منها، قال ابنه[1]: «كان كثير المطالعة، لا يفارق كتبه، كثير البحث على العلم، توفي وهو طالب له».

وقد تقدم معنا في الصفة الثالثة أنه لم ينم ليلة وصول مقامات الحريري حتى قرأ جميعها.

كما أنه كان مداوماً على تدريس كتب العلم لطلابه، لا ينفك عن ذلك حتى في أيام الحصار والحروب، فقد ذكر ابنه فتنة الحرب مع الموحدين، وقال[2]: «وهو مع ذلك يسمع حديث رسول الله، ويدرّس الفقه».

٦ ـ محبة العلم وأهله ومساعدة طلابه:

كان (رحمه الله تعالى) شديد الرغبة في تحصيل العلم، باذلاً في

---

(١) التعريف بالقاضي، ص ٥.

(٢) المرجع السابق، ص ١٢.

طلبه لبّ عقله وثمرة فؤاده ودقائق حياته ونفيس ممتلكاته، كما كان يعظم أساتذته ويوفيهم ما هم له أهل من التوقير والتبجيل والإنصاف، مع محبة لطلبة العلم ومساعدة لهم مادياً ومعنوياً على ما هم بصدده من سلوك سبيل تحصيله، قال ابنه(١): «كان طالباً للعلم، حريصاً عليه، مجتهداً فيه، معظماً عند الأشياخ من أهل العلم، كثير المجالسة لهم، والاختلاف إلى مجالسهم... منصفاً لأهل العلم، محبّاً في طلبة العلم، محرضاً لهم على طلبه، مسهلاً لهم الطرائق».

الفصاحة وجودة التأليف:

وصفت المصادر عياضاً (رحمه الله) بالفصاحة وجمال الصوت إذا خطب، مع عذوبة الألفاظ وسهولتها، وذلك أدعى للتأثير في جمهوره، بحيث تجمع لهم هذه الخصائص بين متعة الشكل وفائدة المضمون، مع أنه كان يخطب ارتجالاً.

ووصف كذلك بإجادة التأليف وإتقانه والإبداع فيه وكثرة فوائده، ومن قرأ في (الشفاء) مثلاً، أو (إكمال المعلم) أو (مشارق الأنوار) أو (بغية الرائد) أدرك ذلك، وفهم معنى قول الفتح بن خاقان(٢): «وقد أثبت من كلامه البديع الألفاظ والأغراض ما هو

---

(١) التعريف بالقاضي، ص ٤، ٥.

(٢) قلائد العقيان: ٣/ ٦٨٤، مكتبة المنار.

أسحر من العيون النجل والجفون المراض».

وقال ابنه[1]: «كان... يتصرف في نظمه أحسن تصرف، ويستعمل في شعره الغرائب من صناعة الشعر، مليح القلم، من أكتب أهل زمانه، خطيباً فصيحاً، حسن الإيراد، لا يخطب إلا بما يصنع، خطبته فصيحة ذات رونق، عذبة الألفاظ، سهلة المأخذ».

وفيما يلي أنموذج من خطبه: «... أيها الناس: اسلكوا جواد الحقائق، واتركوا بنيات الطرائق، ولا تغرّنكم الدنيا بكواذب المخارق، فإنها كثيرة البوائق، جمة العوائق، قاطعة للأسباب والعلائق، تاركة لمن هام بها مفارق، تدير دوائرها بكل صامت وناطق، كم أهلكت قبلكم من الخلائق، وطوت من الفراعين والعمالق، وطوحت من القياصر والبطارق، وطرحت العُصْم من أعلى الشواهق، وأسقطت من الجو كل خرق الجناح خافق.

وكم ذي بسطة ومنظر فائق، بعيد الصيت في جميع الخوافق، قد شيد الحصون في كل حالق، وأوصد الأبواب والمغالق، وأرصد الجيوش والفيالق، مغتراً بمساعدة دنياه واثق، فما راعه وهو في بُلَهْنِيَةٍ من عيشه الرائق، حتى رمته بثالثة الأثافي وحالقة الحوالق، فطرقته صروفها بشر طارق، وسقته حتوفها كأساً لا يتمطق لها ذائق، فأصبح ذا

(١) التعريف بالقاضي، ص ٤، ٥.

بصر خاشع ونفَس زاهق، وفارقه روحه فراق غير وامق، وكثر حوله البواكي والحوالق، وصرخت بداره النواعي والنواعق، وعوض من تلك الحشايا والمرافق، بوغا الدّمن وجلامد السمالق، وحيداً فريداً من كل مؤنس ومفارق، رهيناً بما اكتسبت يداه وخُطّ في المهارق، قطيناً لتلك الحفر إلى (يوم تبلى السرائر) وتعرض الخلائق.

فإما إلى جنة ذات بهجة وحدائق، وأنهار دوافق، وكواعب أتراب عواتق، وسرر وأكواب وأباريق، وزرابي مبثوثة ونمارق، ونعيم مسرمد متناسق، وإمّا إلى نار ذات لهب وصواعق، وحميم منتن غاسق، وعذاب مجدّد متلاحق، ملتظية على كل كافر وفاسق، جعلنا الله وإياكم ممن سعد في قدره السابق، ورزقنا عفوه ورحماه فهو خير رازق، إنّ أبلغ الوعظ وأنفع الرقائق كلام المهيمن الخالق»[1].

٨ ـ الدفاع عن العقيدة والقوة في الحق:

لقد ضرب القاضي عياض (رحمه الله) مَثَلاً رائعاً بمواقفه العظيمة في الدفاع عن عقيدة الإسلام العظيمة التي تشبّع بها ونافح عنها بلسانه وبنانه وسنانه.

فما أن ظهرت أخبار الموحدين، وعُلمت مخالفاتهم العقيديّة

---

(١) التعريف بالقاضي، ص ٨٦.

والسلوكية[1]، وتكفيرهم لغيرهم، ومبالغتهم في سفك الدماء وقتل الفقهاء ومُهَاجمة مذهب مالك؛ حتى جمع القاضي أعيان سبتة ونبّه الناس إلى مخاطر الموحدين على العقيدة وإفسادهم في الدين، وحذرهم من مغبة الدخول في طاعتهم والسماح لهم بدخول مدينتهم، وكان يومئذ رئيسهم بأبوته ومنصبه، فاجتمعوا تحت قيادته، وخاض بهم الحرب ضد الموحدين حتى ردهم عن دخول سبتة، قال ابن خلدون[2]: «... واستمر عبد المؤمن على حاله فنازل سبتة، وامتنعت عليه، وتولى كبر دفاعه عنها القاضي عياض الشهير الذكر، كان رئيسها يومئذ بدينه وأبوته ومنصبه، ولذلك سخطته الدولة آخر الأيام حتى مات مغرّباً عن سبتة».

وقد نازلهم عدة مرّات، ثم اضطر آخر الأمر للخضوع حقناً لدماء أهل بلده، واتباعاً لأخف الضررين، مع إدراكه لخطورة ذلك عليه شخصياً، وأنه سيكلفه حياته، ولكن ذلك عنده هيّن في سبيل إرضاء ربه عز وجل والدفاع عن عقيدة أهل السنة والجماعة، فعندما غادر عياض سبتة مدعواً من أمير الموحدين كان مفهوم التضحية بنفسه من أجل أهل بلده واضحاً لديه، ولهذا فعندما ودَّعهم كان يبكي ويقول:

---

(١) راجع ما تقدّم في التمهيد، وفي مبحث الإصلاح السياسي.

(٢) تاريخ ابن خلدون: ٦/ ٢٣٠.

«جعلني الله فداكم»، وكأنه أحس بأنه لن يعود إليهم وأن ذلك آخر لقائه معهم ورؤيته لهم، وذلك ما حدث، فقد منعه عبد المؤمن من العودة، وأمره بملازمته حتى لا يقود ثورة جديدة ضد الموحدين، ثم نفاه إلى داي، وأمر بقتله كما جاء في بعض المصادر[1].

ومن مواقف عياض في نصرة العقيدة فتواه بتكفير الشاعر محمد بن هانئ الأندلسي الذي مدح المعز بقوله:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار[2]

ومن مظاهر دفاع القاضي عن عقيدة أهل السنة موقفه من كتاب (إحياء علوم الدين) لأبي حامد الغزالي لما فيه من الميل إلى نوع من التصوف المذموم وتقرير لعلوم المكاشفة، والذي ثبت عن القاضي عياض رحمه الله ما ذكره ولده في التعريف به حيث قال[3]: «أخبرني ابن عمي أبو عبد الله الزاهد (رحمة الله عليه) قال لي:

تذاكر يوماً عمّي (يريد أبي رضي الله عنه) مع شيخه أبي محمد ابن منصور كتاب الإحياء لأبي حامد، فقال أبي (رحمة الله عليه): لو اختصر هذا الكتاب، واقتصر على ما فيه من خالص العلم لكان كتاباً

---

(١) انظر مثلاً: المرقبة العليا، ص ٩٥.
(٢) الكامل: ٧/ ٤٦؛ دورة القاضي عياض: ١/ ١٨٢.
(٣) التعريف بالقاضي، ص ١٠٦.

مفيداً، فقال له أبو محمد بن منصور: فاختصرْه إذاً، فقال له أبي: أنت أخلق بذلك، فقال له أبو محمد: أحقّ يا أبا الفضل؟ لئن لم تختصره فما في بلدنا من يختصره».

هذا الموقف المعتدل هو الذي يتناسب مع علم عياض وتأنّيه وإنصافه، أما ما ذكرته بعض المصادر من أن عياضاً قد أفتى بإحراق كتاب الإحياء[1] فليس بثابت تاريخيّاً، كما أنه لا يتناسب مع ما ذُكِر من مواصفات عياض وخصاله، والصواب أن هذه الفتوى قد صدرت من علماء الأندلس قبل رحلة عياض إليها، وقبل ظهور اسمه في مجال الفتوى، لأن ذلك كان سنة ٥٠٣هـ، وعمر القاضي حينئذ سبعة وعشرون عاماً، وقد رحل إلى الأندلس بعد ذلك بأربع سنوات، وقد جاء في قصة الإحراق ما يلي[2]:

«إنّه في أول عام ثلاثة وخمسمئة عزم علي بن يوسف المرابطي على إجماع قاضي قرطبة أبي عبد الله محمد بن علي بن حمدين وفقهائها على إحراق كتاب أبي حامد الغزالي (رحمه الله) المسمى بالإحياء، فأحرق في رحبة مسجدها على الباب الغربي على هيئته بجلوده بعد إشباعه زيتاً، وحضر لذلك جماعة من أعيان الناس».

---

(١) شذرات الذهب: ٤/ ١٣٩.
(٢) دورة القاضي عياض: ١/ ١٨٥.

وقد تجدّد هذا الأمر في عهد تاشفين بن علي الذي كتب رسالة إلى أمير بلنسية سنة ٥٣٨هـ، جاء فيها: «ومتى عثرتم على كتاب بدعة، أو صاحب بدعة، وخاصة (وفقكم الله) كتب أبي حامد الغزالي، فليتتبع أثرها، وليقطع بالحرق المتتابع خبرها»[١]، غير أنه لم يرد ذكر اسم القاضي عياض ضمن من شاركوا في هذه الفتوى، سواء في عهد علي أو ابنه تاشفين.

ومن مواقف القوة في الحق وعدم خشية أحد في ذلك شدّة عياض أيام قضائه مع أهل السياسة وعمالهم، وحملهم على القيام بالعدل، وصدهم عن الظلم وحملهم على إعطاء حقوق الرعية، وتطبيق الحدود على المقربين منهم، كما فعل مع مسامرهم الفتح بن خاقان، قال ابنه[٢]: «كان... صلباً في الحق لا تأخذه في الله لومة لائم، وكان يأخذ أموره بالملاطفة والسياسة ما أمكنه، ويحلّ الأمور كذلك ما استطاع وإلا تقوّى، وكان يلاطف الأمراء، فإن امتنعوا من الحق تقوّى عليهم، غير هيوب لهم، مقداماً عليهم في صدهم عن الباطل، واستقضاء حوائج الرعية عندهم»، وقال ابن العماد[٣]:

---

(١) دورة القاضي عياض: ١/ ٤٢.

(٢) التعريف بالقاضي، ص ٥.

(٣) شذرات الذهب: ٤/ ١٣٨.

«وبالجملة فإنه كان عديم النظير، حسنة من حسنات الأيام، شديد التعصب للسنة».

رحم الله هذا العالم العامل المجاهد، وبوأه الفردوس الأعلى من جنته.

٩ ـ الربانية وكثرة التعبد:

إن قارئ كتب عياض (رحمه الله) يلمس بوضوح الجانب الرباني في شخصيته المتميزة، ويرى بجلاء تعظيم عياض لله عز وجل، ولرسوله ﷺ، ولشعائر هذا الدين العظيم، ويدرك شفافيته الروحية، وأنسه بالله عز وجل في خلواته، انظر مثلاً إلى قوله في مقدمة (الشفاء)[١]: «أما بعد، أشرق الله قلبي وقلبك بأنوار اليقين، ولطف لي ولك بما لطف بأوليائه المتقين، الذين شرفهم الله بنزل قدسه، وأوحشهم من الخليقة بأنسه، وخصهم من معرفته ومشاهدة عجائب ملكوته وآثار قدرته، بما ملأ قلوبهم حبرة، ووله عقولهم في عظمته حيرة، فجعلوا همهم به واحداً، ولم يروا في الدارين غيره مشاهداً، فهم بمشاهدة جماله وجلاله يتنعمون، وبين آثار قدرته وعجائب عظمته يترددون، وبالانقطاع إليه والتوكل عليه يتعززون، لهجين بصادق قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾».

---

(١) الشفاء: ١/ ٢٧.

وليس ذلك على مستوى القول فقط، بل إنه ترجم ذلك إلى عمل وكثرة تعبد، فأبو الفضل من الصائمين القائمين، والعباد المتبتلين، والعمال المجتهدين، مداوماً على قيام الليل وقراءة القرآن، لا يترك ذلك أبداً، ولعل هذا الأنس بعبادة الله والقرب منه هو سبب حب الناس له وما وضع الله له من القبول بينهم، قال ولده[1]: «. . . فكان من حفَّاظ كتاب الله تعالى، والقُيَّام عليه، لا يترك التلاوة له على كل حالة، مع القراءة الحسنة المستعذبة. . . عاملاً مجتهداً، صواماً، يقوم ثلث الليل الآخر لجزء من القرآن، لم يترك ذلك قط على أية حالة حتى يغلب عليه، متديّناً، متورعاً، متواضعاً، متشرعاً».

وقال تلميذه ابن القصير في وصفه[2]: «ظاهر الخشوع عند التلاوة وفي لحظه، سريع العَبْرة، مُديماً للتفكر والعبرة».

١٠ ـ الزهد في الدنيا:

لقد وهب عياض نفسه لربه ودينه، فأقبل على العلم والعبادة والجهاد وإصلاح مجتمعه، ولم يلتفت إلى الدنيا ومغرياتها، وتطلعت نفسه إلى الجنة ونعيمها، ولهذا فإنه لم يتلبس بأمور الدنيا، ولا شغل باله بها، وترك شؤون التصرف في الإرث وتصريف أموره لأخيه، وعدّ

---

(١) التعريف بالقاضي، ص ٥.

(٢) الإعلام بمن حلّ مراكش: ٩/ ٣٥٢.

نفسه في عياله، مع أنه بمنصبه ووجاهته وما ترك له والده يمكن أن يكون من كبار الأثرياء، وقد أتلف ما ورثه في وجوه البر والخير، قال ولده[1]: «وتوفي أبوه (رحمة الله على جميعهم) وترك نعمة، وذلك ـ فيما ذكر ـ نحو السبعة عشر ألف دينار، فلم يلتفت إلى شيء من ذلك؛ حرصاً على العلم، واشتغالاً بطلبه، وأبقى جميع ذلك بيد أخيه، وصار في عياله، يمونه كما كان يفعل به والده، إلى أن مات، رحمة الله على جميعهم.

ولما طالت مدته في خطة القضاء، أتلف أكثر ما ورث عن أبيه، حتى احتاج إلى بيع بعض رباعه بمدينة سبتة...».

١١ ـ الكرم والجود وقضاء الحوائج والإنفاق في سبيل الله:

زهد عياض في الدنيا، وبذلها لطالبيها بنفس طيبة، وقدّم أمواله بين يديه تقرباً إلى الله تعالى، فتاقت نفسه للحوق بها ونوال ثواب ذلك عند الله عز وجل.

كان (رحمه الله) يحبّ المساكين، ويسأل عنهم، ويتفقد أحوالهم، ويواسيهم بطيب كلامه وجود بنانه، يكفل اليتيم والأرمل، ويسعى في قضاء حوائج الناس، وتفريج كرباتهم، قال ولده[2]: «كان

---

(١) التعريف بالقاضي، ص ١١٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٥.

مبادراً لقضاء الحوائج، جواداً، سمحاً، من أكرم أهل زمانه، كثير الصدقة والمواساة».

١٢ ـ التواضع والسماحة وحسن العشرة:

امتاز أبو الفضل (رحمه الله) بجملة أخرى من الصفات الكريمة والخلال النبيلة، التي تدل على أنّ الرجل كان لا يريد إلا الله والدار الآخرة، وأنه قد ترجم علمه بحق إلى عمل، مترسّماً هدي النبي ﷺ، حريصاً على تطبيق سنته، فهو شديد التواضع برغم المنزلة العالية والمكانة السامية والوجاهة بين قومه، وهو حليم رحيم بالناس، ليّن الجانب، موطأ الأكناف، منصف من نفسه ومنصف للآخرين، ذاكر لفضائلهم، صبور على الأذى، يقدم اللين على الشدة، قال ولده[1]:

«كان لين الجانب، صبوراً، حليماً، موطأ الأكناف، جميل العشرة، حسن الأخلاق، بسّاماً، يكره الإطراء والإفراط في التصنع منه وله، لا يستسهل التكليف للناس والتحامل عليهم، منصفاً من نفسه، منصفاً لأهل العلم، صغير النفس غير متكبر، متواضعاً، متشرعاً، هيناً ليناً من غير ضعف، محبباً في قلوب العامة والخاصة».

وقد بلغه مرة عن أحد أصدقائه كلاماً ساءه فكتب إليه بهذه الأبيات:

---

(١) التعريف بالقاضي، ص ٥ (بتصرف يسير).

إلـى كَـمْ وكَـمْ أشيـاء منكـم تـريبنـي
أغمِّـض عنهـا لسـت عنهـا بـذي عمـى

أحـــاذر إن أكـــافِ عنهـــا بمثلهـــا
تكـــون لأسبـــاب القطيعـــة سُلَّمـــا

سـأصبـر حتـى يبلـغ المـوت بـي ولـم
أخُنْـك ولـو جـرّعتنـي الـدّهـر عَلْقمـا

فلما بلغت هذه الأبيات ذلك الصديق اعترف له بالفضل وذم نفسـه[١]، وهي دالّـة على سـموّ نفسـه وقـوة صبره، وشدة تـواضعه ووفائه.

وأنكر ذات مرة إعراض اثنين من المُقرّبين لديه، فكتب لهما[٢]: «ليت شعري أأعْتِبُ أم أُعتب، وأعترف بالذنب أم أذنب، لا جرم لو علمت لنفسي جرماً، لجعلتُ عليها برد الشراب حراماً، ولسلبتها لذيذ المنام عزماً، حتى يفيء إليها من وجد عليها، ويرضى عنها المتظلم منهـا، بعلائكما ما هذا الجفـاء؟ وأين ما تدعيانه من الوفـاء؟ أحين جدّت بنا الحال، وشدّت للنوى الرحال، ودعا بنا داعي الزماع،

---

(١) التعريف بالقاضي، ص ١١١.
(٢) المرجع السابق، ص ٩٤.

وخجلت عينٌ ويدٌ للوداع، اتخذتماني ظهرياً، وصرت عندكما نسياً منسياً، لا أعلم لكما علماً، ولا ألقاكما إلا حُلماً، كأنّ شملنا لم يزل متصدّعاً، وكأنا لطول افتراق لم نبت ليلة معاً، ماذا يريب الغريب من إغباب الأحباب، أمجالسة السلطان وموانسة الأوطان؟ أبى المجد من ذلك وأبيتُ، ولنا يا بيت بالعلياء بيت، أم صدود وملال ينافيه ذلك الجلال؟ أم قلة احتمال لما تشاهدانه من غلظ تلك الخلال؟

وُقِيتُما! من الذي يُعْطَى الكمال، أم ثم ذنب يوجب الصدود ويودي بودّ الودود، أسمعاه لأرجع إلى المتاب عن العتاب، وأبادر بنفسي عوض الكتاب، فأعذر ولا أعذل، وأنصف من نفسي وأعدل، والسلام».

إن هذه الرسالة العجيبة دلَّت على صفاء نفسيّة أبي الفضل (رحمه الله) وحلمه وصبره وقوة احتماله، وحرصه على حفظ الود والصلات وإدامة العشرة، كما تودّه على تواضع جم، وحرصه الشديد ألّا يكون لأحد عليه موجدة، واستعداده الكامل للتوبة والاعتذار لو علم من نفسه ما يدعو إلى ذلك، فإذا استحضرنا أنّ كاتب الرسالة زعيم قومه، علماً ووجاهة أدركنا أننا أمام أحد القمم الشامخة من جبال الرجال.

قال الفقيه محمد بن حماد السبتي[1]: «حاز من الرئاسة في بلده

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٢٠/ ٢١٥.

والرفعة ما لم يصل إليه أحد قط من أهل بلده، وما زاده ذلك إلا تواضعاً وخشية لله تعالى».

١٣ ـ الإيناس في المجلس ومرح الشخصية:

إن كثرة المسؤوليات وحساسية المنصب والوجاهة لم تصرف عياضاً (رحمه الله) عن طبيعة الأنس في مجالسه، ومرح شخصيته، التي كان يتمتع بها، فيضفي على من حوله جواً من الارتياح والاستئناس الذي يقوّي صلة العالم بمن حوله فيزداد أثره الإصلاحي بينهم، ومن مداعباته أن أحد طلابه صنع أبياتاً فعزم عليه أبو الفضل أن ينشدها، فقال[1]:

أيـــا مكثـــراً صـــدي ولـــم آت جفـــوة
ومـــا أنـــا عـــن أهـــل الجفـــاء بـــراضـــي

سـأشكـو الـذي تـوليـه مـن سـوء عشـرة
إلـــى حكـــم الـــدنيـــا وأعـــدل قـــاضـــي

ولا حكـــم بينـــي وبينـــك أرتضـــي
قضـايـاه فـي الـدنيـا سـوى ابـن عيـاض

فلما فرغ حَسَّن عياض، ثم قال له: يا أبا فلان، أقوّاداً تعرفني، وذلك على طريق المداعبة.

---

(١) أزهار الرياض: ٣/ ٢٠.

ومن صور الإيناس ومرح الشخصية أنه «تذاكر (رحمة الله عليه) مع جلة زعماء، وقادة علماء، وسادة أدباء، تعاطوا بينهم كأس الأدب، حتى ذهبت بهم في التغلغل فيه كل مذهب، فتسابقوا في ميدانه، وجرى كلّ ملء عنانه، إلى أن قصدوا التعجيز، وسدّوا باب المسامحة والتجويز، وقالوا: الغاية القصوى المعربة عن كل مدَّع في الأدب دعوى، أن نكتب رسالة معربة المعاني رائقة، ذات أصول ثابتة وفروع سامقة، فيلحق بين كل سطر منها زيادة توافق معانيها، ولا تخلّ من مبانيها، فتطاول لها (رحمة الله عليه)، وأزهارُ آدابه تنمّ، وقال: أنا لها ولكل أمر مهمّ، وعُيّنت له الرسالة، وكتب ما تقف عليه بعد إن شاء الله وقدّم بين يديها هذه القطعة، وهي:

قـل لـلأمـاجـد والحـديـث شجـون
ما ضـر إن شـاب الـوقـار مجـون

ولئـن غـدوتُ مـن العلـوم بمـوضـع
تـومـي إلـيّ أصـابـع وعيـون

فلـدي لـلآداب عيـن صبـة
فيهـا إلـى ملـح الظـروف ركـون

كنـا افتـرقنـا عنـد دعـوى خطـة
سـاءت بهـا فيمـا فهمـت ظنـون

فـــأتيـــت بـــالبـــرهـــان فيهـــا نيـــراً
وعـــدت عـــواد بعـــد ذا وشـــؤون
وبعثـــت حينئـــذ بهـــا ليعلـــم أننـــي
عيـــن الـــزمـــان وســـره المكنـــون»[1]

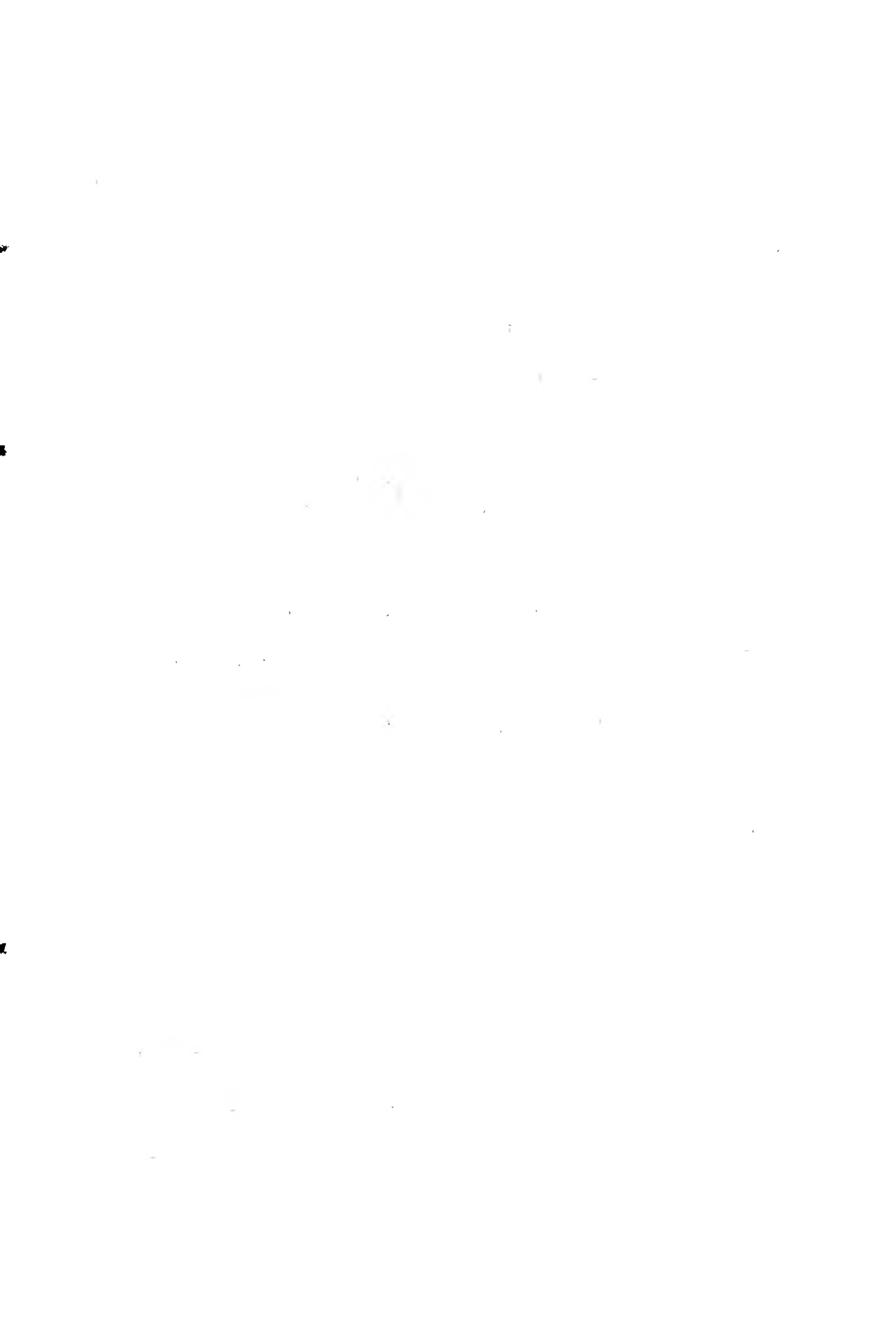
وقال ولده[2]: «كان حسن المجلس، كثير الحكاية والخبر، ممتع المحضر، عذب الكلام، مليح المنطق، نبيل النادرة، حلو الدعابة».

هذه بعض الخصال الدالة على تمكن أبي الفضل من جميل الخلال، وبلوغه في هذا الباب ما يصبو إليه البشر من درجة الكمال، أحسن الله جزاءه وأسكنه الفردوس الأعلى من جناته.

* * *

---

(١) التعريف بالقاضي، ص ٨٨.
(٢) المرجع السابق، ص ٥.



خاتمة القاضي عياض والثناء عليه

بعد حياة حافلة بالعطاء الخيّر النافع انتقل عياض إلى جوار ربه عز وجل، وتلك نهاية كل مخلوق، ولكن شتان بين من يكون له بعد وفاته الذكر الحسن والأثر الطيب كما هو حال أبي الفضل، وبين من يُضْربُ ذكره وتُطوى صفحة أخباره، أو يذكر بسوء الخصال وفساد الخلال، نعوذ بالله من ذلك.

عاش عياض (رحمه الله) عفيفاً صيّناً، مرضي الخلال، محمود الأقوال والأفعال، خدم علوم الشريعة الغراء تدريساً وتصنيفاً، واستقام عليها، ونافح عن عقيدته بقوة وصلابة، ولم يخش في الله لومة لائم، فكان أن امتُحن لأجل ذلك فثبّته الله في هذا الابتلاء وفارق الدنيا على ما كان عليه من الإباء والشموخ والقوة في دين الله.

أ ـ محنته ووفاته[1]:

لقد تقدم في التمهيد وفي مبحث الإصلاح السياسي أن عياضاً

---

(١) انظر: الاستقصا: ٢/ ١١١؛ تاريخ ابن خلدون: ٦/ ٢٣٠؛ التعريف بالقاضي، ص ١٣، ٩٨؛ المعجم في أصحاب الصدفي، ص ٣٠٨؛ الصلة: ٢/ ٤٢٩؛ الإعلام بمن حل مراكش: ٩/ ٣٣٣؛ المرقبة العليا، ص ٩٥؛ سير أعلام النبلاء: ٢٠/ ٢١٧؛ طبقات الشعراني: ١/ ١٥.

(رحمه الله) وعلماء المغرب لم يرضوا بالدخول تحت طاعة دولة الموحدين لما لها من المخالفات الشرعية البينة في مجال العقيدة والأحكام، مثل زعم ابن تومرت أنه المهدي المنتظر، وادعاؤه العصمة والعلم بالمغيّبات، وغير ذلك من الموبقات.

فتزعم القاضي (رحمه الله) أهل سبتة وصدّ الموحدين عنها، ثم دخلوها بعد ذلك عنوة فأطاعهم كرهاً، ثم ثار عليهم لما سنحت الفرصة لذلك، ولما أدرك هو وأعيان أهل سبتة فشل هذه الثورة أرسلوا وفداً بزعامة عياض إلى أمير الموحدين عبد المؤمن بن علي.

فأمر عبد المؤمن بهدم سور سبتة، ومنع عياضاً من العودة إليها، وأمره بملازمته حتى لا يقود أهل سبتة إلى ثورة جديدة، فأقام عياض معه والحال متغيّرة عليه، وتعرّض لكثير من الإيذاء النفسي، فإن الموحدين لم يكونوا لينسوا الضربات الموجعة التي تلقوها على يديه وأيدي أهل سبتة، وبخاصة قتل من كان بسبتة من الموحدين وحرق عمالهم بالنار.

والظن بعياض (رحمه الله) أنه لا يوافق على الإحراق ولا يقره، كما ذكر السلاوي، وقد قام عبد المؤمن بنفي عياض إلى قرية نائية، تقع بالبادية المغربية، هي قرية (داي)، حيث ولاه قضاءها، وهو نفي وتغريب، كما صرحت بذلك المصادر، فإن القاضي كان حينذاك من

السن والجلالة والجاه ما لا يناسب توليته قضاء محلة صغيرة بالبادية، وللقاضي شعر حَزين، وصف فيه غربته وآلامه في (داي)، ومما جاء فيه:

أقمرية الأدواح بالله طارحي
أخا شجن بالنوح أو بغناء
فقد أرقتني من هديلك رنة
تهيج من برحي ومن برحاء
لعلك مثلي يا حمام فإنني
غريب بداي قد بليت بداء
فكم من فلاة بين داي وسبتة
وخرق بعيد الخافقين قواء

ويبدو أن هذا التغريب لم يشف غليل الموحدين، فاستدعاه أميرهم إلى مراكش لمزيد من الإيذاء ولتدبير خطة للتخلص منه فيما يبدو، فقد أمره بالخروج معه إلى غزوة دُكّالة، ولكنه مرض في الطريق، فعاد إلى مراكش حيث توفي بعد حوالي أسبوع.

وقد اتفقت المصادر على أن عياضاً (رحمه الله تعالى) قد توفي مُغرباً عن سبتة سنة ٥٤٤هـ، وذلك يوم الجمعة السابع من جمادى

الآخرة، وأنه دفن في مدينة مَرَّاكُش بالمغرب الأقصى.

ثم اختلفوا في سبب وفاته على أقوال كثيرة أرجحها أنه قتل بأمر أمير الموحدين مسموماً أو مخنوقاً، لمعارضته لهذه الدولة وإنكاره عصمة إمامها، والله تعالى أعلم بالصواب.

أما ما ذكره الشعراني في طبقاته من أن وفاة عياض (رحمه الله) كانت بسبب دعاء أبي حامد الغزالي عليه بسبب إفتائه بإحراق (الإحياء)، فهو خبر باطل يتناقض مع حقائق التاريخ الثابتة، فإن الغزالي توفي سنة ٥٠٥هـ، وتوفي عياض سنة ٥٤٤هـ، بالإضافة إلى ما تقدم تحقيقه من أن عياضاً لم يشارك في فتوى إحراق كتاب إحياء علوم الدين للغزالي.

والراجح هو ما تقدم، ويبدو أن الموحدين قد دسّوا له السم أثناء رحلة (دكالة)، وذلك سبب مرضه، فأعادوه إلى مراكش حيث توفي بسبب السّمّ، أو يكون خُنق أثناء مرضه ذلك، فقد قال صاحب المرقبة العليا: «فجرت عليهما ـ يريد عياضاً وابن العربي ـ وأصابتهما فتن، ومات كل واحد منهما مغرباً عن أوطانه، محمولاً عليه من سلطانه، وقال بعضهم: سُمّ ابن العربي، وخنق اليحصبي».

رحم الله هذا الإمام الحافظ، العلاّمة العامل المجاهد، وأجزل مثوبته، وأسكنه الفردوس الأعلى من جنته.

ب ـ الثناء على القاضي عياض (رحمه الله تعالى):

بلغ أبو الفضل (رحمه الله تعالى) منزلة عالية في العلم والورع وخدمة هذا الدين والتضحية في سبيل الله، ونال بذلك شهرة واسعة لم ينلها إلا آحاد على مستوى تاريخ هذه الأمة، شهد له بذلك أساتذته وتلاميذه، وأبلغ المصنفون في وصف مآثره الحميدة وخصاله المجيدة، ولا تزال الألسنة تلهج بالدعاء له والثناء عليه، ولا يزال عمله إن شاء الله جارياً وثوابه دائماً لهذا العلم الذي تركه وينتفع به الناس من بعده.

وسأورد فيما يلي جملة من ثناء أهل العلم وغيرهم عليه لتكون عنواناً على ما عداها في الدلالة على علو مكانة عياض (رحمه الله) وعلو كعبه في العلوم وسموّ منزلته في النفوس:

١ ـ قال أمير دولة المرابطين علي بن يوسف بن تاشفين(ت٥٣٧) فيما كتبه إلى قاضي الجماعة بقرطبة في شأن عياض عندما عزم على الرحلة إلى الأندلس[١]: «... وعياض أعزه الله بتقواه وأعانه على ما نواه، ممن له في العلم حظ وافر ووجه سافر، وعنده دواوين أغفال، لم تفتح لها على الشيوخ أقفال، وقصد تلك الحضرة ليقيم أود متونها، ويعاني رمد عيونها، وله إلينا ماتَّة مرعية أوجبت الإشادة بذكره

---

(١) قلائد العقيان، ص ١١١.

والاعتناء بأمره، وله عندنا مكانة حفية تقتضي مخاطبتك بخبره، وإنهاضك إلى قضاء وطره، وأنت إن شاء الله تسدّد عمله، وتقرب أمله، وتصل أسباب العون له إن شاء الله».

٢ ـ وكتب وزير الدولة المرابطية بشأن هذه الرحلة مشيداً بفضل عياض قائلاً[١]: «... وله في الفضل مذاهب يبهرج عندها الذهب، وعنده من النبل ضرائب لا يفارق زندها اللهب، وستقربه فتستغربه، وتَخْبَرُه فَتُكْبِره إن شاء الله».

وإذا استحضرنا أن هذا كان في شبيبة عياض وقبل تَرَؤُّسه أدركنا أي فضل ووجاهة كان عليها أبو الفضل.

٣ ـ وقد عجب علماء الأندلس من نباهة عياض وعلمه وفضله ونبله، واستغربوا تواضعه وقدومه عليهم طالباً للعلم مع ما كان عليه من علو المكانة، ولم يستطيعوا إخفاء ذلك، ومما جاء في ذلك[٢]:

أ ـ قول شيخه أبي محمد بن أبي جعفر: «ما وصل إلينا من المغرب أنْبل من عياض».

ب ـ قول شيخه أبي الحسين ابن سراج عندما عزم عياض على الرحلة إلى بعض الأشياخ: «لهو أحوج إليك منك إليه».

---

(١) قلائد العقيان، ص ١١٥.

(٢) التعريف بالقاضي، ص ١٠٦، ١٠٧.

جـ ـ قول شيخه أبي عبد الله ابن حمدين: «وحقي يا أبا الفضل، إن كنت تركت بالمغرب مثلك».

د ـ ما كتبه شيخه أبو محمد ابن عتاب في إجازته له: «ولمّا رأيت ما هو عليه الفقيه أبو الفضل المذكور (حفظه الله) من الفضل، والخير، والديانة، والفهم، والعلم، وأخذه من كل العلوم بأوفر نصيب، أجزت له جميع ما رويته».

هـ ـ ما كتبه شيخه أبو بحر ابن سفيان في إجازته له: «وأبحت له (وفقه الله) أن يخبر بكل ذلك عني، لما بلوته من جودة حفظه لما يحمل، وثقته فيما يأثر وينقل، ورأيته أهلاً لأداء ذلك كله ونشره، وروايته عني وذكره».

٤ ـ وقال تلميذه عبد الرحمن بن أحمد الغرناطي، المعروف بابن القصير[1]: «لَمّا ورد علينا القاضي عياض غرناطة خرج الناس للقائه، وبرّزوا تبريزاً ما رأيت لأمير مؤمّر مثله، وحزرت أعيان البلد الذين خرجوا إليه ركباناً نيفاً على مئتي راكب، ومن سواد العامة ما لا يحصى كثرة... ولمّا استقر عندنا كان مثل التمرة؛ كلما ليكت زادت حلاوة، ولفظه عذب في كل ما صرّف من الكلام، للنفس إليه

---

(١) أزهار الرياض: ٣/ ١١ ـ ١٣.

تَتَوُّق، وله طلاوة، وكان برّاً بلسانه، جواداً ببنانه، كثير التخشع في صلاته، مواصلاً لصِلاته.

وقد جمعنا من سيرته جملاً في الكتاب الذي جمعنا في مناقب من أدركنا من أعيان عصرنا ونبهائه، وذكرنا له ما يُفَاخَر برونقه وبهائه، وكان مع براعته في علوم الشريعة خطيباً في تحبيره للخطب وفي لفظه، ظاهر الخشوع عند التلاوة وفي لحظه، سريع العَبرة، مديماً للتفكر والعِبرة، كاتباً إذا نثر، ناظماً إذا شعر...».

٥ ـ وقال تلميذه الحافظ ابن بشكوال[١]: «عُني بلقاء الشيوخ والأخذ عنهم، وجمع الحديث كثيراً، وله عناية كبيرة به، واهتمام بجمعه وتقييده، وهو من أهل التفنن في العلم، والذكاء، واليقظة، والفهم».

٦ ـ وقال ولده القاضي محمد[٢]: «... نشأ على عفّة وصيانة، مرضي الخلال، محمود الأقوال والأفعال، موصوفاً بالنبل والفهم والحذق، طالباً للعلم حريصاً عليه مجتهداً فيه، معظماً عند الأشياخ من أهل العلم، كثير المجالسة لهم، والاختلاف إلى مجالسهم، إلى أن برع في زمانه، وساد جملة أقرانه، وبلغ من التفنن في فنون العلم

---

(١) الصلة: ٢/٤٢٩.

(٢) التعريف بالقاضي، ص ٤، ٥.

ما هو معلوم، فكان من حفاظ كتاب الله تعالى والقيام عليه، لا يترك التلاوة له على كل حالـة، مع الحظ الوافر من تفسـيره، والقيام على معانيـه، وإعرابه، وشواهده، وأحكامه، وجميع أنواع علومه.

وكان من أئمة وقته في الحديث، وفقهه، وغريبه، ومشكله، ومختلفه، ومن صحيحه وسقيمه وعلله، وحفظ رجاله ومتونه، وجميع أنواع علومه، أصولياً متكلماً، فقيهاً، حافظاً لمسائل المختصر والمدونة قائماً عليها، حاذقاً بتخريج الحديث من مفهومها، عاقداً للشروط، بصيراً بالفتيا والأحكـام والنـوازل، نحويـاً، ريانـاً من الأدب، شـاعراً مُجيداً، مليح القلم من أكتب أهل زمانه، خطيباً فصيحاً، حافظاً للغة والأغربة والشـعر والمثل وأخبـار النـاس ومذاهب الأمم، عارفاً بأخبار الملوك وتنقّل الدول، وأيام العرب وسيرها وحروبها، ومقاتل فرسانها، ذاكراً لأخبار الصالحين وسيرهم، وأخبار الصوفية ومذاهبهم، مشاركاً في جميع العلوم...».

٧ ـ وقال الحافظ ابن الأبار[١]: «أبو الفضل القاضي المحدث الحافظ الحافل... كان لا يُدرَك شأوه، ولا يبلغ مداه في العناية بصناعة الحديث، وتقييد الآثار، وخدمة العلم، مع حسن التفنن فيه، والتصرف الكامل في فهم معانيه... وبالجملة فإنه كان جمال العصر،

---

(١) المعجم في أصحاب الصدفي، ص ٣٠٦، ص ٣٠٧.

ومفخرة الأفق، وينبوع المعرفة، ومعدن الإفادة، وإذا عدَّت رجالات المغرب فضلاً عن الأندلس حُسب فيهم صدراً. . . له تواليف مفيدة، كتبها الناس، وانتفعوا بها، وكثر استعمال كل طائفة لها».

٨ ـ وقال العلامة ابن فرحون[1]: «كان القاضي أبو الفضل إمام وقته في الحديث وعلومه، عالماً بالتفسير وجميع علومه، فقيهاً، أصولياً، عالماً بالنحو، واللغة، وكلام العرب، وأيامهم، وأنسابهم، بصيراً بالأحكام، عاقداً للشروط، حافظاً لمذهب مالك (رحمه الله تعالى)، شاعراً مجيداً، رياناً من الأدب، خطيباً بليغاً، صبوراً، حليماً، جميل العشرة، جواداً، سمحاً، كثير الصدقة، دؤوباً على العمل، صلباً في الحق».

٩ ـ وقال العلامة محمد الأمين الصحراوي نزيل مرّاكش[2]: «مقام القاضي عياض مقام البخاري ومسلم والأئمة الأربعة، فهم حملة الشريعة، وعلومهم التي يبثونها في صدور الرجال بالتلقين أو التأليف هي أورادهم، والوسيلة التي بينهم وبين الله، وذلك أجلّ الأوراد، وأجدرها نفعاً، وأبقى ثواباً، وأئمة العلم المذكورون لا زالوا بعلومهم

---

(١) الديباج، ص ١٦٨.
(٢) نقله عنه صاحب فهرس الفهارس: ٢/ ١٨٨.

كأنهم أحياء، وكل من استفاد مسألة علمية من كتبهم فهم أشياخه إلى يوم القيامة.

وانظر إلى عياض فلا ترى تأليفاً معتبراً من تواليف أهل الحديث ولا أصحاب السير والفقهاء إلا وجدته مشحوناً بكلامه، مع أنه لم يرحل إلى المشرق».

١٠ ـ وقال الحجوي[1]: «كان مقدم وقته في الحديث، والتفسير، والأدب، والشعر، والأصول، والفقه، والعلوم العربية، مشاركاً، له الرحلة من الأقطار، وله الرياسة في بلده فتيا وقضاء، خطيباً بليغاً، شاعراً مجيداً، كامل الأخلاق، حليماً، كريماً، صلباً في الحق... له تآليف حسنة شهيرة».

١١ ـ وقال محمد بن حماد السبتي[2]: «لم يكن أحد بسبتة في عصر أكثر تواليف من تواليفه... وحاز الرئاسة في بلده والرفعة ما لم يصل إليه أحد قط من أهل بلده، وما زاده ذلك إلا تواضعاً وخشية لله تعالى».

تلك مقتطفات مما أثنى به المغاربة على عياض (رحمه الله)، فماذا يقول عنه المشارقة؟

---

(١) الفكر السامي، ص ٢٢٣.

(٢) نقله عنه الذهبي في سير الأعلام: ٢٠، ٢١٤، ٢١٥.

١٢ ـ قال الإمام الذهبي[١]: «الإمام، العلامة، الحافظ، الأوحد، شيخ الإسلام القاضي أبو الفضل عياض... استبحر من العلوم، وجمع وألّف، وسارت بتصانيفه الركبان، واشتهر اسمه في الآفاق».

١٣ ـ وقال ابن خلكان[٢]: «كان إمام وقته في الحديث وعلومه، والنحو، واللغة، وكلام العرب، وأيامهم، وأنسابهم، وصنف التصانيف المفيدة...».

١٤ ـ وقال ابن العماد[٣]: «... وبالجملة فإنه كان عديم النظير، حسنة من حسنات الأيام، شديد التعصب للسنة والتمسك بها».

١٥ ـ وقال ابن كثير[٤]: «أحد مشايخ العلماء المالكية، وصاحب التصانيف الكثيرة المفيدة...».

١٦ ـ وقال السيوطي[٥]: «القاضي عياض... العلامة، عالم المغرب، أبو الفضل اليحصبي، السبتي، الحافظ... صنف التصانيف التي سارت بها الركبان... وبَعُد صيته، وكان إمام أهل الحديث في

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٢٠، ٢١٢، ٢١٤.
(٢) وفيات الأعيان: ٣/ ٤٨٣.
(٣) شذرات الذهب: ٤/ ١٣٩.
(٤) البداية والنهاية: ١٢/ ٢٨١.
(٥) طبقات الحفّاظ، ص ٤٦٩.

وقته، وأعلم الناس بعلومه، وبالنحو، واللغة، وكلام العرب، وأيامهم وأنسابهم».

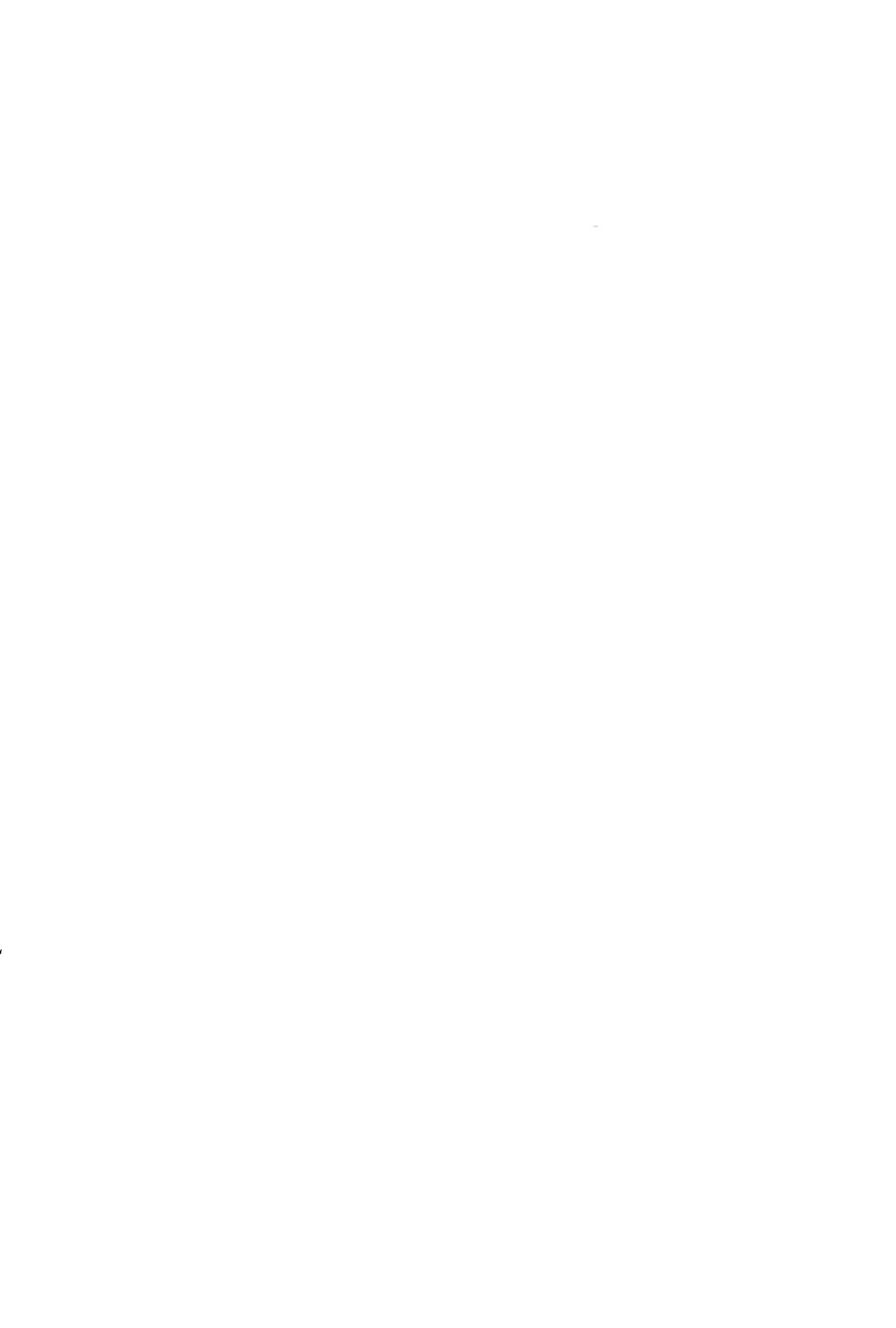
١٧ ـ وقال الأتـابكي[1]: «كان إماماً، حافظـاً، محدثـاً، فقيهاً، متبحراً».

وبعد، فماذا يبقى لي من القول بعد تلك الكلمات المنيرة، الصادرة عن أولئك الخيرة في وصف أحد كبار علماء الأمة البررة؟.

رحم الله عياضاً، فقد عاش متحليـاً بتلـك الخصال النبيلـة، والشمائل الكريمة، عالماً، وقاضياً، وعابداً، ومجاهداً، فكانت له تلك الآثار الحميدة، والعطاءات المجيدة، ولا يزال يذكر على مرّ الزمان بالثناء والتبجيل، ولا عجب أن يُقال في مدحه والثناء عليه ما قيل، فهو واحد من جهابذة الأمة الفضلاء، وعلمائها النجباء، وساداتها الأتقياء، تمسك بحبل الله المتين، والتزم الحق بالبرهان والدليل، وجمع بين القول والفعل، وترجم العلم إلى عمل، فطوبى له إن شاء الله المقام الكريم، مع محمد ﷺ وصحابته في عليين، وجزاه الله خير الجزاء عنا وعن الإسلام والمسلمين، وأجزل له المثوبة والعطاء مع الصديقين، والحمد لله رب العالمين.

* * *

(١) النجوم الزاهرة: ٥/ ٢١٤.



الخاتمة

أيها القارئ الكريم، لقد عشنا معاً فصول حياة هذا الإمام الجهبذ في رحلة شيقة ممتعة، انتابتنا فيها مشاعر شتى، بين إعجاب بشخصية أبي الفضل، وفرح بما أنجزه وخلفه للأمة من عطاء حافل، وبين تعاطف معه ومع أهل سبتة وهم يدافعون عن عقيدتهم وحرُماتهم، وبين إشفاق على أبي الفضل وهو يذهب في رحلة يحسّ بنور بصيرة المؤمن أنه لن يعود منها إلى أهله ووطنه، ولكن عزاءنا أنه أدى الأمانة على وجهها، وكان مثالاً رائعاً وقدوة سامقة للأجيال من بعده.

فهل تعي الأمة اليوم أنها بحاجة إلى علماء أمثال القاضي عياض، وهل آن الأوان لتعود إلى الأخذ بأسباب تخريج هذا النوع من الرجال، وليس ذلك بعسير، فالقرآن والسنة بين أيدينا، ومنهج النبي ﷺ في التربية واضح لدينا؟.

وها نحن نصل إلى الخاتمة لنلخص فيها أهم نتائج البحث:

١ ـ إن العلماء هم حملة الشريعة، وورثة علم النبوة، هيأهم الله

لخدمة هذا الدين، فأفنوا أعمارهم في تحصيل علوم الكتاب والسنة، واجتهدوا في الاستقامة عليها، وخدموها رواية ودراية وتصنيفاً وتدريساً، ونافحوا عن الشريعة الغراء، وكانوا لمن بعدهم منارات هدى، ومن هنا وجب بيان فضلهم، وتخليد ذكرهم، ونشر سيرهم، وتيسير الاستفادة منها، وأخذ العبر والفوائد من تراجمهم، والنسج على منوالهم، والسعي في تخريج أمثالهم لتحافظ الأمة على حيويتها ومكانتها، ولتواصل في أداء رسالتها التي هي مبرّر وجودها وبقائها واستمرارها.

٢ ـ إن القاضي عياضاً (رحمه الله) هو أحد كبار مشاهير أعلام الأمة من العلماء العاملين النجباء، وساداتها الفضلاء الأتقياء، الذين استفاضت المعرفة بعلمهم وفضلهم واشتهار ذكرهم وسمو مكانتهم، وقد بلغت شهرته آفاق بلاد المشرق والمغرب، ولا يبعد أن يقال إنه أشهر علماء المغرب على الإطلاق، لا يكاد يدانيه في ذلك إلا آحاد منهم، حتى قيل في حقه «لولا عياض ما عُرف المغرب»، فأصبح عياض الفرد عَلَماً على المغرب البلد.

٣ ـ وُلد أبو الفضل (رحمه الله) في مدينة سبتة ببلاد المغرب الأقصى في النصف من شعبان سنة ٤٧٦هـ، وتربى في كنف أسرة فاضلة موسرة وجيهة، فأقبل على حفظ كتاب الله تعالى ومجالسة العلماء حتى برع في مختلف فنون العلم، ونشأ على عفة وصيانة،

مرضي الخلال، محمود الأقوال والأفعال، موصوفاً بالنبل والفهم والحذق، حريصاً على طلب العلم.

٤ ـ تمتاز (سبتة) مدينة القاضي عياض بأنها خصبة التربة، التجارة فيها نافقة، والعلم غزير، وقد خرجت عشرات الجهابذة في كل فن، وجمع أهلها بين العلم والعبادة والجهاد واليسار، وخُصّت بالتأليف في القديم والحديث، وهي المجاز الوحيد بين الأندلس والمغرب، فما من عالم من أهل الأندلس ارتحل إلى المشرق إلا مر بها وتوقف فيها مفيداً ومستفيداً، كما أنه يجتاز بها حين عودته من رحلته، فيحدث فيها بما تحمَّله أثناء رحلته، وكذلك فإن من يذهب إلى الأندلس من المغاربة والمشارقة لا بد أن يمرّ بها، ويلتقي بالعلماء وطلبة العلم فيها، وما كان عياض الطالب النبيه ليضيع تلك الفرصة دون اغتنام، فنجده يستفيد من الوافدين إلى سبتة من الفريقين، مما كان له أبعد الأثر في تكوين شخصيته العلمية، وأغناه عن الارتحال في شبابه للطلب خارجها، لأنه قد وجد بغيته لدى شيوخ سبتة ومن حل بها مارّاً أو مستوطناً من أهل المشرق والمغرب والأندلس.

٥ ـ بعد أن استوفى عياض تكوينه الأساسي في سبتة خطط لرحلة علمية إلى الأندلس انتقى فيها شيوخه مسبقاً، وقد تحرك لهذه الرحلة أمير دولة المرابطين ووزير دولته لِما كان عليه عياض من العلم والنبل

والوجاهة، ولم تتجاوز هذه الرحلة ثلاثة عشر شهراً (١٥/ ٥/ ٥٠٧ ـ ٧/ ٦/ ٥٠٨هـ) أكمل فيها عياض تكوينه العلمي، ثم عاد إلى بلده، وبدأ سلسلة العطاء النافع.

٦ ـ أُجْلس عياض فور عودته للمناظرة عليه في المدونة، ثم كلِّف بالشورى، ثم وُلّي قضاء سبتة لثلاث بقين من صفر سنة ٥١٥هـ، واستمر في هذه المهمة إلى بداية صفر سنة ٥٣١هـ، وقد سار فيها أحسن سيرة، محمود الطريقة مشكور الخلال، جامعاً بين العدل والإحسان، فأحبه العامة والخاصة وزادوا في إجلاله وتوقيره.

ثم نقل إلى قضاء غرناطة في صفر سنة ٥٣١هـ فابتهج أهلها بمقدمه، وسار فيهم على المعتاد من سيمه السنية وأخلاقه المرضية، ووقف في وجه أصحاب السلطان وصدهم عن ظلم الرعية، وشرّدهم عن الأعمال، فضاقوا به ذرعاً وصرفوه عن قضائها في رمضان سنة ٥٣٢هـ.

ثم ولّي قضاء سبتة ثانية آخر عام ٥٣٩هـ فاشتدت بهجة أهل بلده بذلك، وسار فيهم السيرة المحمودة التي عهدوا منه، قوياً في الحق، لا يخشى في الله لومة لائم.

٧ ـ كان عياض أثناء ذلك منشغلاً بالتدريس لا ينفك عن ذلك، كما أنه كان يتحين الأوقات لتأليف كتبه، إلى أن وجد الفرصة مواتية

في المدة التي سُرّح فيها من القضاء من سنة ٥٣٢هـ إلى ٥٣٩هـ، وقد ترك للأمة مصنفات بديعة لا تزال تحتل مكان الصدارة في المكتبة الإسلامية، وأهمها: كتاب (الشفاء)، و(إكمال المعلم بفوائد صحيح مسلم)، و(مشارق الأنوار) و(الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع).

٨ ـ عاصر عياض حكم دولتين، وقد كان للأولى موالياً مطيعاً، وهي دولة المرابطين، التي وَحَّدت المغرب بعد تناحره، وتبنت عقيدة أهل السنة والجماعة، ومذهب مالك، وحكمت بالعدل، وعظمت الشرع، وقدمت العلماء ووقفت عند مشورتهم وأقوالهم، مما ساعد عياضاً على التفرغ للطلب ووفرة العطاء بعد ذلك، وقد استمرت هذه الدولة الشطر الأكبر من حياة عياض.

أما الفترة الأخيرة من حياته فقد كانت فترة بلاء ومحنة واضطرابات، قام فيها القاضي بواجب الجهاد ضد سلطان الموحدين دفاعاً عن معتقده وأداء للأمانة المناطة بأعناق العلماء، نظراً لفساد معتقد القائمين على هذه الدولة؛ كالقول بعصمة إمامهم، وتكفير من عداهم، والتغيير في الدين.

وقد دافعهم عياض عن سبتة مرات، ثم اضطر للخضوع إليهم عندما تغلبوا، حقناً للدماء، ولكنهم لم ينسوا له ذلك فغربوه عن بلده، ثم تسببوا في قتله يوم الجمعة ٧/ ٦/ ٥٤٤هـ، ودُفِن بمرّاكش.

٩ ـ أخذ عياض على عدد كبير من الشيوخ ذكر منهم مئة في فهرسته، منهم من كان من أهل سبتة والوافدين عليها، ومنهم من كان من أهل الأندلس، ومنهم من كتب له بالإجازة من المشرق، ومعظمهم من كبار علماء العصر، مثل أبي علي الجياني، وأبي علي الصدفي، وأبي طاهر السلفي والمازري.

كما تتلمذ عليه عدد وافر من العلماء، مثل ابن بشكوال وابن القصير وابن خير وابن أبي الرجال.

١٠ ـ برع عياض في علوم الشريعة كافة، وكان يتكلم في كل علم كأنه متخصص فيه وحده، فهو إمام في التفسير وعلوم القرآن، والحديث وعلومه، والفقه وأصوله، والعقيدة والكلام، والسير والمغازي والتاريخ، واللغة والأدب والشعر.

١١ ـ امتاز عياض بفضائل كثيرة، وخصال نبيلة، وشمائل كريمة، منها: الموسوعية المعرفية، والفطنة وقوة الحفظ والفهم، وسرعة القراءة والاستيعاب، والعقلية النقدية، والمداومة على النظر في كتب العلم مطالعة وتدريساً، ومحبة العلم وأهله ومساعدة طلابه، والفصاحة وجودة التأليف، والدفاع عن العقيدة والقوة في الحق، والربانية وكثرة التعبد، والزهد في الدنيا، والكرم والجود وقضاء الحوائج والإنفاق في سبيل الله، والإيناس في المجلس ومرح الشخصية.

١٢ ـ لقد أبلغ علماء المغرب والمشرق في مدح عياض والثناء عليه وذكر مآثره بما هو أهله، ولعل ذلك من علامات حب الله تعالى له وقبوله عنده، فإن الله إذا أحب عبداً جعل له القبول في الأرض، ولهج الخيّرون وأهل الفضل والصلاح بالثناء عليه، وهم شهداء الله في أرضه.

قال ولده[١]: «وأخبرني بعض أصحابنا قال لي: رأيت أباك في المنام في زيٍّ حسن، ومركب بهي، فكنت أسلّم عليه وأقول: يا سيدي أمُتَّ، فيقول لي: نعم، فأقول له: بماذا نلت هذه الدّرجة؟ قال: فيقول لي: بجوازي إلى الجزيرة الخضراء وسفري إلى مراكش.

كان (رحمة الله عليه) يوم سفره إلى مراكش يودع الناس ويبكي ويقول: جعلني الله فداكم، وجاز إلى الجزيرة الخضراء في زمن علي بن يوسف، وأزال ما كان بها من مظالم وقبالات».

قال ابن عياض[٢]: «ورأيت أبي (رحمة الله عليه) في النوم فكان يعلمني أن الله تعالى أدخله الجنة، ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ [المائدة: ٥٤]».

---

(١) التعريف بالقاضي، ص ١١٤، ١١٥.
(٢) المرجع السابق نفسه.

جزى الله عياضاً خير الجزاء وتقبله بقبول حسن، وأجزل له المثوبة والعطاء، وأسكنه من جنته الفردوس الأعلى ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠].

اللهم لك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما تحب وترضى، شكراً لنعمك العظيمة التي لا تعد ولا تحصى، ومنها إنجاز ترجمة هذا العلَم الفذ، وأسألك يا ذا الجلال والإكرام أن تجعل عملي فيه خالصاً لوجهك الكريم، وأن تدخر لي ثوابه يوم ألقاك، وأن تنفع به المسلمين، وتجعله سبباً لشحذ الهمم والتشمير عن ساعد الجد، إنك ولي ذلك والقادر.

وبالله التوفيق والعصمة من الزلل، والصلاة والسلام على نبينا محمد أفضل من أُرْسِل، ورضي الله تعالى عن صحابته الكرام النُّبْل، وعن التابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين والعَدْل.

الدكتور/ الحسين بن محمّد شواط
الرئيس السابق لقسم الدراسات الإسلامية
رئيس قسم البحث والترجمة
معهد العلوم الإسلامية والعربية في أمريكا.

فهرس المصادر

١ ـ آثار البلاد وأخبار العباد، زكرياء القزويني، بيروت، ١٣٨٠هـ.

٢ ـ اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، محمد بن القاسم الأنصاري السبتي، تح عبد الوهاب بن منصور، الرباط، ١٤٠٣هـ.

٣ ـ أزهار الرياض في أخبارِ عياض، أحمد بن محمد المقرّي، تح مجموعة من علماء المغرب، مطبعة فضالة بالمغرب.

٤ ـ أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام (القسم الخاص بالمغرب)، لسان الدين ابن الخطيب الأندلسي (ت٧٧٦)، تح أحمد العبادي ومحمد الكتاني، الدار البيضاء، ١٩٦٤م.

٥ ـ إكمال المعلم بفوائد صحيح مسلم، للقاضي عياض، مخطوط، نسخة مكتبة تشستر بيتي، رقم ٣٨٣٦.

٦ ـ إنباه الرواة على أنباه النحاة، علي القفطي، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية، ط١، ١٣٧١هـ.

٧ ـ الاستبصار في عجائب الأمصار، لمؤلف مجهول، تح سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية، ١٩٥٨م.

٨ ـ الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، أحمد السلاوي، تح ولدَي المؤلف، الدار البيضاء، ١٩٥٤م.

٩ ـ الاعتقاد على مذهب أهل السنة والجماعة، أحمد بن الحسين البيهقي (ت٤٥٨)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٤هـ.

١٠ ـ الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب الأندلسي (ت٧٧٦)، تح محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٣٩٣هـ.

١١ ـ الإعلام بحدود وقواعد الإسلام، للقاضي عياض، تح محمد بن تاويت، الرباط، ط٣.

١٢ ـ الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، العباس بن إبراهيم، تح عبد الوهاب منصور، الرباط، ١٤٠٠هـ.

١٣ ـ الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع، للقاضي عياض، تح السيد أحمد صقر، ط٢، ١٣٩٨هـ.

١٤ ـ الإنباه على قبائل الرواة، لابن عبد البر (ت٤٦٣)، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.

١٥ ـ الإيمان، لشيخ الإسلام ابن تيمية (ت٧٢٨)، المكتب الإسلامي، دمشق، ١٣٨١هـ.

١٦ ـ الإيمان، لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت٢٢٤)، تح الشيخ الألباني، دار الأرقم، الكويت.

١٧ ـ الإيمان، لمحمد بن يحيى العدني (ت٢٤٣)، الدار السلفية، الكويت، ط١، ١٤٠٧هـ.

١٨ ـ بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، أحمد الضبي (ت٥٥٩)، مطبعة روخس، مجريط، أسبانيا، ١٨٨٤م.

ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، للسيوطي (ت٩١١)، محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة الحلبي بمصر، ١٣٨٤هـ.

١٩ ـ بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة في الدولة المرينية من مدرّس وأستاذ وطبيب، لمؤلف مجهول، تح عبد الوهاب منصور، الرباط، ١٤٠٤هـ.

٢٠ ـ البداية والنهاية، للحافظ ابن كثير (ت٧٧٤)، مكتبة المعارف، بيروت، ط١، ١٩٦٦م.

٢١ ـ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، لابن عذاري المراكشي (ت٧٠٦)، الدار العربية للكتاب، ط٣، ١٩٨٣م.

٢٢ ـ تاريخ ابن خلدون (ت٨٠٨)، (العبر وديوان المبتدأ والخبر)، مؤسسة الأعلمي، بيروت.

٢٣ ـ تذكرة الحفاظ، للحافظ الذهبي (ت٧٤٨)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

٢٤ ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، للقاضي عياض، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٣٨٧هـ، وطبعة وزارة الأوقاف المغربية.

٢٥ ـ التعريف بالقاضي عياض، لولده محمد، تح: د. محمد ابن شريفة، وزارة الأوقاف المغربية، ط٢، ١٤٠٢هـ.

٢٦ ـ التكملة لكتاب الصلة، لأبي عبد الله القضاعي، ابن الأبار (ت٦٥٩)، مصر، ١٣٧٥هـ.

٢٧ ـ جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، أحمد ابن القاضي المكناسي (ت١٢٠٥)، دار المنصور، الرباط، ١٩٧٤م.

٢٨ ـ جمهرة أنساب العرب، للحافظ ابن حزم (ت٤٥٦)، دار المعارف، القاهرة، ط٥.

٢٩ ـ حُسْن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، للسيوطي (ت٩١١)، دار إحياء الكتب العربية.

٣٠ ـ الحلل الموشية في الأخبار المراكشية، لمؤلف أندلسي مجهول، تح: د.سهيل زكار وعبد القادر زمامة، الدار البيضاء، ط١، ١٣٩٩هـ.

٣١ ـ دورة القاضي عياض، مراكش ١٣ ـ ١٥/ ٥/ ١٤٠١هـ، وزارة الثقافة المغربية.

٣٢ ـ دولة المرابطين في المغرب والأندلس، د. سعدون عباس نصر الله، دار النهضة العربية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.

٣٣ ـ الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، إبراهيم ابن علي بن فرحون اليعمري (ت٧٩٩)، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٤ ـ الذيل والتكملة لكتابَي الموصول والصلة، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري المراكشي (ت٧٠٢)، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط١، ١٩٦٥ ـ ١٩٧٣م.

٣٥ ـ سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن قبر من العلماء والصلحاء بفاس، محمد بن جعفر الكتاني، فاس، ١٣١٦هـ.

٣٦ ـ سير أعلام النبلاء، للحافظ الذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٢هـ.

٣٧ ـ شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد مخلوف، دار الكتاب العربي، بيروت.

٣٨ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن العماد الحنبلي (ت١٠٨٩هـ)، دار الآفاق الجديدة.

٣٩ ـ شرح أصول اعتقاد أهل السنة، هبة الله اللالكائي (ت٤١٨هـ)، تح: د. أحمد حمدان، دار طيبة، الرياض.

٤٠ ـ شرف أصحاب الحديث، للخطيب البغدادي، أحمد بن علي (ت٤٦٣هـ)، جامعة أنقرة، ١٣٩١هـ.

٤١ ـ شيوخ العلم وكتب الدرس في سبتة، د. حسن الوراكلي، جمعية البعث الإسلامي، تطوان، المغرب.

٤٢ ـ الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ﷺ، القاضي عياض، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، وط. مكتبة الفارابي، دمشق.

٤٣ ـ صلة الصلة، لأبي جعفر أحمد بن الزبير، مكتبة خياط، بيروت.

٤٤ ـ الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وقضاتهم وأدبائهم، لأبي القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال (ت٥٧٨)، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٧٤هـ.

٤٥ ـ طبقات الحفاظ، للإمام السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ.

٤٦ ـ طبقات القراء (غاية النهاية)، لابن الجزري، محمد بن محمد (ت٨٣٣)، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٥١هـ.

٤٧ ـ طبقات المفسرين، محمد بن علي الداودي (ت٩٤٥)، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٣هـ.

٤٨ ـ الطحاوية في العقيدة السلفية، للإمام الطحاوي، وشرحها لابن أبي العز الحنفي، تح أحمد شاكر، مكتبة الرياض الحديثة، وتح شعيب الأرنؤوط، مكتبة دار البيان، دمشق، ط١، ١٤٠١هـ.

٤٩ ـ عصر المرابطين والموحدين، محمد عبد الله عنان، القاهرة، ١٩٦٤م.

٥٠ ـ عقيدة السلف أصحاب الحديث، عبد الرحمن الصابوني (ت٤٤٩)، تح بدر البدر، الدار السلفية، الكويت، ط١، ١٤٠١هـ.

٥١ ـ العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، محمد بن أحمد، تقي الدين الفاسي (ت٨٣٢)، مطبعة السنّة المحمدية، القاهرة، ١٣٨٨هـ.

٥٢ ـ الغنية، فهرسة شيوخ القاضي عياض، تح ماهر جرار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٠٢هـ.

٥٣ ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري، للحافظ ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢)، دار الإفتاء بالرياض.

٥٤ ـ فتوح إفريقية والأندلس، عبد الله بن عمر الواقدي (ت٢٠٧)، مطبعة المنار، تونس، ١٩٦٦م.

٥٥ ـ فهرسة ما رواه عن شيوخه، محمد بن خير الأشبيلي (ت٥٧٥)، القاهرة، ط٢، ١٣٨٢هـ.

٥٦ ـ فهرس ابن عطية المحاربي (ت٥٤١)، تح: محمد أبو الأجفان ومحمد الزاهي، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٣م.

٥٧ ـ فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، عبد الحي الكتاني، تح: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٢هـ.

٥٨ ـ الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، محمد بن الحسن الحجوي (ت١٣٧٦هـ) المكتبة العلمية، المدينة المنورة، ١٩٧٧م.

٥٩ ـ قلائد العقيان في محاسن الأعيان، الفتح بن خاقان (ت٥٢٨)، مطبعة بولاق، ١٢٨٣هـ، وط. مكتبة المنار.

٦٠ ـ القاضي عياض اللغوي من خلال حديث أم زرع، د. التهامي الهاشمي، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ١٩٨٥م.

٦١ ـ كتاب الإيمان من إكمال المعلم بفوائد مسلم، للقاضي عياض، تح: د. الحسين بن محمد شواط، دار الوطن، الرياض، ط١، ١٤١٧هـ.

٦٢ ـ كتاب العقيدة، للقاضي عياض، مخطوط، دار الكتب المصرية، قسم المجاميع، رقم ٢٥٠ خاص.

٦٣ ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى القسطنطيني، المعروف بحاجي خليفة (ت١٠٦٧)، دار الفكر، ط١، ١٤٠٣هـ.

٦٤ ـ الكامل في التاريخ، لابن الأثير، علي بن محمد الشيباني (ت٦٣٠)، دار صادر، بيروت.

٦٥ ـ اللباب في تهذيب الأنساب، لابن الأثير أيضاً، دار صادر، بيروت، ١٤٠٠هـ.

٦٦ ـ مجلة المناهل، عدد ١٩، وعدد ٢٢، المغرب.

٦٧ ـ مجموع الفتاوي، شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم وابنه محمد، دار الإفتاء بالرياض، ١٣٩٨هـ.

٦٨ ـ مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، لابن قيم الجوزية (ت٧٥١)، المطبعة السلفية، مكة المكرمة، ١٣٤٨هـ.

٦٩ ـ مدرسة الحديث في القيروان، د. الحسين بن محمد شواط، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، ط١، ١٤١١هـ.

٧٠ ـ مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي، (ت٧٣٩)، دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧٣هـ.

٧١ ـ مشارق الأنوار على صحاح الآثار، للقاضي عياض، وزارة الأوقاف المغربية، ط١، ١٤٠٢هـ.

٧٢ ـ معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، لعبد الرحمن الدباغ (ت٦٩٦)، وأكمله أبو القاسم ابن ناجي (ت٧٣٩)، مكتبة الخانجي بمصر، والمكتبة العتيقة، تونس، ط٢، ١٣٨٨هـ.

٧٣ ـ مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث، مع التقييد والإيضاح للعراقي، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ.

٧٤ ـ مقدمة إكمال المعلم بفوائد صحيح مسلم، للقاضي عياض، دراسة وتحقيق د. الحسين بن محمد شواط، دار ابن عفان، الخُبر، ١٤١٤هـ.

٧٥ ـ مقدمة تحقيق كتاب الشفاء، لجماعة من الكُتّاب، مع كتاب الشفاء، ط. مكتبة الفارابي ومؤسسة علوم القرآن، دمشق.

٧٦ ـ مقدمة تحقيق كتاب ترتيب المدارك (مع ترتيب المدارك).

٧٧ ـ منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز، للشيخ الشنقيطي (آخر تفسيره أضواء البيان).

٧٨ ـ منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، ط١. جامعة الإمام بالرياض، ١٤٠٦هـ، وط. مكتبة الرياض الحديثة.

٧٩ ـ منهجية فقه الحديث عند القاضي عياض، د. الحسين بن محمد شواط، دار ابن عفان، الخبر، ط١، ١٤١٤هـ.

٨٠ ـ المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، علي النباهي الأندلسي، المكتب التجاري، بيروت.

٨١ ـ المسالك والممالك، عبد الله بن عبد العزيز البكري (ت٤٨٧هـ)، الجزائر، ١٨٥٧م.

٨٢ ـ المعجب في تلخيص أخبار المغرب، محمد بن عبد الواحد المراكشي، دار الكتب بالمغرب، ط٧، ١٩٧٨م.

٨٣ ـ معجم البلدان، ياقوت الحموي (ت٦٢٦)، دار صادر، بيروت، ١٩٥٥م.

٨٤ ـ المعجم في أصحاب الصدفي، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي، المعروف بابن الأبار (ت٦٥٩هـ)، مطبعة روخس، مجريط، ١٨٨٥م.

٨٥ ـ المغرب الكبير، د. السيد عبد العزيز سالم، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م.

٨٦ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، عبد الرحمن بن علي، ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ)، دائرة المعارف، الهند، ١٣٥٧هـ.

٨٧ ـ المهدي بن تومرت، د. عبد المجيد النجار، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

٨٨ ـ الموحدون في الغرب الإسلامي، د. عز الدين عمر موسى، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

٨٩ ـ المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، لأبي عبد الله محمد الرعيني القيرواني، المكتبة العتيقة، تونس، ط٣، ١٣٨٧هـ.

٩٠ ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقري (ت١٠٤١هـ)، تح: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٣٨٨هـ.

٩١ ـ نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت٧٣٣)، تح: د. حسين نصار، المكتبة العربية، القاهرة، ١٤٠٣هـ.

٩٢ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، يوسف بن تغري بردي الأتابكي (ت٨٧٤هـ)، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، ١٣٤٨هـ.

٩٣ ـ هدية العارفين بأسماء المؤلفين (ذيل كشف الظنون، الجزءان ٥، ٦)، إسماعيل باشا البغدادي، دار الفكر، ١٤٠٢هـ.

٩٤ ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أحمد بن محمد بن خلكان (ت٦٨١)، تح إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ.

* * *

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
ـ هذا الرجل	٥
ـ المقدمة (أهمية العناية بتراجم أعلام الأمة ـ الصلة بتراث القاضي عياض ـ خطة البحث ـ منهج البحث)	٧
ـ التمهيد: بلاد المغرب في عصر القاضي عياض	١٥
أولاً ـ دولة المرابطين	١٦
ثانياً ـ دولة الموحدين	٢٢
ـ **الباب الأول**: القاضي عياض في مرحلة النشأة والطلب	٢٧
ـ مدخل	٢٧
ـ **الفصل الأول**: التعريف بالقاضي عياض	٣١
أولاً ـ اسمه ونسبه وكنيته وألقابه	٣٢
ثانياً ـ ولادته	٣٤

ثالثاً ـ أسرته ٣٤

رابعاً ـ طفولته ٣٦

خامساً ـ (سبتة) موطن القاضي عياض ٣٨

سادساً ـ نبذة من كتاب (التعريف بالقاضي
عياض) لولده محمد ٤٣

سابعاً ـ عقيدة القاضي عياض ٤٦

ثامناً ـ مذهبه الفقهي ٥٧

ـ الفصل الثاني: تكوينه العلمي والتربوي ٦٧

أولاً ـ طلبه للعلم في (سبتة) ٦٨

ثانياً ـ رحلته إلى الأندلس ٧٣

ثالثاً ـ أسباب عدم رحلته إلى المشرق ٨٠

رابعاً ـ شيوخه: ٨٥

أ ـ شيوخه في سبتة ٨٦

ب ـ شيوخه بالأندلس ٩٨

جـ ـ شيوخه بالإجازة ١٠٩

خامساً: مصادر القاضي عياض مبوَّبة على فنون العلم: ... ١١٧

النوع الأول: علوم الاعتقاد (كتب العقيدة ـ كتب الجدل والمناظرة ـ كتب مقالات الفرق والملل) . . . . ١١٨ ـ ١٢١

النوع الثاني: كتب التفسير وعلوم القرآن: (كتب التفسير ـ كتب غريب القرآن ومشكله ـ كتب الناسخ والمنسوخ ـ كتب القراءات) . . . . ١٢١ ـ ١٢٣

النوع الثالث: كتب السنة وعلومها: (كتب متون السنة ـ كتب علوم الحديث) . . ١٢٤ـ ١٤٠

النوع الرابع: كتب الفقه وأصوله: (كتب الفقه المالكي ـ كتب فقه المذاهب الأخرى ـ كتب الإجماع ـ كتب الخلاف الفقهي ـ كتب أصول الفقه ـ كتب المسائل الفقهية) ١٤٠ـ ١٤٦

النوع الخامس: كتب اللغة والأدب والشعر . . . ١٤٦ـ ١٥٠

النوع السادس: كتب الزهد والمواعظ والوصايا ١٥٠ ـ ١٥١

النوع السابع: كتب فهارس الشيوخ . . . . ١٥١ ـ ١٥٣

النوع الثامن: مصنفات ذات موضوعات متنوعة ١٥٣ ـ ١٥٤

- **الباب الثاني**: القاضي عياض في مرحلة الأستاذية والعطاء . . . ١٥٥
- مدخل ١٥٥
- **الفصل الأول**: عطاءات القاضي عياض العلمية والعملية :
أولاً ـ التدريس ١٥٥
ثانياً ـ القضاء ١٦١
ثالثاً ـ الشورى والإفتاء والخطابة ١٦٧
رابعاً ـ التأليف ١٦٨
خامساً ـ الإصلاح السياسي ١٧٢
سادساً ـ الإصلاح الاجتماعي ١٧٧
- **الفصل الثاني**: العلوم التي برع فيها القاضي عياض ١٨٣
أولاً ـ العقيدة ١٨٥
ثانياً ـ التفسير وعلوم القرآن ١٨٩
ثالثاً ـ السنة وعلومها ١٩٥
رابعاً ـ الفقه وأصوله ١٩٩
خامساً ـ علوم اللغة ٢٠١

سادساً ـ الشعر ٢٠٣

سابعاً ـ السير والمغازي والتاريخ ٢٠٦

ـ الفصل الثالث: مؤلفات القاضي عياض: ٢٠٩

القسم الأول: مصنفاته في الحديث وعلومه (الشروح الحديثية ـ مصطلح الحديث ـ السيرة ـ شرح غريب الحديث ـ كتب التراجم والرجال) ٢١٠ـ٢٦٦

القسم الثاني: مصنفاته في علم الفقه ٢٢٧

القسم الثالث: مصنفاته في القضاء والسياسة الشرعية ... ٢٣٠

القسم الرابع: مصنفاته في العقيدة ٢٣١

القسم الخامس: مصنفاته في اللغة والأدب ٢٣١

القسم السادس: مصنفاته في التاريخ ٢٣٢

* زمن تأليف عياض رحمه الله لكتبه ٢٣٣

ـ **الفصل الرابع**: تلاميذ القاضي عياض ٢٣٩

ـ **الفصل الخامس**: صفات القاضي عياض، أبي الفضل: (الموسوعية المعرفية ـ الفطنة وقوة الحفظ والفهم ـ سرعة القراءة والاستيعاب

ـ العقلية النقدية ـ المداومة على النظر في
كتب العلم مطالعة وتدريساً ـ محبة العلم
وأهله ومساعدة طلابه ـ الفصاحة وجودة
التأليف ـ الدفاع عن العقيدة والقوة في
الحق ـ الربانية وكثرة التعبد ـ الزهد في
الدنيا ـ الكرم والجود وقضاء الحوائج،
والإنفاق في سبيل الله ـ الإيناس في
المجلس ومرح الشخصية) ...... ٢٤٥ ـ ٢٦٩

ـ خاتمة القاضي عياض والثناء عليه: ٢٧١

أ ـ محنته ووفاته (رحمه الله) ٢٧١

ب ـ الثناء على القاضي عياض (رحمه الله) ٢٧٥

ـ **الخاتمة** (أهم نتائج البحث) ٢٨٥

ـ **فهرس المصادر** ٢٩٣

فهرس المحتويات ٣٠٧

* * *

أعلام المسلمين

سلسلة تراجم إسلامية تجمع بين العلم والفكر والتوجيه، وتتناول أعلام المسلمين في شتى الميادين.

صدر منها :

١ـ عبد الله بن المبارك
«الإمام القدوة»
محمد عثمان جمال

٢ـ الإمام الشافعي
«فقيه السنة الأكبر»
عبد الغني الدقر

٣ـ مصعب بن عمير
«الداعية المجاهد»
محمد حسن بريغش

٤ـ عبد الله بن رواحة
«أمير شهيد وشاعر على سرير من ذهب»
د. جميل سلطان

٥ ـ أبو حنيفة النعمان
«إمام الأئمة الفقهاء»
وهبي سليمان غاوجي

٦ـ عبد الله بن عمر
«الصحابي المؤتسي برسول الله»
محيي الدين مستو

٧ـ أنس بن مالك
«الخادم الأمين والمحب العظيم»
عبد الحميد طهماز

٨ ـ سعيد بن المسيّب
«سيد التابعين»
د. وهبة الزحيلي

٩ـ السلطان محمد الفاتح
«فاتح القسطنطينية وقاهر الروم»
د. عبد السلام فهمي

١٠ـ الإمام النووي
«شيخ الإسلام والمسلمين وعمدة الفقراء والمحدثين»
عبد الغني الدقر

١١ـ الشيخ محمد الحامد
«العلامة المجاهد»
عبد الحميد محمود طهماز
١٢ـ السيدة عائشة
«أم المؤمنين وعالمة نساء الإسلام»
عبد الحميد محمود طهماز
١٣ـ الإمام البخاري
«سيد الحفاظ والمحدِّثين»
د. تقي الدين الندوي
١٤ـ عبادة بن الصامت
«صحابي كبير وفاتح مجاهد»
د. وهبة الزحيلي
١٥ـ عبد الله بن عباس
«حبر الأمة وترجمان القرآن»
د. مصطفى الخن
١٦ـ جابر بن عبد الله
«صحابي وإمام وحافظ فقيه»
وهبي سليمان غاوجي
١٧ـ أحمد بن حنبل
«إمام أهل السنة»
عبد الغني الدقر
١٨ـ كعب بن مالك
«شاعر العقيدة الإسلامية»
د. سامي مكي العاني
١٩ـ أبو داود
«الإمام الحافظ الفقيه»
د. تقي الدين الندوي
٢٠ـ أسامة بن زيد
«حِبُّ رسول الله وابن حِبِّه»
د. وهبة الزحيلي
٢١ـ معاوية بن أبي سفيان
«صحابي كبير وملك مجاهد»
منير محمد الغضبان
٢٢ـ عدي بن حاتم
«الجواد ابن الجواد»
محيي الدين مستو
٢٣ـ مالك بن أنس
«إمام دار الهجرة»
عبد الغني الدقر
٢٤ـ عبد الله بن مسعود
«عميد حملة القرآن وكبير فقهاء الإسلام»
عبد الستار الشيخ

٢٥ـ معـاذ بـن جبـل
«إمام العلماء ومعلِّم الناس الخير»
عبد الحميد محمود طهماز

٢٦ـ الإمـام الجـويـني
«إمام الحرمين»
د. محمد الزحيلي

٢٧ـ القـاضـي البيضـاوي
«المفسِّر والفقيه المؤرخ»
د. محمد الزحيلي

٢٨ـ عبد الحميـد بـن بـاديس
«الإمام الرباني والزعيم السياسي»
د. مازن مطبّقاني

٢٩ـ تميم بسن أوس الـداري
«راهـب عصره وعـابـد أهـل فلسطين»
محمد حسن شراب

٣٠ـ السـلطـان عبد الحميد الثاني
«آخر السلاطين الكبار في الدولة العثمانية»
د. محمد حرب

٣١ـ السـيدة خـديجـة
«أم المـؤمنين وسبـاقـة الخلـق في الإسلام»
عبد الحميد محمود طهماز

٣٢ـ زيـد بـن ثـابـت
«كاتب الوحي وجامع القرآن»
صفوان داودي

٣٣ـ الإمـام الطبـري
«شيخ المفسرين، وعمدة المؤرخين، ومقدَّم الفقهاء والمحدِّثين»
د. محمد الزحيلي

٣٤ـ أبـو موسـى الأشـعري
«الصحابي العالم المجاهد»
عبد الحميد طهماز

٣٥ـ أبـو عبيـد القاسـم بسن سـلاّم
«إمـام مجتهـد وفقيـه محـدِّث ولغوي بارع»
سائد بكداش

٣٦ـ الإمـام الطحـاوي
«الإمام المحدِّث الفقيه»
د. عبد الله نذير أحمد

٣٧ـ سفيان بن عيينة

«شيخ شيوخ مكة في عصره»

عبد الغني الدقر

٣٨ـ الإمام ابن حجر العسقلاني

«أمير المؤمنين في الحديث»

عبد الستار الشيخ

٣٩ـ العز بن عبد السلام

«سلطان العلماء وبائع الملوك»

د. محمد الزحيلي

٤٠ـ عمر بن عبد العزيز

«خامس الخلفاء الراشدين»

عبد الستار الشيخ

٤١ـ الإمام القرطبي

«شيخ أئمة التفسير»

مشهور حسن سلمان

٤٢ـ سعد بن الربيع

«النقيب الشهيد»

محمد علي كاتبي

٤٣ـ الإمام الغزالي

«حجة الإسلام ومجدِّد المئة الخامسة»

صالح الشامي

٤٤ـ الإمام الزهري

«عالم الحجاز»

محمد حسن شراب

٤٥ـ عبد القادر الجيلاني

«الإمام الزاهد القدوة»

عبد الرزاق الكيلاني

٤٦ـ الإمام البيهقي

«شيخ الفقه والحديث وصاحب السنن الكبرى»

د. نجم عبد الرحمن خلف

٤٧ـ محمد بن الحسن الشيباني

«نابغة الفقه الإسلامي»

د. علي أحمد الندوي

٤٨ـ أبّي بن كعب

«صاحب رسول الله وسيد القرّاء في زمانه»

صفوان داودي

٤٩ـ الإمام مسلم بن الحجاج

«الحافظ الكبير وصاحب الجامع الصحيح»

مشهور حسن سلمان

٥٠ـ الحافظ الذهبي
«مؤرخ الإسلام ـ ناقد المحدّثين
إمام المعدِّلين والمجرِّحين»
عبد الستار الشيخ

٥١ـ سفيان الثوري
«أمير المؤمنين في الحديث»
عبد الغني الدقر

٥٢ـ الإمام علي بن المديني
«شيخ البخاري وعالم الحديث
في زمانه»
إبراهيم العلي

٥٣ـ محمد بن إسحاق
«إمام أهل المغازي والسِّيَرَ»
محمد أبو صعيليك

٥٤ـ الإمام محمد بن حبّان
«فيلسوف الجرح والتعديل»
محمد أبو صعيليك

٥٥ـ الإمام اللكنوي
«علاّمة الهند وإمام المحدِّثين
والفقهاء»
د. ولي الدين الندوي

٥٦ـ أم سَلَمة
«العاقلة العالمة أم المؤمنين»
أمنية عمر الخراط

٥٧ـ الإمام ابن كثير
«الحافظ المفسِّر المؤرخ الفقيه»
د. محمد الزحيلي

٥٨ـ الإمام ابن حزم
«إمام أهل الأندلس»
محمد أبو صعيليك

٥٩ـ عبد الله بن الزبير
«العائذ ببيت الله الحرام»
ماجد اللحام

٦٠ـ الحسن البصري
«الحكيم الواعظ الزاهد العالم»
د. مصطفى الخن

٦١ـ أم سُلَيم بنت ملحان
«داعية وهبت حياتها للدعوة»
أمينة عمر الخراط

٦٢ـ حذيفة بن اليمان
«أمين سرّ رسول الله ﷺ»
إبراهيم محمد العلي

٦٣ـ الإمـام الخطـابي
«المحدّث الفقيه والأديب الشاعر»
د. أحمد الباتلي

٦٤ـ مصطفـى صـادق الـرافعـي
«فارس الكلمة تحت راية القرآن»
د. محمد رجب البيومي

٦٥ـ الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي
«مَعْلمة العلوم الإسلامية»
د. محمد رجب البيومي

٦٦ ـ جمـال الدين القاسـمي
«أحد علماء الإصلاح الحديث
في الشام»
د. نزار أباظـة

٦٧ ـ أبـو عبيدة بـن الجـراح
«أمين الأمة وفاتح الديار الشامية»
محمد حسن شراب

٦٨ ـ أم عمـارة (نَسِيبة بنت كعب)
«الصحابية المجاهدة»
أمينة عمر الخراط

٦٩ ـ أم المـؤمنين زينـب
«الصالحة العابدة، أمُّ المساكين»
أمينة عمر الخراط

٧٠ ـ صـلاح الديـن الأيـوبـي
«قاهر العدوان الصليبي»
د. محمد رجب البيومي

٧١ ـ السلطان المظفر سيف الدين قطز
«بطل معركة عين جالوت»
د. قاسم عبده قاسم

٧٢ ـ القاضي عياض
«عـالـم المغـرب، وإمـام أهـل الحديث في وقته»
د. الحسين بن محمد شَوَّاط